حسين أحمد أمين

في بيت أحمد أمين

حسين أحمد أمين

في بيت
أحمد أمين

الكرمة

alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
twitter.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢٤
© حسين أحمد أمين ١٩٨٥، ١٩٨٩، ٢٠٢٤
الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة
تتمسك الكرمة بحقوق الملكية الفكرية، فاحترام الملكية الفكرية يدعم الإبداع ويعزز الإنتاج الثقافي.
نشكركم لشرائكم نسخة أصلية من هذا الكتاب، ولامتناعكم عن استخدام أو إعادة طباعة أي جزء منه بأي طريقة
من دون الحصول على موافقة خطية من الناشر، لأنكم بذلك تدعمون المؤلفين وتسمحون للكرمة بالاستمرار
في نشر الكتب التي تعجبكم.

أحمد أمين، حسين.
في بيت أحمد أمين/ حسين أحمد أمين - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٤.
٢٤٨ ص؛ ٢٢ سم.
تدمك: 9789778721911
أحمد أمين – سيرة
٢- المفكرون العرب
أ- حسين أحمد أمين
ب- العنوان
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٩٤١٢ / ٢٠٢٣

١ ٣ ٥ ٧ ٩ ٠ ١ ٨ ٦ ٤ ٢

تصميم الغلاف: أحمد فرج

المحتويات

تقديم بقلم الدكتور جلال أمين: سلطان العقل عند أحمد أمين
في بيت أحمد أمين
تذييل: سر الخلاف بين والدي وطه حسين
ملحق: مقالات وخواطر
عن آفات الشهرة وحلاوة النجاح
الفنان: هل هو بالضرورة إنسان مريض؟
بروتوكولات حكماء المسلمين
خاطرات على ضفاف الراين
لقاء مع المحقق الكبير الأستاذ محمود شاكر
عن حرية الفكر

«عكسيًّا، دُر عكسيًّا، يا زمن، في رحلتك، اجعلني طفلًا مرَّة أخرى لهذه الليلة فقط».

- إليزابيث أكرز ألن

«يعيش الرجل مرتين إذا استطاع الاحتفاظ بهبة الذاكرة، ليستمتع بالحياة الماضية مرَّة أخرى».

- مارتيال

بقلم: الدكتور جلال أمين

لا أظن أن شيئًا كان يمكن أن يجلب من السعادة لأحمد أمين أكثر من أن يعرف أن واحدًا من أبنائه سوف يستطيع أن يكتب عنه مثلما كتب عنه ابنه حسين، فيرد له جميله علينا بنفس الطريقة التي اختارها أحمد أمين للتعبير عن نفسه، وهي الأدب، وأن يكشف لتلاميذ أحمد أمين ومحبيه من جوانب شخصيته وأسلوب حياته ما لا يمكن أن يعرفه إلا واحد من أبنائه، وأن يعيد للحياة، بهذه القوة، أيامًا غالية كان يمكن أن تزول إلى الأبد بزوال أصحابها من الوجود.

وقد طلب مني أخي حسين أن أدلي أنا الآخر بدلوي، وأن أضيف ما أريد إضافته، فرأيت أن أقتصر على معالجة جانب واحد من جوانب حياة وشخصية أحمد أمين الخصبة، إذ قد يكون هذا الجانب قادرًا على تفسير أكبر قدر ممكن من جوانب شخصيته وإنتاجه.

هذا الجانب هو ما يمكن أن يطلق عليه «غلبة سلطان العقل» أو «ضعف الهوى» عند أحمد أمين. وحينما أقول إن أحمد أمين كان يتميز تميزًا واضحًا بقوة سلطان العقل، فإن هذا القول ليس من قبيل تحصيل الحاصل، الذي يصدق بالضرورة عليه باعتباره عالمًا ومفكرًا، كما أنه ليس من باب إطراء الابن لوالده. فهو ليس من قبيل تحصيل الحاصل، لأن الذي أعنيه لا ينطبق بالضرورة على كثرة من أبناء جيله وزملائه من الكُتَّاب والمفكرين، إذ أريد أن أزعم أن هذه الصفة لا تتوفر بنفس الدرجة عند أدباء وكُتَّاب عظام من جيله كطه حسين أو العقاد أو الحكيم أو المازني، وهو ما سأحاول أن أبينه فيما بعد. كذلك فإن هذا القول ليس قولًا يصدر لمجرد الإطراء، إذ إن ما يمكن أن يُسمى بـ«ضعف الهوى» عند أحمد أمين قد يعتبره البعض سببًا لتفوق طه حسين أو المازني، أو الحكم عليه كأديب وإن كان أيضًا سببًا لتفوقه عليهم كعالم ومؤرخ.

أحمد أمين رجل معتدل أشد الاعتدال في أحكامه الشخصية والعامة، قادر على إخضاع عواطفه للمنطق، ويتأبى أن يترك لها العنان. وهو من أكثر الناس استعدادًا للاعتراف بالخطأ وترحيبًا بالنقد العاقل، يحب أن يقلِّب الأمر على جوانبه كافة، فيرى في كل شيء محاسنه ومساوئه. وهو من أكثر الناس نفورًا من النفاق وسأمًا منه، إذ إن عقله اليقظ دائمًا لا يكف عن تنبيهه إلى عدم المبالغة في تقدير نفسه.

ذهب بعض أصدقائه إلى تفسير هذا الاعتدال عنده بأنه كان في مطلع حياته دارسًا للشريعة وقاضيًا، فقالوا إنه كان يكتب أيضًا كقاضٍ. ولكني أرفض هذا التفسير، فصفة متأصلة إلى هذه الدرجة في نفسه وتصرفاته، يُستبعد في رأيي أن تنتج عن مجرد توليه وظيفة من الوظائف أو عن نوع معين من الدراسة، وليس كل من درس القانون أو تولى القضاء معتدلًا بالضرورة في أحكامه

وسلوكه، بل قد يكون الأقرب إلى الحقيقة أنه درس الشريعة وتولى القضاء لأن هذا أو ذاك صادف ميلًا قويًّا لديه، والأرجح أنها صفة ولدت معه أو أنها من نتائج تربيته الأولى.

ما مظاهر هذا الاعتدال وضعف الهوى عند أحمد أمين، في سلوكه الفردي والعام وفي إنتاجه الفكري؟

أحمد أمين عندما يتزوج لا يتزوج عن حب، وإنما عن تقدير هادئ لمحاسن العروس وأوجه القصور المحتملة فيها، ومحاسن الأسرة التي يتزوج منها وأوجه ضعفها، وإذ تتغلب الأولى على الثانية يقرر الزواج على بركة الله.

وهو بعد الزواج يقرر بعد تفكير طويل أن أفضل الأشياء للأسرة والأمة ألا يزيد عدد الأولاد عن اثنين أو ثلاثة على الأكثر. وهو يقرر أيضًا بعد قراءة مستفيضة لكتب التربية أنه إذا أحسن تربية الأول قلده بقية الأبناء، فالمهم إذن أن يوجه رب الأسرة عنايته لحسن تربية أكبر أولاده. ولكنه لم ينجح في تنفيذ قراره الأول، ولا يبدو أنه كان على صواب تام في الثاني، فقد تغلبت عليه مخاوف الزوجة وطموحها إلى أن يكون لها عدد غفير من الأولاد عملًا بنصيحة دأبت على سماعها بأن عليها «أن تقص جناحَي زوجها لكيلا يطير»، وليس أفضل من كثرة الأولاد أثرًا في منع الزوج من الطيران بل ومن الحركة. كما أظن أنه كان مبالغًا في تقدير أهمية سلوك الولد الأكبر في التأثير على بقية الأولاد، فلا أظن أني، وأنا أصغر الأولاد، قد تأثرت كثيرًا بسلوك أخي الأكبر. وأظن أن أبي قد بالغ هنا، كما بالغ كثيرون من أبناء جيله، ربما بتأثير الفكر الغربي السائد في ذلك الوقت، في الأهمية التي كان يوليها لأثر البيئة على حساب عوامل الوراثة.

وحياة أحمد أمين العائلية حياة هادئة ومستقرة، لم يعكرها زواج آخر أو طلاق أو نزوات طارئة. وهو عادل أيضًا في معاملته لأولاده، فلا أذكر قَطُّ أنه أبدى إيثارًا لواحد منا على الآخرين. وهو يريدنا أن نُحكِّم العقل أيضًا ونحن في أشد الأعمار طيشًا، فكل المطالب تحتمل التأجيل أو الإلغاء عدا المطالب المتعلقة بالدراسة أو الصحة. وأكثر الأشياء في نظره كمالي، من الثلاجة الكهربائية والغسالة الأتوماتيكية إلى أي مظهر من مظاهر التأنق في الملبس أو الأثاث.

وغلبة سلطان العقل عند أحمد أمين تظهر أيضًا في حياته العامة، فهو بعد أن يصبح أستاذًا للأدب العربي في كلية الآداب، وهو لا يزال يرتدي العمامة والقفطان، يتساءل عما إذا كان هذا الزي الذي يناسبه وهو قاضٍ شرعي قد أصبح يناسب الآن منصبًا مدنيًّا بحتًا. ويطيل التفكير في الأمر ويستشير أصحابه. فنفسه لم تتعلق بشدة بهذا الزي أو ذاك، وهو لا يرتدي هذا الزي أو غيره تقليدًا أو خيلاء أو رغبة في الظهور، وإنما يريد فقط أن يرتدي الزي المتفق مع عمله.

وهو لا ينضم إلى أي حزب من الأحزاب، إذ لا يستهويه واحد منها دون غيره، وقد رأى السياسيين تحكمهم الأهواء وتغرهم المناصب ويفرحون بما لا يفرح به ويأسون على ما لا يأسى له. وإذا كان قد عده البعض من رجال الحزب السعدي، فإن الأمر لا يزيد في الواقع على تقديره

الفائق لشخصية النقراشي باشا ونزاهته، وليس إعجابًا بسياسة الحزب وتفضيلًا له على غيره، فهو لم يرَ فارقًا يستحق الذكر بين «مبادئ» هذا الحزب وبين «مبادئ» غيره. وعندما يظن النقراشي أن المودة المتبادلة بينهما قد تغري أحمد أمين بأن يقبل رئاسة تحرير جريدة الحزب اليومية «الأساس»، يعرضها عليه، وكان قد ترك لتوه عمله بالجامعة بوصوله إلى سن المعاش، فيعود أحمد أمين إلى داره يفكر في الأمر ويذكر لنا مزاياه ومساوئه، وهو يشعر في قرارة نفسه منذ البداية بأنه لا بد رافض العرض، ثم يرفضه بالفعل رغم ما فيه من وعد بالجاه والسلطان والمرتب المجزي. لا عجب إذن أنه إذ يرشح اسمه للباشوية يرفض الملك الإنعام بها عليه (إذ ماذا قال أحمد أمين في الثناء عليه؟)، وإذ يرشحه كبار السعديين وزيرًا للمعارف يحتج شباب الحزب (إذ أين ولاء أحمد أمين للحزب؟).

وأذكر أنه قرب نهاية الأربعينيات اتصلت به مؤسسة فرانكلين الأمريكية تطلب منه أن يشرف على إصدار كتاب يشترك فيه عشرة أدباء من المصريين وعشرة من الأمريكيين بحيث يكتب كلٌّ منهم فصلًا بعنوان «علمتني الحياة» يذكر فيه دروس حياته وما حظي به من تجاربه، فإذا بأحمد أمين يرى جاذبية الفكرة من الناحية الثقافية البحتة، ولكنه لا يرتاح لأنها ممولة من أجنبي، فيطيل أيضًا التفكير في الأمر ويستشير أصدقاءه، ويتحول الأمر لديه إلى معضلة فكرية أو مشكلة أخلاقية، إلى أن يطمئن إلى رأي لطفي السيد: «إني أتعاون مع الشيطان لنشر العلم».

وأحمد أمين يظل الصديق الوفي الصدوق لعبد الرزاق السنهوري إلى آخر أيامه، ولكن يجمع أيضًا بينه وبين طه حسين احترام متبادل تعلوه جفوة سطحية. ويشتد العداء بين السنهوري وطه حسين، وهما رجلان لا تقلل من شأن أيهما حدة المشاعر وجموح العاطفة، فيظل أحمد أمين على علاقة طيبة بكليهما، وكأن كلًّا منهما يرى في أحمد أمين ضميره هو، والحق الذي ترفض العاطفة الاعتراف به، فإذا مات أحمد أمين رثاه هذا وذاك بأجمل عبارة وأصدق إحساس.

وترى مثل ذلك في مناسبة أخرى استرعت الانتباه ولفتت الأنظار. فإذ يقع على أحمد أمين ظلم وهو أستاذ في كلية الآداب، إذ يرفض مجلس الكلية منحه الدكتوراه على كتبه الشهيرة في التاريخ الإسلامي، لسبب لا صلة بينه وبين استحقاق أحمد أمين للدرجة، تنظم له مجموعة من أصدقائه حفلًا غير معهود يُدعى إليه رجال مصر من رؤساء الأحزاب ورؤساء الوزارة والوزراء الحاليين والسابقين، فيجلس هؤلاء جميعًا ليحتفلوا بأحمد أمين - وهم الذين لا يطيق واحد منهم الآخر - ويشتركوا جميعًا في إلقاء خطب الثناء عليه، قبل أن ينفضوا من خلافاتهم ومشاجرتهم.

ويصل أحمد أمين إلى عمادة كلية الآداب، ثم يستقيل منها احتجاجًا على نقل أستاذ منها دون استئذانه، فيسأله صحفي عن شعوره لدى تركه العمادة، فيقول كلمته الهادئة العاقلة: «أنا أكبر من عميد وأصغر من أستاذ». فالسلطة لم تستهوه، ولم تنسِه لحظة واحدة معنى الأستاذية ومعنى العمادة.

لم يكن من الممكن إذن ألا تظهر غلبة سلطان العقل عند أحمد أمين في فكره وكتاباته، فهو يتفق مع طه حسين وعبد الحميد العبادي أستاذ التاريخ بجامعة الإسكندرية، على الاشتراك في عمل ضخم يؤرخ للإسلام، على أن يتناول طه حسين التاريخ الأدبي، والعبادي التاريخ السياسي، وأحمد أمين تاريخ الحركات الدينية والفلسفية والحياة العقلية بوجه عام. ويتوجه أحمد أمين بكل نشاطه لفترة تزيد على ثلاثين عامًا لإتمام مهمته، فينتج سلسلة «فجر الإسلام وضحاه وظهره»، ويختمها بكتاب «يوم الإسلام»، وكلها تتميز برصانة التحليل والبعد عن الهوى والدقة في البحث عن الأسباب والمسببات، بينما يتجه طه حسين إلى التأريخ للإسلام تأريخًا أقرب إلى الأدب منه إلى التأريخ والتحليل، فينتج «على هامش السيرة»، ويظل هذا هو الفارق الأساسي بين إنتاج الرجلين.

فإذ يكتب طه حسين «الأيام» ويكتب أحمد أمين «حياتي»، يقدم لنا طه حسين تحفة فنية ويقدم لنا أحمد أمين صورة صادقة كل الصدق، ليس فقط لحياته، بل لحياة مجتمعه في عصره، فيصف الحياة الاجتماعية في الحارة والكُتَّاب والجامعة، ويحلل المجتمعات الأوروبية والشرقية التي أتيحت له زيارتها، وكأنه لا يريد الإمتاع بقدر ما يريد التنوير، فتأتي عباراته مباشرة مقتضبة لا تزيد كلمة واحدة عما يفي بالغرض. وقد يحار قارئ طه حسين فيما يرده إلى الواقع وما يرده إلى خيال الكاتب، ولا تصيبه مثل هذه الحيرة وهو يقرأ لأحمد أمين.

وأحمد أمين يخضع نفسه لنفس هذه النزعة العادلة في الحكم على الأشياء والأشخاص، فهو وإن كان يعرف قدر نفسه ولا يغمطها حقها، فإنه لا يكاد أبدًا يشعر بالغرور. إنه لو كان لا يعرف لنفسه قدرها، ما كان قد أقدم قَطُّ على كتابة تاريخ حياته، ولكنه مع ذلك يقدم على هذا العمل بوجل شديد وبتواضع جم، وإذا به يجد نفسه مضطرًّا إلى أن يبدأ كتاب حياته بالإجابة على السؤال ذي الإجابة البديهية: «من أنا حتى أكتب تاريخ حياتي؟»، فيكتب في المقدمة: «ما للناس بحياتي؟ لست بالسياسي العظيم ولا بذي المنصب الخطير...»، ولكنه يستمر في الكتابة لأنه يعرف أن لديه بالفعل ما يستحق أن يقال.

في نفس الكتاب يروي قصة شائقة عن نفسه تحببك فيه بما ينطوي عليه من تواضع جذاب قد يصل إلى درجة غمط النفس حقها، فهو يُدعى إلى إلقاء محاضرة في مدرسة القضاء الشرعي وهو لا يزال طالبًا فيها، والذي يطلب منه ذلك هو ناظر المدرسة نفسه، الرجل المهيب الفاضل عاطف بركات. وكانت العادة أن تعرض المحاضرة على الناظر ليقرأها ويقرها أو لا يقرها. ويرسل أحمد أمين بالمحاضرة إلى الناظر، فيردها الناظر إليه مع رسول دون أن يكتب عليها شيئًا. ويبحث أحمد أمين عن ملاحظات الناظر فلا يجدها، فيقول لنفسه: «طبعًا، وكيف تعجبه مثل هذه المحاضرة؟ فهذه الفكرة قديمة، وتلك الفقرة أسأت فيها التعبير، والمحاضرة كلها ليس فيها ما يستحق أن يقال». وإذا بالناظر يقابله صباح يوم المحاضرة فيسأله متعجبًا: «لماذا لم تعلن عن المحاضرة؟»، فيجيبه أحمد أمين: «لأنها لم تعجبك، إذ لم أجد عليها ما يدل على موافقتك»، فيقول الناظر مستنكرًا:

«أبدًا، إنما وجدتها كاملة ليس فيها ما يعلّق عليه». فيعيد أحمد أمين قراءة المحاضرة ويقول لنفسه: «إن مع الناظر الحق. فهذا المعنى جديد لم يسبق إليه، وهذه الفقرة بديعة سلسة». ويلقي المحاضرة فيستحسنها الناس فيعتبرها حسنة.

إن هذا الذي نسميه ضعف الهوى أو غلبة العقل عند أحمد أمين، قد يكون هو المسؤول عن كونه عالمًا ومؤرخًا أكثر من كونه فنانًا أو أديبًا بالمعنى الضيق للأدب. فليس لدى أحمد أمين عنف طه حسين وقوة عاطفته، وليس لديه بوهيمية المازني، ولا قوة خيال توفيق الحكيم. ولكن هذه الصفة نفسها هي التي حمت أحمد أمين من الارتماء في أحضان السياسة والانفعال بتياراتها، وهي نفسها التي حمته من عبودية المنصب وتملق الكبراء، وأسبغت عليه نوعًا نادرًا من الشجاعة ما كان ليحظى بها لو ارتبط بحزب ارتباط غيره به.

كان يمثل كلية الآداب في مجلس جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة الآن)، وأراد الملك فؤاد لسبب ما أن يمنح مجلس الجامعة الدكتوراه الفخرية لواحد من المستشرقين. ويؤيد معظم أعضاء المجلس مطلب الملك، فيقف أحمد أمين ويده ترتعش يعارض هذا القرار، انفعالًا للحق، وكأن شخص المستشرق ومؤيده قد غابا تمامًا عن وعيه، ولا يرى في الأمر كله إلا مسألة الاستحقاق أو عدم الاستحقاق. ويحل عيد جلوس الملك، فيتسابق الكُتَّاب في مديحه والثناء عليه، ويُطلب من أحمد أمين أن يكتب مقالًا في هذه المناسبة فيرفض، ثم يلحون في الطلب فيجرب، فإذا أعاد قراءة المقال مزقه لأنه لا يحتوي على غير الكذب. ولا أعرف لأحمد أمين مقالًا كُتب للوصول إلى منصب، أو كتابًا ألفه ليتملق الجمهور. وهو في نهاية عمره يلقي بنظرة شاملة على حياته كلها، فلا يندم إلا على ما تولاه من مناصب منعته في بعض الأحيان من الكتابة.

هل يمكن أن نفسر بهذه النزعة أيضًا، غلبة سلطان العقل في موقف أحمد أمين من قضية الأصالة والمعاصرة؟ ذلك أني أعتقد أن هذه القضية لم تكن محسوسة لديه بنفس الدرجة التي بلغتها عند طه حسين مثلًا، الذي كان أكثر تعاطفًا بكثير مع حركة التغريب، أو عند رشيد رضا الذي حسم القضية لصالح التراث، فالقضية عند أحمد أمين معقدة وبالغة الصعوبة. لقد كان في عنفوان شبابه أكثر إعجابًا بالحضارة الغربية منه في نهاية حياته، وإن كان لم يفقد في يوم من الأيام إعجابه الشديد بالتقدم التكنولوجي لدى الغرب، وما توفره رفاهية الغرب من احترام لآدمية الإنسان. وأذكر أن هذا الإعجاب قد أثار دهشة، بل وقدرًا من السخط، لدى الكاتب الهندي الكبير أبي الحسن الندوي، عندما جاء إلى القاهرة وقابل أحمد أمين مدفوعًا بإعجابه الشديد بإسلامياته، إذ رأى عند أحمد أمين افتتانًا ببعض مسالك الغرب لم يكن هو ليرضى عنها. على أن أحمد أمين مع تقدم العمر به قويت شكوكه في الحضارة الغربية، وكتب ينتقد المستشرقين بعنف، وعبر عن هذا الشك بقوة في كتاب «يوم الإسلام». وبالجملة فإني أعتقد أن أحمد أمين لم يعثر في هذه القضية على الحل الكامل الذي ترتاح إليه نفسه. ولهذا السبب كتب العقاد في رثائه مقالًا بعنوان «المدرسة

الوسطى» (نُشر بجريدة «أخبار اليوم» بعد أيام قليلة من وفاة أحمد أمين في ٣٠ مايو ١٩٥٤)، وكان العقاد يقصد بذلك أن أحمد أمين لا ينتمي إلى المدرسة التي ترفض التغريب برمته، ولا إلى المدرسة التي تتنكر للتراث.

كلمة واحدة يمكن إذن أن تلخص حياة أحمد أمين وأعماله الفكرية على السواء وهي «الصدق»، فإذا سمحت لنفسي بأن أتكلم كواحد من أولاده، فإني أقول إني لا أذكر له مرة واحدة كذب فيها علينا ولو تعلق الأمر بأتفه الأمور، كشراء هدية أو الخروج في نزهة. والنفاق والرياء في السياسة مكروهان لديه لما ينطويان عليه من كذب، والأمانة العلمية في الكتابة مطلوبة لما تنطوي عليه من صدق، والمبالغة في تزويق الكلام وفي العناية باللفظ دون المعنى مكروهة أيضًا لما فيها من كذب. ولأسمح لنفسي هنا أيضًا بأن أقول إنه لهذا السبب كان من أكثر الناس تعرضًا للخداع في البيع والشراء، إذ لم يكن يتصور أن يكون المشتري منه أو البائع له قادرين على الإفراط في الكذب. ولهذا السبب أيضًا لم يكن ليستطيع أن يفهم قَطُّ لماذا يمكن أن يحتجب الناس عنه فجأة ويكفون عن زيارته لمجرد أنه قد ترك منصبًا خطيرًا، بينما كانوا لا يكفون عن التودد إليه والتردد على مكتبه ومنزله حينما كان في يده أن يعَين شخصًا أو يفصله.

ومع ذلك فقد كان موفقًا توفيقًا غريبًا في حياته الخاصة والعامة على السواء، فلم يحرمه صدقه من التمتع بحياة هنيئة في إجمالها، ولا عرَّضه لشظف العيش. وهو إذ ينظر إلى حياته بأكملها يسترعي انتباهه هذا التوفيق، ويندهش له، ويحاول أيضًا أن يفسره بالعقل، فيقول في نهاية كتاب «حياتي» إن هذه الظاهرة... «يصعب تعليلها العقلي أو تفسيرها بالتحليل الاجتماعي أو النفسي، فكم رأيت من أناس كانوا أذكى مني وأمتن خلقًا وأقوى عزيمة، وكانت كل الدلائل تدل على أنهم سينجحون في أعمالهم إذا مارسوها، ثم باءوا بالخيبة ومنوا بالإخفاق، ولا تعليل لها إلا أن «فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ».

في بيت أحمد أمين

حقيقة لا يمكن النيل من أهميتها، تشرح ما يعنيه النقاد في حديثهم عن هذا الكاتب أو ذاك حين يقولون إنه «نشأ في بيت علم وأدب». فآلاف هي الفوائد التي عادت علينا من أن أبي واسع الثقافة، وكاتب مشهور، وعاشق متذوق للأدب... فوائد لم ندركها واعين في حينها، وإن ظلت عقولنا وقلوبنا تتغذى يوميًّا عليها.

فالأدب في أسرتنا لم يكن «درسًا» نتلقاه في ساعات معينة من أيام معينة، نفرغ منه فنعود إلى ما كنا فيه، وإنما كنا نتنسم عبيره في جو المنزل نفسه، وفي كل ساعة من ساعات اليوم، لا يكاد ينفصل عن سائر مظاهر حياتنا اليومية. يدق جرس التلفون فنهرع نحن الأطفال للرد بأصواتنا الرفيعة المتحمسة، والسماعة الكبيرة لا نكاد نستطيع أن نثبتها عند آذاننا: «آلو! من حضرتك؟»، فيجيب المتكلم بأنه عباس العقاد، أو توفيق الحكيم، أو محمود تيمور، «أحمد بك موجود؟»، «دقيقة واحدة»، ثم نجري إلى المكتبة صائحين: «بابا، بابا، محمود تيمور»، فيتوجه أبي إلى التلفون، ونسمعه يسأل محمود تيمور عن سبب تخلفه عن حضور جلسة المجمع اللغوي، ثم يسرد عليه ما دار خلالها، وكيف اقترح فيها إقرار المجمع للكلمة العامية «مُحَنْدَق» لخلو معاجم اللغة من كلمة تعبر عن نفس المعنى بدقة، ويقص عليه ما كان من موقف طه حسين، واعتراض لطفي السيد، ثم يقرأ عليه رسالة وصلته لتوه من المستشرق الألماني برجشتراسر يعلق فيها على ما ذكره في كتابه «فجر الإسلام» عن طبيعة العقلية العربية، وتتناهى إلى أسماعنا أسماء ابن خلدون والجاحظ والغزالي وابن رشد تُنطق في ألفة غريبة، وتتكرر على لسان أبي تكرُّر أسمائنا نحن عليه، فكأنما هم أقارب لنا أو جيران أو مستأجرو أرض. وكثيرًا ما تهتف به والدتي إذ يفرغ من المحادثة التلفونية، قائلة إنه إما أن يشرح لها من هو ابن عبد ربه أو ألا يأتي بسيرته، لأن تكرر نطقه بهذا الاسم قد بدأ يغيظها حقًّا! وهو أحيانًا يعود من الخارج فيسأل عمن اتصل به تلفونيًّا، فتجيب والدتي:

- اتصل بك ابن خلدون مرتين.

ويسأل والدي مبتسمًا:

- هل ترك رسالة؟

- نعم، يقول إنه قد بدأ يتململ في قبره من كثرة تناولك سيرته بالحديث!

فأسماء تيمور وهيكل والمازني وطه حسين وغيرهم، أسماء مألوفة لدينا مذ كنا في الخامسة أو السادسة، وقبل أن نقرأ لأصحابها حرفًا، ووالدتي تقلد لنا أصواتهم وطريقتهم في الكلام، فنضحك لصدق محاكاتها لصوت العقاد الضخم، وبطء طه حسين الشديد، وثرثرة الدكتور السنهوري، وصياح الشاعر علي الجارم باسمه فكأنما يعلنه للتاريخ: «أنا الجارم»، وتبسُّط عبد العزيز فهمي باشا في الأخذ والرد. ثم ها هو والدي يقص أمامنا أصل العداء المرير بين السنهوري وطه حسين،

وحيرته هو بينهما، وكلّ صديقه الحميم. ويسرد علينا طرائف عن بخل توفيق الحكيم، ويثني على أريحية تيمور وسماحته وطيب خلقه، ويشبه لنا أسلوب طه حسين بحلوى «غزل البنات» ويأتي بأمثلة منه. أو ها هو يقص علينا ذكرياته عن الشيخ محمد عبده، ونبأ مقابلاته لحافظ إبراهيم، أو يتنبأ بمستقبل باهر في الأدب لموظف صغير بوزارة الأوقاف يُدعى نجيب محفوظ. فإن ولدت قطتنا أسمعنا قصيدة شوقي في القطة التي ولدت بحجرة مكتبه، وإن قُدم لنا وقت الغداء باذنجان أنشدنا قصيدته «نديم الباذنجان».

على ضوء هذا وغيره من مئات القصص والتفاصيل عن الحياة الخاصة لأدبائنا وأنماط شخصياتهم، بدأنا نقرأ كتبهم، فهم ليسوا غرباء علينا، وباستطاعتي حين أقود محمود تيمور إلى حجرة الاستقبال أن أعبر له عن إعجابي بروايته «سلوى في مهب الريح»، أو حين أرد على العقاد في التلفون أن أخبره أني قرأت له «عبقرية عمر».

- كم سنك يا جحش؟

- عشرة.

- تقرأ «عبقرية عمر» في العاشرة؟ لا أعتقد أنك فهمته كل الفهم.

- بل فهمته، فاسألني فيه إن أحببت.

- ليس لديَّ وقت لسؤالك فيه. نادِ لي أباك!

* * *

كان من أول ما تفَتح ذهني لإدراكه أن والدي أديب مؤرخ، وأن احترام الناس له، وإجلالهم إياه، راجعان أساسًا إلى إنتاجه في الأدب والتاريخ. بل إن طيب معاملة المدرسين والنُّظار لي، واعتناءهم بأمري عناية خاصة لا يلقاها غيري، مرجعهما أني ابن لهذا الأديب. كان إذا اصطحبني يومًا إلى الناظرة في شأن ما، هبت واقفة في احترام، ومدت يدها إلى رأسي تربت عليه طوال حديثها معه، فإن دخل الحجرة عليَّ وأنا أراجع دروسي مع مدرس خصوصي، تقدم المدرس منحنيًا لتقبيل يده. مثل هذه الإدراكات الأولى، وقد ترسبت في ذهني، جعلت الفكر عندي مذ كنت في السادسة هو المثل الأعلى، أحل نشاطه المكانة الأولى بين أوجه النشاط البشري. وكنت وأنا طفل إن سألني سائل عما أحب أن أكونه في المستقبل، أجيبه دون تردد، وفي ثقة من قدرتي على أن أكون ما أريد: «عميدًا للأدب العربي».

أذكر مرة إذ كنت في الخامسة أني دخلت عليه في غرفة المكتبة دون أن أطرق الباب، ففاجأته واقفًا إلى إحدى خزانات الكتب المتناهية إلى السقف يطبع على غلاف أحد الكتب قبلة! وإذ وقفت أرقبه مشدوهًا إذا به وقد تنبه إلى وجودي يتظاهر بأنه إنما كان ينفخ عن الكتاب ما علاه من غبار، ثم يلقي به جانبًا في غير اكتراث.

تفتحت أعيننا أول ما تفتحت على نسخ التصحيح من كتبه تصل إلى منزلنا لتراجع، وسعاة

ينتظرون بالباب ليعودوا بها، ومطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر نمر عليها كل يوم خميس حين كان والدي يصطحبنا إلى اجتماعاته بزملائه من الكُتَّاب أعضاء اللجنة، فنراقب العمال يرصون الحروف، ويديرون الآلات، ويبعثون الطرب فينا بطبعهم أسماءنا على بطاقات. وكان لمنظر الورقة الكبيرة ناصعة البياض تمر بين الأسطوانتين السوداوين ثم تخرج في مثل لمح البصر وقد امتلأ فراغها بأعمدة الكلمات والصور، أثره الغريب في نفوسنا، نرقبه مأخوذين مفتونين، فعرفنا وقتها الملزمة وعدد صفحاتها، وطريقة جمع الملازم وطيها وتغليفها، وأنواع الورق وأثمان رزمه، وأوجه استخدام القصاصات المتخلفة منه، فإن كان العامل وقت زيارتنا واسع الوقت، واسع الصدر، فقد يسمح لنا بأن نجرب أيدينا في رص الحروف، أو إدارة الآلة، وتحويل الورقة الكبيرة المطبوعة إلى ملزمة.

وفي البيت، كان والدي إذا أغلق على نفسه الباب وجلس للكتابة، أُعلنت الأحكام العرفية، وسكنت الأصوات، فإذا اللعب يكف، وإذا الكلام أقرب إلى الهمس، إن صاح أحدنا عن غفلة كتم الآخر له فمه المفتوح بكفه، وإن دخل الخادم يتكلم بصوت عالٍ فوجئ بالأصابع إلى الشفاه تحذره: «شششش!».

* * *

وكان لإجلال الناس والدي أثر غير الذي تحدثت عنه. فقد كان من أبعث اللحظات على السرور والرضا عندي، لحظة أن يطلب منا المدرسون في الحصص الأولى من العام الدراسي أن يقف كل تلميذ ليفصح عن اسمه: «إبراهيم الشامي.. خالد البناني.. عمر ذهني». لا تعليق! حتى إذا ما جاء دوري وقلت في لهجة عادية: «حسين أحمد أمين»، استمهلني المدرس يسأل عما إذا كنت ابنًا لأحمد أمين المؤرخ المعروف وعميد كلية الآداب، وكانت إجابتي بالإيجاب إيذانًا بأن أتلقى طيلة العام معاملة خاصة.

وكان ذلك يثير غيظ التلاميذ، وقد أتاني بعضهم مرة يسأل:

- لمَ تصر على الإجابة بحسين.. أحمد.. أمين.. ولا تكتفي، كما يكتفي الآخرون، بذكر الاسم الأول والأخير؟!

وكان يزيد من ضيقهم بعض تصرفات المدرسين والنظار حيالي، كتهامسهم مع مفتشي وزارة المعارف إن أجبت على سؤال أحدهم إجابة طيبة، أو تعليقهم على موضوع كتبته بأن «ابن الوز عوام». وقد كان أبي يسألني عقب كل أول يوم من الأعوام الدراسية عن موقع مكتبي من الفصل، فإن أخبرته أن المكتب في أحد الصفوف الخلفية، رفع سماعة التلفون يحادث ناظر المدرسة، فإذا بالناظر خلال إحدى حصص اليوم التالي يدخل فصلنا وبصحبته فراش، فيهمس في أذن المدرس بكلمة ثم يخرج، ويصيح المدرس:

- حسين أحمد أمين!

فأقف، فيطلب من الفراش أن يحمل مكتبي إلى الصف الأول. وعلى الرغم من أن معظم التلاميذ كانوا يفضلون الصفوف الخلفية لتمتعهم فيها بحرية أكبر، فقد كان مثل هذا التصرف كفيلًا بأن يلهب صدورهم بالغضب والاحتجاج.

غير أنه من الواجب أن أعترف بأن توقير المدرسين والنظار لوالدي لم يكن وحده المؤثر في تصرفهم تجاهي، فقد كان أبي يتمتع بسلطة كبيرة في وزارة المعارف، سواء لتوليه أحد المناصب الرفيعة فيها، أو لعلاقته بوزرائها وكبار موظفيها. فكان المدرسون إذا أرادوا الشكوى من وضع معين، أو طمعوا في ترقية أو نقل، فاتحوني لكي أكون واسطتهم لدى أبي. وكان والدي يسألني أحيانًا:

- أعندكم مدرس يُدعى كذا؟

فأجيبه بالإيجاب.

- إنه مرشح لإحدى بعثات وزارة المعارف إلى لندن، ولكن حذارِ من أن تخبره الآن.

وإذ أخبر المدرس في اليوم التالي، إذا بالدنيا لا تكاد تسعه من الفرح والتهلل، ويظل يسألني بين حين وحين خلال الأشهر الباقية من العام الدراسي عن أخبار البعثة وما تم بشأنها، وإذا بمعاملته لي تزداد رقة، وتقاريره عني ترفعني إلى السماء.

فأيًّا كان السبب في مثل هذه المعاملة إذن، فلا شك أنها أفادتني كثيرًا، فلم يحدث مثلًا أن ضُربت في المدرسة أو عوقبت، وكانت معرفة المدرسين لوالدي كفيلة وحدها بأن أحسن بسببها سلوكي وأتقن مذاكرتي للدروس خشية الإشارة إليَّ بالمثل المقابل لـ«ابن الوز عوام»، وهو «باب النجار مخلع». كما أنها أخضعتني لرقابة وعناية كبيرتين في زمن كان عدد تلاميذ الفصول يزيد زيادة تجعل من الصعب إشراف المدرس على كل تلميذ على حدة، فكانوا ينقلون إلى أبي أنباء مسلكي وطبيعة اهتماماتي، بل أحيانًا بعض النوادر المتعلقة بي، وردودًا ذكية صدرت مني. وكنت أدهش من إحاطة أبي بها وهي التي حدثت بعيدًا عن ناظريه.

حدث مرة أن كلمَنا والدي خلال جلسة عائلية عن فصل قرأه في كتاب لمارك توين عنوانه «ما الإنسان؟»، يذهب فيه المؤلف إلى أن تصرفات الإنسان أنانية بطبيعتها حتى في حالات الإحسان والشفقة، ويضرب لذلك مثلًا من يتخلى في ليلة عاصفة باردة عن معطفه لامرأة فقيرة عجوز، قائلًا إن المحسن يعلم أنه لو لم يعطِ المرأة معطفه لقضى ليلة مؤرقة يعذبه ضميره خلالها، ففاضل بين ميزة الاحتفاظ بالمعطف وميزة استمتاعه بليلة هادئة وضمير مطمئن، فاختار الثانية.

ثم حدث لحسن الحظ أن طلب منا مدرس اللغة العربية بعدها بأسبوعين أو ثلاثة كتابة موضوع إنشاء في «الأنانية»، وكتب لنا على السبورة عناصر الموضوع حتى نستعين بها، غير أني نحيت هذه العناصر جانبًا، وبدأت أسرد نظرية مارك توين على أنها من عندي وثمرة تفكيري. وبعد

بضعة أيام، فاجأني أبي أثناء العشاء، وعلى شفتيه ابتسامة، بقوله إنه علم بأمر موضوع الإنشاء الذي بسطت فيه نظرية مارك توين. قلت في قلق:

- أأخبرت المدرس أنها فكرة مارك توين؟

أجاب بالنفي ثم ابتسم. على أي حال فقد طلب المدرس مني عند إعادته للكراسات أن أقرأ الموضوع على تلاميذ الفصل، مبديًا إعجابه بأولئك الذين يفكرون لأنفسهم، ويطلعون بفكر مبتكر، دون التزام بعناصر الموضوع التي تُملى عليهم!

كان مولدي بضاحية مصر الجديدة صيف عام ١٩٣٢. فإن كان قد ذُكر في شهادة الميلاد أن المولد كان في حي الجمالية بالقاهرة، فلهذا التزوير قصة، وهي أن والدتي كانت تصر على أن تقوم بمساعدتها في حالات الولادة قابلة يهودية معينة تُدعى فريدة كوهين، أخرجتني ومعظم إخوتي إلى هذا العالم، ولم يكن من المرخص لفريدة هذه أن تمارس مهنتها إلا في دائرة معينة لا تدخل مصر الجديدة في نطاقها، فكانت تشترط على والدتي أن يُكتب قبالة محل الميلاد في شهاداتنا اسم أحد الأحياء الواقعة في دائرة اختصاصها.

كنا نقطن منزلًا ضخمًا، هو ملك لأبي، سكنته العائلة قبل مولدي بسبع سنوات. وكانت للمنزل حديقة واسعة تحيط به، زرعت بها أشجار الجوافة والمانجو والليمون والمشمش، ثم نخلة واحدة قصيرة لا تنتج ثمرًا، وتكعيبة طويلة للعنب تمر تحتها السيارة من الباب الرئيسي إلى الجراج. وقد كان والدي شغوفًا بتعهد الشجيرات التي يغرسها بنفسه، وكثيرًا ما كان يأتي إليها وينحني عليها بنظره القصير كي يرى ما طرأ على أغصانها وثمارها من نمو، وكان يفضل الكتابة في الحديقة شتاء، فيأتي له الخادم بكرسي ومنضدة من القش، ثم بعمود طويل من الكتب يختفي وراءه رأس الخادم، فلا يفارق أبي مكانه المشمس إلا بعد أن ترسل إليه والدتي أحدنا عدة مرات ليخبره أن الطعام كاد يبرد في انتظاره.

أما نحن فكنا بالحديقة أكثر شغفًا، ففيها كنا نقضي معظم أوقات فراغنا مع من تسمح لنا والدتي باصطحابه من الخدم، ومعظمهم لا تزيد سنهم على سننا إلا بأعوام قليلة، فكنا إن تعبنا من الجري والقفز، وتسلق الأشجار والصعود عن طريق فروعها إلى سطح الجراج، ومحاكاة طرزان وتقليد صيحته، جلسنا نتضاحك على سور قصير من الأسلاك يفصل حديقتنا عن حديقة الجيران، وقد انحنى من تكرار جلوسنا عليه، وتأرجُحنا به، حتى كاد يلامس الأرض. وكثيرًا ما كانت تأتي إلينا ابنة الجيران، وهي طفلة يونانية في الثامنة، ذات شعر أشقر وعينين زرقاوين، نحدثها بلغتنا فلا تفهم إلا حدسًا، وتحدثنا بلغتها فنغرق في الضحك. والظاهر أني كنت أشعر نحوها بما يشبه الحب، فقد كان لديَّ قميص أزرق ذو ياقة منشاة، كنت أحرص على ارتدائه كلما علمت أنها بالحديقة.

غير أن ما أذكره بوضوح غريب (وهي من أعز الذكريات عندي على الرغم من بساطتها)، يوم لعبنا فيه حتى ما كادت سيقاننا لتحملنا، فجلست على ذلك السور وإلى جانبي خادمة سمراء تُدعى «صديقة» في مثل سني. كنا نضحك دون سبب كما لا يضحك إلا الأطفال وقد غطى وجهينا العرق، وشعرنا بالدم يجري متدفقًا ساخنًا في عروقنا، ثم إذا بنا وقد أحاط كلٌّ منا كتف زميله بذراعه، وإذا بعاطفة جياشة من الحب الغريب تملأ صدري نحوها، ونحو إخوتي، ونحو الحديقة، ونحو الجيران، ونحو الحياة، وأحس في ثقة أنها تشعر بمثل ما أشعر به. كنت وقتها في السابعة

تقريبًا، وقد استمر هذا الشعور نحو ثلاث دقائق أو خمس، غير أني أستطيع أن أقول الآن وقد جاوزت الخمسين إن هذه الدقائق كانت أسعد مدة خبرتها في حياتي، وإني لم أخبر بعدها إحساسًا في مثل نقاء ذلك الإحساس وبراءته.

كان المنزل - لكثرة الأطفال فيه - يعج بالخدم والخادمات الذين كانت والدتي تحضرهم من القرية أو ترسلهم خالتي إلينا منها. وقد لعب هؤلاء في حياتي وحياة إخوتي دورًا مهمًّا خلال فترتَي الطفولة والصبا، لا أستطيع معه أن أفصلهم عن ذكريات هذين العهدين. كانوا رفاق حداثتنا وأحد المصادر الكبرى لسعادتنا. الأمر المزعج الوحيد الذي كان ينجم عن اختلاطنا بهم هو انتقال القمل إلينا منهم، مما يجعل والدي يصر على أن يحلق شعر رؤوسنا حتى جذوره (وكان هذا في عرفنا نكبة)، بينما كانت والدتي تحلق للخدم شعر رؤوسهم، ذكورًا كانوا أم إناثًا!

وقد شغف الإخوة الثلاثة الصغار: أحمد وأنا وجلال، في إحدى الفترات، بانتحال مهنة التدريس. فكان أحمد يضع ورقة أسئلة لي ويصحح إجاباتي، وأضع بدوري ورقة أسئلة لجلال وأصحح إجاباته، مستخدمًا في تصحيحها القلم الأحمر. فلما احتج جلال المسكين بأنه وحده الذي لا يضع امتحانًا ولا يصحح، فكرنا في أن يقوم ثلاثتنا بتعليم الخدم، وكلهم أميون. وبالفعل، أعددنا جدولًا ووزعنا الحصص، واستخدمنا حجرة زجاجية مشمسة تطل على الحديقة مكانًا للدرس، ثم تولى جلال تعليم الحساب، وتوليت تعليم اللغة العربية، وتولى أحمد، إلى جانب النظارة والتفتيش، تعليم الإنجليزية، وقد وجد لنفسه نظارة دون زجاج كان يلبسها كلما دخل الفصل. غير أننا صادفنا في مشروعنا الصعاب، فالخدم لم يأخذوا الأمر على النحو الجدي الذي كنا نرجوه، معتبرين «الحصص» فسحة لهم يرتاحون فيها من العمل المنزلي، يضحكون أثناءها ويتقاذفون بالأقلام والكراسات التي دفعنا ثمنها من مصروفنا الخاص، فلم يكن غريبًا ألا يحرز أي منهم تقدمًا يُذكر، وأن يخرج الجميع بعد انتهاء المشروع كما دخلوه. ثم إن الحصة كانت في بعض الأحيان تطول، بينما ينتظر مدرس الحصة التالية بالباب وقد نفد صبره، يطل برأسه بين الفينة والفينة يستعجل المدرس بالداخل، وأحيانًا يشتمه، فيهرع إليه مدرس الحصة ليلكمه، والتلاميذ يرقبون المعركة في حالة من السرور والمرح الشديد.

أما الصعوبة الكبرى التي أودت بالمشروع، فهي تعارض مواعيد الدروس مع مواعيد عمل الخدم. ولشد ما كنا نغضب كلما سمعنا صوت والدتي من شرفة الطابق العلوي تنادي على أحد الخدم كي يبتاع لها شيئًا من السوق، فكان «الناظر» يصيح من الحديقة وهو يضرب الأرض بقدمه:

- ألا يحلو شراء الأشياء إلا ونحن في الفصل؟!

فتجيبه والدتي:

- وماذا أصنع وأبوكم يريد ليمونًا مع الحساء؟

والخادم أثناء المحاورة ينتظر النتيجة مبتسمًا وعيناه تنتقلان من والدتي إلى أحمد، ومن أحمد إلى والدتي، حتى إذا ما تهيأ للذهاب، ألححنا عليه ورجوناه مستعطفين أن يعود سريعًا، وأن يقطع المسافة عدوًا إن أمكن!

كان الإخوة الكبار يحدثوننا عما لاقوه من والدي في صباهم من شدة وصرامة في المعاملة، حتى لقد كانوا يختبئون تحت الأسرَّة إذا سمعوا صوت السيارة وقد وصلت به إلى البيت وإن لم يكونوا قد ارتكبوا ذنبًا، وعن كيف كان لا يسمح بدخول البيت لمن يتأخر منهم بعد ساعة معينة من الليل، فيضطرون إلى المبيت في حجرة البواب في رفقة البراغيث والبق إلى الصباح.

غير أن مثل هذه المعاملة لم يَلقَها غير الإخوة الأربعة أو الخمسة الكبار. وقد فسر والدي لنا فيما بعد تغير أسلوب تربيته تفسيرات شتى، منها اقتران فكرة التربية في ذهنه في بادئ الأمر بطريقة تربية أبيه له، وهو مفهوم لم يتخلص منه إلا بعد قراءته في كتب التربية، وأسفاره العديدة، وما دلته عليه تجاربه وملاحظاته. ومنها اعتقاد كان لديه بأنه إن أحسن تربية الابن الأكبر وقوَّم أخلاقه، سار بقية إخوته على نهجه دون حاجة إلى تدخل كبير من جانب الوالدين. ومنها ازدياد إقباله على التأليف منذ حوالي عام ١٩٢٧ حين شرع في كتابة «فجر الإسلام». فإن أحببنا أن نحدد تاريخًا معينًا لهذا التغير الجوهري في أسلوب التربية، فهو تاريخ رحلته إلى تركيا عام ١٩٢٨. وما زالت لدينا صفحة سطرها في طريق عودته منها بالباخرة، يعترف فيها بخطئه إذ يقسو في معاملة أولاده، ويعاهد نفسه أن يغير من هذه المعاملة، «فأكون معهم ألطف وأعطف وأرق وأكثر مرحًا».

على أي حال، فإن والدتي تؤكد لنا أنه حتى في عهد «جاهليته» لم يكن بالقسوة التي توحي بها هذه الصفحة من اعترافه. وهي تضرب مثلًا لذلك، الليالي التي كان المتأخر في الإياب يقضيها في حجرة البواب، فتقول إنهما - أي هي وأبي - كانا يقطعان الليل بأكمله ساهرين، يذرع أبي الغرفة جيئة وذهابًا وهو يحس بندم وإشفاق يحاول قمعهما، ويرفض أن يسمح لوالدتي بإنارة الغرفة حتى لا يعرف «الولد الشقي» أنهما مستيقظان بسببه.

غير أنه على الرغم مما طرأ على أسلوب والدي في التربية من تطور جوهري، وعلى الرغم مما كنا نلمسه منه من عطف وعناية كبيرين، فقد ظل حاجز قوي من الرهبة يقف دائمًا بيننا وبينه، يحول دون رفع الكلفة، أو التجاوب إن حاول أحيانًا التبسط معنا أو تشجيعنا على مفاتحته بأسرارنا. فإن كانت والدتي تقسم أنه كثيرًا ما انحنى على الأرض في هيئة الحصان، يحملنا على ظهره ويركض بنا حول الغرفة ونحن نقهقه ونستحثه، فإن هذا التأكيد منها لم يكن ليفلح إلا في إثارة عجبنا لجرأتنا.

كنا نُسمي حجرته «أوضة السرير»، ربما لاحتوائها على أفخم سرير بالبيت! وكان يختار لنفسه في الشتاء أكثر حجرات الطابق العلوي مواجهة للشمس، وفي الصيف أقلها تعرضًا لها. ولا أزال أذكر الأيام التي كانت تتم فيها هذه المبادلة (في أبريل وأكتوبر من كل عام)، وأفراد العائلة والخدم

يروحون ويجيئون بالأثاث والكتب من حجرة إلى أخرى. وكان يستخدم غرفة نومه للقراءة أيضًا. وإذ إنَّ جل وقت فراغه كان يخصص للقراءة والكتابة، فقد كانت الساعات التي نجلس إليه فيها - عدا أوقات الطعام - تُختلس اختلاسًا. لا يكاد أحدنا يجرؤ على أن يدخل وحده الغرفة وهو منهمك في البحث، فإن دخلنا فلا بد من والدتي معنا نحتمي بها، نمشي وراءها طابورًا على أطراف الأصابع، فإن جلست جلسنا، وإن انتهى حديثها إلى أبي ونهضت نهضنا معها في نفس اللحظة ونخرج وراءها صفًّا كما دخلنا. وعلى الرغم من أن أبي كان دائمًا ينحي الكتاب جانبًا إن دخلنا عليه، محاولًا أن يتبسط في لقائنا ويبتسم، فقد كنا نشعر في قرارة أنفسنا بأن رفقة الكتاب أحب إلى نفسه.

كنت في صباي أحبَّ أبنائه إليه، ربما لما لمسه فيَّ منذ البداية من اهتمام بالآداب والتاريخ وإقبال نهِم على القراءة. وقد كنت في حداثتي كثيرًا ما أرى الله في منامي، يكلمني وأكلمه، فأخبر والدي بما أرى، وأردد ما أسمع، فكان يتأثر لما أرويه، ويقبِّل رأسي مغتبطًا. حتى كانت ليلة رأيت فيها في المنام نفسي واقفًا عند نهر في صحراء، فإذا بملك من السماء له وجه أخي عبد الحميد يهبط عند الضفة المقابلة من النهر، فيذكر لي أن الله سيختارني نبيًّا حين أكبر. وأقص نبأ الحلم على العائلة وقت الإفطار، فإذا والدتي تقول في حماس:

- ولمَ لا؟ ربما!

غير أن والدي ذكَّرها معترضًا بأن محمدًا خاتم النبيين.

- ومع ذلك، فلا مانع من أن يكون الحلم مبشرًا بأن سيكون لحسين مستقبل عظيم.

وكنت أشعر بوضوح بأن مثل هذه الأحلام المتكررة تزيد من مَعزتي عنده.

ومن الطريف أن إخوتي قد استاءوا عند سردي لهذا الحلم (عدا عبد الحميد الذي سره أن أراه في هيئة ملك!)، فاتهموني بعد الإفطار بالكذب والاختلاق، أو على أقل تقدير، بخلطي بين أحلام اليقظة ورؤى المنام. وأذكر أن أحدهم ضربني ساعتها على قفاي ليعزز من رأيه. وقد شبهتهم والدتي حين رأتهم يهاجمونني بإخوة يوسف النبي الذين ألقوه في الجب غيرة وحسدًا.

كان عبد الحميد شديد التدين في ذلك الحين، يطيل الصلاة ويكثر من تلاوة القرآن، وكثيرًا ما جلس إلينا يفقهنا في الدين ويجيب على تساؤلاتنا في حكمة وسعة صدر. وإذ إنه كان يشجعنا على توجيه الأسئلة دون تحرج، ومهما بلغ فحواها من الجرأة، فقد سألناه مرة:

- إذا كان الله خالق هذا العالم، فمن خلق الله؟

وأتانا صوت والدتي، وقد سمعتنا، تستغفر الله العظيم من هذا السؤال. غير أن عبد الحميد أجابنا في ثقة وهدوء:

- سؤال ذكي ومعقول. ولكن لتفرضوا معي أن كائنًا ما خلق الله، فإنكم ستتساءلون حينئذ: ومن خلق هذا الكائن؟ لنفرض أن كائنًا خلق هذا الكائن، فستتساءلون: ومن خلق هذا الكائن الثالث؟ فإن تمسكنا بهذا التساؤل إلى ما لا نهاية فسنصل حتمًا إلى الاعتراف بأنه لا بد من كائن لم يخلقه أحد. هذا الكائن الذي لم يخلقه أحد، هو الله!

وقد نال هذا الرد منه إعجاب الجميع واستحسانهم، خاصة بسبب اللهجة الواثقة التي أدلاه بها، ولسعة صدره وترحيبه بهذا السؤال الشائك.

ولم يكن عبد الحميد مصدرًا لتزويدنا بالمعارف الدينية فحسب، بل كان كذلك مَعينًا من القصص لا ينضب. ومئات هي المرات التي كان يجمعنا فيها حوله على سرير واسع ليقص علينا فصولًا من الروايات الإنجليزية المبسطة التي كان يقرأها، فنصغي إليه في نهم وكأن على رؤوسنا الطير، ويتوافد الخدم إلى باب الغرفة للاستماع فلا ندعه يقوم من مكانه إلا إن أقسم لنا أنه لم يقرأ بعدُ

الفصول التالية للنقطة التي توقف عندها.

أما أخي حافظ، وهو يصغر عبد الحميد بعامين، فقد اختار لنفسه منحى انعزاليًّا كان غريبًا علينا، وموقفًا عقليًّا لم نكن وقتئذ بالقادرين على استساغته. كان، ولا يزال إلى اليوم، حاد العاطفة والمزاج، لا يمكنه الحديث في أمر مهما تفه شأنه إلا بث الحديث جماع روحه وقلبه. كان في ذلك الحين يقدس غاندي إلى حد العبادة، قد بسط طعامه وملبسه، ويكرر محاولته بين الحين والحين أن يصبح نباتيًّا. وقد قادته قراءاته عن غاندي إلى ولهٍ لمعرفة تولستوي، فقرأ جملة من كتب الأخير في الدين والفوضوية. والظاهر أن حادث وفاة أعز أصدقائه كان له تأثير عميق في نفسه وفكره. غير أن الطريقة العنيفة التي انتهجها حافظ في التعبير عن أفكاره ونظره إلى أفراد العائلة على أنهم غير أهل لتلقي الحقيقة، وكثرة شجاراته معنا، وطول خصامه لنا، صد قلوبنا عن هذا النمط الفكري، إلى أن جاء اليوم الذي قبلناه فيه من مصدر آخر!

غير أن حب حافظ الغريب للمسرح الذي بدا قويًّا واضحًا عنده منذ صباه، اضطره في النهاية إلى العودة إلى حظيرة العائلة يلتمس فيها ميدانًا لممارسة مواهبه. فقد كان والدي يفاجئنا أحيانًا عند عودتنا من المدرسة بإعلانه عزمه على اصطحابنا إلى دار الأوبرا. مثل هذا الإعلان منه كان دائمًا يسكرنا من البهجة والفرح. ولا أزال إلى اليوم أرى نفسي بوضوح جالسًا على كرسي مرتفع، في بنطلوني القصير، في مقصورة حمراء الجدران، ذات مرايا كبيرة مذهبة الإطار، أتطلع بعينين واسعتين إلى سقف الصالة المذهب المزين بصور الفنانين والثريا الضخمة في وسطه، وفي يدي قطعة كبيرة من الشوكولاتة التي كان يأتي بها إلينا في المقصورة سكرتير الأوبرا في ذلك الحين، صلاح ذهني. فأما عني فكنت أكثر شغفًا بفخامة الدار ذاتها ومراقبة الجمهور مني بما أشاهده على مسرحها، وأما حافظ فكان يزدرد المسرحيات ازدرادًا، يحفظ الكثير من حوارها بعد سماعه مرة واحدة، ويدخر في ذاكرته الملاحظات عن حركات الممثلين وطريقتهم في الأداء، حتى إذا جاء المساء التالي رأيناه ينزع من الأسرَّة ملاءتين، متخذًا منهما ستارة ينصبها في صالة الطعام، عاهدًا إلى أحد الخدم بمهمة شد حبل الغسيل الذي رُبط بطرفيها حين يعطيه إشارة البدء، بينما نجلس نحن على الكراسي التي رصها في الجانب الأوسع من الصالة، فإن أطل أحدنا برأسه ليرى ما يدور خلف الستارة من الاستعدادات، ترك حافظ ما بيده مزمجرًا ليضرب المتطفل على رأسه ويلوي له أنفه. والحق أنه كان دائمًا يترك في نفوسنا من الإعجاب بتمثيله وذاكرته وقدرته على المحاكاة ما لا يقل عن إعجابنا بما شاهدناه في الأمسية السابقة.

* * *

حديثي عن علاقة حافظ بالمسرح، يؤدي بي إلى الحديث عن حب والدتي له، وموقفها من الأدب بوجه عام.

على الرغم من انتماء والدتي إلى عائلة أكثر عراقة وثقافة من عائلة أبي، فإنه لا هي، ولا أي

من إخوتها ذكورًا كانوا أو إناثًا، تلقى قدرًا كافيًا من التعليم. كان جدي لأبي ابنًا لفلاح، وكان على الرغم من ضآلة دخله وكثرة أولاده يصر على منحهم أكبر قسط ممكن من الثقافة، بل إنه كان من أوائل المصريين الذين أرسلوا بناتهم إلى المدرسة. وقد ذكر والدي في كتابه «حياتي» أن أباه كان مؤمنًا بضرورة تعليم الفتاة لتشارك الرجل حياته مشاركة حقيقية. غير أن عمتي ذكرت لي منذ بضعة أعوام أن الفكرة الرئيسية وراء إرسالها إلى المدرسة كانت أن تتمكن من كتابة خطابات إلى عائلتها بالشكوى من زوجها إن حدث وتزوجت من شخص غريب عن العائلة، أو اصطحبها زوجها إلى مدينة بعيدة وأساء معاملتها!

أما والدتي فجدها الأكبر هو محمد علي باشا البقلي (الحكيم) أول ناظر مصري لمدرسة الطب، الذي غضب عليه الخديو إسماعيل فأرسله مرافقًا للحملة العسكرية إلى الحبشة حيث قُتل. وكان أبوها قاضيًا وفقيهًا في القانون وصديقًا حميمًا لعبد العزيز باشا فهمي. ومع ذلك فالواضح أنه قد أهمل تعليم أولاده إهمالًا فاضحًا. وكان موته المبكر، دون أن يخلف وراءه ثروة تُذكر، نذيرًا بخروج الأولاد من مدارسهم، وسعي الذكور منهم إلى كسب عيشهم بالعمل في بعض الوظائف الصغيرة. وقد قصت علينا والدتي من الأخبار عنه ما رسم له في ذهني صورة غير جميلة، فالظاهر أنه كان فظ الطباع، شرس الخلق، سيئ المعاملة لزوجه. جاءته امرأة مرَّة تحاول أن تقدم له هدية (أو رشوة) حتى يحكم لصالحها في قضية ينظرها، فإذا به يجر المرأة من شعرها إلى خارج الدار، ويجردها من ثيابها، ويضربها بالسوط، وهي تولول وتستغيث، حتى فرَّق الناس بينهما.

تُوفي جدي هذا قبل أن يناهز الخامسة والثلاثين، وتبعته جدتي بعد عدة أشهر وهي في حوالي الثالثة والثلاثين، تاركين صبيين وطفلتين. وقد تولى تربية هؤلاء اليتامى والإنفاق عليهم قريب لهم من أكبر أثرياء مصر، هو أحمد عفيفي باشا والد هدية زوجة بهي الدين باشا بركات. فأما الولدان فسرعان ما وجدا لنفسيهما عملًا، وأما والدتي وخالتي فقد قضتا السنوات السابقة على زواجهما في هذه العائلة الكريمة، تعاملان معاملة بقية أطفال الأسرة. وقد نشأت بين والدتي وهدية منذ ذلك العهد صداقة استمرت حتى وفاة والدتي عام ١٩٥٩. وكانت تلك السنوات أسعد فترة في حياتها على الإطلاق. كانت خلالها دائمة الضحك والمرح، لا تحمل همًّا ولا تعرف القلق، محبوبة من الجميع، يصر عفيفي باشا على ألا يصطبح بوجه غير وجهها. وكانت تتدلل أحيانًا فلا تدخل إليه في الصباح كعادتها حاملة صينية القهوة، وتضحك في الخفاء حين تسمعه يصيح مغضبًا: «أين زينب؟ أين زينب؟ لا أريد أن يحمل إليَّ القهوة غيرها». وقد عبرت والدتي وهي على فراش الموت عن رغبتها في أن تدفن في مدافن هذه العائلة، فخصصت لها هدية بركات قبرًا في موضع تظله أشجار المانجو والمشمش، على بُعد عدة أمتار من قبر عفيفي باشا.

وقد احتفظت والدتي على الدوام بتلك الروح المرحة التي بدأت بها حياتها، فكانت على الرغم

مما صادفته فيما بعد من متاعب وأمراض، بشوشة الوجه، منطلقة الضحكات، شغوفة بالمزاح، لا يدخل عليها أحدنا إلا أشرق له وجهها وابتسم. وقد كان أكثر ما يغيظها من والدي في السنوات الأولى من الزواج على الأقل، قلة الضحك في بيته وبين أفراد عائلته، والتزام وجهه التعبير الجاد، لا يكاد يعرف التعبير عن فرح إلا بشبح ابتسامة، وهي التي اعتادت في منزل أقربائها جوًّا يضحكون فيه للتافه والملآن، وقد كان هذا الجِد الذي لا يعرف هزلًا كفيلًا بأن يقضي على روح المرح عند الكثيرين. غير أن والدتي ثبتت له، وما زالت لدينا صورة شمسية صادقة الدلالة لأبي وقد جلست إلى يساره والدتي مغرقة في الضحك، تشير إليه أن يبتسم على الأقل للمصور، وأن يزيح عن وجهه العبوس.

قضت والدتي سنتين أو ثلاثًا في مدرسة أوروبية بالقاهرة لم تفلح بها، ولم تخرج إلا ببعض الحساب، وبالجمل الإنجليزية: No good, please, give me the Pencil, come here. وبعض المفردات مثل: mat, cat, rat, hat (دون أن تعرف أيها الدالة على القطة وأيها على الفأر) ثم دعاء «أبانا الذي في السماوات» كانت ترتده على النحو التالي: Our fazzar which art in hefenn, halod be zu nem zy will be done, zy kinkumkum.

وقد حاول والدي جاهدًا عقب زواجهما أن يعطيها دروسًا في الجغرافيا والتاريخ واللغة حتى يُضيق من الهوة الرهيبة بين ثقافته وثقافتها، وحتى يضمن اهتمامًا منها بما كرس له حياته. غير أنه اضطر بعد مدة إلى أن يطرح محاولاته يائسًا، وهو يعجب كيف يرفض ذهن امرأة كهذه متقدة الذكاء أهمية الإحاطة بموقع بريطانيا أو فتوحات بونابرت.

وكانت النتيجة أن ظلت والدتي لا تستطيع أن تعين موقع مصر من خريطة العالم، لم تسمع بألمانيا إلا حين نشبت الحرب وارتفع ثمن الصابون، ولم تسمع بلندن حتى سافر إليها أخي محمد وبدأت تكتب إليه. وهي مع ذلك تعرف الكثير عن إيران لأن لها صديقة «عجمية» تعرفت بها في الترام فصارتا صديقتين حميمتين، وتعرف عدة جمل يونانية تستخدمها في محادثة الجيران.

كانت تقرأ الصحف - عدا الأبواب السياسية منها - وتهتم بالأخص بأسعار الذهب، وصفحة الوفيات، والإعلانات المبوبة. فأما الكتب فثلاثة أو أربعة تعشقها عشقًا، وتعيد قراءتها كلما فرغت منها: «مجاني الأدب» في نسخة مهلهلة احتفظت بها منذ أيام الدراسة، وكتاب في مقومات الصحة وأسباب المرض، و«الأمثال العامية» لأحمد باشا تيمور، ومجموعة أزجال عثمان جلال. أما كتب والدي فلم تقرأ منها غير مقال واحد في «فيض الخاطر» بعنوان «ولود وعقيم»، عن حوار بين سيدتين في الترام. وإنما قرأته والدتي لأنها هي السيدة الولود، قد نقلت إلى والدي حوارًا دار بينها وبين سيدة عقيم جلست بجوارها في الترام، فرآه أبي جديرًا بأن يسجل في مقال.

كانت تقول لوالدي:

- أصحيح أن هناك من الناس من يدفع نقودًا لشراء كتبك؟!

وعلى الرغم من ذلك الاختلاف الضخم بين ثقافتيهما، فإنه لم يعكر حياتهما الزوجية، ولم يؤثر فيها. فإن كان هو قد شُغل بالتأليف والقراءة، فقد شُغلت هي بتربية أولادهما الثمانية، فإن التقيا بعد ذلك كان ذكاؤها الطبيعي معوضًا عن نقص تعليمها، ولم يكن جهلها بفتوحات بونابرت سببًا ينغص عليهما حياتهما.

الأمر الذي كان يدهشني منها هو حبها للمسرح الذي لم يكن يقل قوة عن حب أخي حافظ له. اصطحبها والدي عقب الزواج لمشاهدة إحدى كوميديات علي الكسار. وكانت تلك هي المرة الأولى في حياتها التي تدخل فيها مسرحًا. فإذا بها تخرج منه مذهولة تتمتم:

- أفي الدنيا مثل هذه الأمور وأنا غافلة عنها؟! يا لشبابي الضائع! يا لخيبتي السوداء!

وباتت من يومها من مرتادي المسرح العاشقين له، تعرف جيدًا مسرحيات الريحاني ويوسف وهبي والكسار والمسيري، وتحفظ سطورًا من «غادة الكاميليا» و«عائلة باريت»، ترددها في كل مناسبة وبغير مناسبة. أما مسرحياتها المفضلة فمسرحيات موليير، لا ترى شيئًا يفوق «البخيل» أو «مريض الوهم». فإن شهدت مسرحية محزنة أربكت من معها بعلو صوت بكائها أثناء التمثيل، خاصة إن ذُكر فيها أن للأم ولدًا متغيبًا. وكانت تردد عقب كل تمثيلية تعجبها أن تلك التمثيلية تعالج مشكلتها هي الخاصة، وكأنما كتبها المؤلف عنها.

فرغت مرة من قراءة «الأمثال العامية» ولم تجد لديها جديدًا تقرأه، فعرضت عليها أن أروي لها قصة كنت قد قرأتها ذلك اليوم، وهي «حاجة الإنسان من الأرض» لتولستوي. وإذ انتهيت من سردها، إذا بي أراها وقد اغرورقت عيناها بالدموع، ثم إذا بها تطرق مفكرة في القصة، حتى إذا ما استوعبت مغزاها رفعت رأسها قائلة:

- ربنا يسعدك يا حسين! إنت حتطلع راجل عظيم.

وكأني أنا مؤلف القصة! ثم طلبت مني أن أقص عليها قصة أخرى، فقصصت «الشيطان وكسرة الخبز»، وذكرت لها أن مؤلفها هو نفس مؤلف القصة الأولى وأريتها صورته. وفي اليوم التالي ابتعت مجلدًا يضم ثلاثًا وعشرين من قصص تولستوي القصيرة بالإنجليزية، فكنت أترجم لها القصة جملة جملة، حتى إذا ما فرغت من تلاوة واحدة أربكتني بدعائها وشكرها. وكثيرًا ما كانت بعد ذلك تطلب مني أن أحكي لها حكاية من تأليف «الرجل ذي اللحية الطويلة» (وهي تسميتها لتولستوي). فإن لم يكن لديَّ الجديد، جعلتني أعيد عليها «حاجة الإنسان من الأرض» أو «رجلان عجوزان» أو «شرارة مهملة تحرق الدار»، وهي القصص الأثيرة عندها.

لا أذكر متى سمعت عن الله لأول مرة، أو عن محمد، أو متى أو كيف بات لي دين.

غير أن أقدم ما أذكره في هذا الصدد، أن سحور الأهل في رمضان كان يفتنني.

كنا نلح على والدتي متوسلين أن توقظنا للسحور كما توقظ الكبار، فكانت ترفض مشفقة حينًا وتقبل مشفقة حينًا. فإن رفضت هددناها بالصوم دون سحور، وإن قبلت تناولنا السحور ولا نصوم. فروضة الأطفال تصر على إذن كتابي من ولي الأمر بالصيام، وإلا أجبرت الطفل على تناول اللبن والبسكويت صبحًا، والغداء ظهرًا. ووالدي يأبى منح هذا الإذن، غير أنه في أيام الجمعة والإجازات يسمح لنا بالصيام نصف نهار، ويقول إن من صام من الصغار نصف نهار فكأنما صام النهار كله، له ثواب كامل. ثم تأتي والدتي فتفتي بأن من صام أول رمضان ومنتصفه وآخره فكأنما صام الشهر كله، له ثواب كامل. فكان صومنا في طفولتنا لا يزيد في الغالب على ثلاثة أنصاف أيام!

فالسحور إذن هو ما كان يجتذبنا، وتغير نظام اليوم، والمأكولات الشهية غير المألوفة عند الغروب، والفوانيس الموقدة بهيجة الألوان نطوف بها في الطرقات، وغناؤنا مع الخدم:

يا فاطر رمضان يا خاسر دينك

كلبتنا السوداء تقطع مصارينك

وإخراج ألسنتنا للغير حتى يعرف من قدر احمرارها ما إذا كنا صائمين أم غير صائمين. والكلبة السوداء التي تنهش أجسام المفطرين كانت أول فكرة كوناها عن الجحيم.

ومن الغريب الخليق بالضحك، أن والدي الذي كان يحرص أشد الحرص في أحاديثه معنا على أن ينمي فينا نظرة إلى الدين مستنيرة واسعة الأفق، لا تشوبها أوهام أو خرافات أو تعصب، لم يُعنَ بأن يحول بين الخدم وبين حديثهم إلينا في الدين، فإذا بنا وقد انتقلت إلينا منهم أبشع الصور. فمن والدي نسمع أن الجنة هي في حقيقة الأمر طمأنينة الروح وسكينتها، والجحيم هو العذاب الناجم عن تأنيب الضمير ووخزه. ومن الخدم نسمع أن الجنة هي المكان الذي نأكل فيه أفخر أنواع الفاكهة وصنوف الحلوى، والجحيم هو حيث يجبرنا الزبانية على تجرع مقادير هائلة من الماء المغلي، يفقأون أعيننا بحرابهم، ثم يعيدون خلقها ليسملوها من جديد. والمسيحيون عند أبي هم عباد الله وأهل الكتاب، وهم عند الخدم لا يختلفون عن الكفار في شيء، عظامهم زرقاء، ومصيرهم الكلبة السوداء. وكانوا إذا لمحوا قسًّا في الطريق في ثيابه السوداء ولحيته الكثة، عدوا خلفه يغنون ساخرين من ملبسه ولحيته، حتى يلتفت إليهم مهددًا فيعودوا إلينا ضاحكين.

ولا أنكر أن تأثير أحاديث الخدم في نفوسنا كان في طفولتنا أقوى من تأثير أحاديث والدي في الدين. فالمانجو والأناناس كانا أقرب إلى مفهومنا من سكينة الروح، والماء المغلي الذي كان يؤلمنا

ويعذبنا كلما استُدعينا للاستحمام، أدنى إلى فكرتنا عن العذاب من وخز الضمير الذي لم نكن قد خبرناه بعد، والعدو في الشوارع ضاحكين وراء قسيس غريب الزي، أظرف لدينا من فكرة أهل الكتاب.

كنا إذا نقلنا إلى والدتي نبأ خطأ ارتكبه أحد الخدم، صاح الخادم بنا:

- يا فتان! القرآن يقول «والفتنة أشد من القتل»!

وتؤلمنا الفكرة، فنقصد والدي مستفسرين:

- أصحيح يا أبي أن الفتان له عذاب يفوق عذاب القاتل؟

فيجيب والدي:

- الفتنة المقصودة هنا هي الكفر.

فنهرع فرحين إلى الخدم، ونخرج لهم ألسنتنا:

- الفتنة المقصودة هنا هي الكفر!

- ومَن قال لك هذا الهراء؟

- والدي.

فيعض الخادم على لسانه لا يجرؤ على أن ينقض قول سيده الكبير، عضو المجمع اللغوي.

صور الخدم لنا الجحيم على أنه حفرة هائلة تلتهب فيها النيران، يعلوها حبل دقيق رقيق فكأنما هو شعرة أو خيط، وعلى الناس جميعًا يوم القيامة أن يسيروا فوق هذا الخيط، فأما من كان مؤمنًا وصلحت أعماله فسيرى الخيط وكأنه قنطرة عريضة يعبرها إلى الجنة في ثقة وثبات قدم، وأما من بغى وفسد فستزل قدمه بعد خطوة أو خطوتين، فيهوي إلى الحفرة يتردى فيها أبد الآبدين. فما أطلعوني على هذه الصورة حتى وجدتني لعدة أيام أتدرب على السير فوق القضيب الحديدي الرفيع بظهر السرير، استعدادًا لليوم الآخر. ولم أنتهِ إلا بعد أن سقطت سقطة عنيفة من فوقه كاد أن ينكسر لها ظهري. وقد هتف بي أخي جلال حين شاهدني أقع:

- وستكون سقطتك في الآخرة أبشع وأشنع إن شاء الله!

لم يكن يفسد علينا يوم «وقفة العيد» سوى إرسالنا إلى الحلاق. فوالدي يصر على أن نستقبل العيد برؤوس «نظيفة». وضياع شعرنا إنما كان يعني عندنا ضياع فرص الوسامة والأناقة. وقد كنا نكذب أحيانًا فندعي أن صالون الحلاق مغلق، فإن أرسل والدي خادمًا يستوضح الخبر وأتاه بكذبنا، عاقبنا بأن يحلق لنا رؤوسنا بنفسه، فتزداد وجوهنا بشاعة. فكنا عادة نفضل الاستسلام والطاعة. وإذ نجلس بين يدَي الحلاق، نتوسل إليه أن يترفق بشعرنا، وأن يترك لنا منه قدرًا معقولًا، بينما تغمز الخادمة له ألا يترفق. والحلاق بطبيعة الحال أميل إلى إطاعة الخادمة، فهي تحمل أوامر السيد. وقد يأمر السيد بإعادتنا إليه إن لم يحلق لنا الكفاية، فيكون في ذلك له عناء

إضافي، دون أجر إضافي. وإذ نهبط في النهاية من الخشبة المرتفعة التي تضاف للأطفال إلى المقعد، ونتأمل وجوهنا في المرآة، تدمع أعيننا من الغيظ، ونخرج إلى الطريق أذلاء مطأطئي الرؤوس، بينما تضحك الخادمة في تشفٍّ ومرح.

حتى إذا وصلنا إلى البيت، فحص أبي رؤوسنا فردًا فردًا، فيبدي استياءه غالبًا، ورضاه في القليل النادر. ثم يأمر بالحمَّام أن يُعد. وما كان الاستحمام بأخف عبئًا علينا من الحلاقة. فالماء ساخن نصرخ لسخونته، والليفة خشنة تلهب جلودنا. وقد كانت والدتي في السنوات الأولى تتولى أمرنا، فكانت إذا صرخنا تترفق بنا، فتضيف ماء باردًا أو تخفف من تليفها أجسامنا. فلما كبرنا بعض الشيء تولى أبي عنها هذه المهمة، فلم نكن نصرخ إلا إذا كان الألم لا يحتمل. وهو يدخل الحمَّام ومعه ثلاثة منا أو أربعة، فنخلع ملابسنا ويغطس هو في الحوض الضخم الممتلئ بالماء، فنتسلق الحوض وراءه كالقطط الصغيرة حتى نقع فيه. وكنا نراقب جسمه الضخم العاري في رهبة وتعجب، ونتساءل في أنفسنا عما إذا كانت أجسامنا حين نكبر ستصبح رهيبة مهيبة مشعرة كهذا الجسم الذي ملأ الحوض فلم يترك لنا سوى أركان ضيقة منه حشرنا فيها حشرًا، والماء المختلط بالصابون يدخل عيوننا فيلهبها عند كل حركة.

وبانتهاء الاستحمام ينتهي جانب العذاب من يوم «الوقفة». فها هي الحُلل الجديدة قد وصلت من عند الخياط ملفوفة بالورق المرشق بالدبابيس، وها هو أبي وقد انفرد في غرفته، نسمعه ينزع الأغلفة عن علب كثيرة، نعلم ما بها ولا نتحدث عنها، حتى يكون التوزيع منها في الغد مفاجأة سارة لنا. حتى إذا ما هبط المساء، أتى كل منا بكرسي من صالة الطعام، يضعه بجوار سريره، فنعلق سترة الحُلة الجديدة على ظهر الكرسي وعليها رباط العنق. وعلى المقعد نضع السروال وفوقه القميص المكوي والحزام في شكل دائرة. وتحت الكرسي الحذاء الجديد، وفي كل فردة منه فردة من الجورب الجديد. وقد كانت عملية ترتيب الملابس فوق الكرسي وتحته من أحب الأشياء إلينا، لا نتخيل عيدًا من دونها. ولا أعدو الصدق إذا قلت إن العيد فقدَ بهجته منذ تخلينا عن هذه العادة. وكان إذا «كبر» أحدنا وأبطل هذه العادة، نظرنا إليه نظرة اشمئزاز وضيق. فهو يضحك منا ويقول إننا لا نزال أطفالًا صغارًا، ونحن نشتمه ونقول إنه قد بات يظن نفسه كبيرًا، وإن الخسارة خسارته.

فلا نكاد ننتهي من «تحضير الكرسي» حتى نقفز إلى الأسرَّة للنوم ولو كان في السماء بقية من نور. فغدًا نقوم قبيل الفجر. فأما من ظن نفسه كبيرًا فقد أبطل عادة الاستيقاظ المبكر هي الأخرى، فلا ينهض من فراشه إلا مرغمًا، منتفخ العينين، وقد تم إعداد لحم الخروف ووضع على المائدة. وأما المتمسكون بطفولتهم فينهضون في الثالثة فيغتسلون، ويشرعون في ارتداء الملابس قطعة قطعة في تمهل وتلذذ، بينما تتناهى من الطريق أصوات تصيح فتشق هدأة الليل: «جزار! جزار!».

ونهرع مع والدتي إلى السطح والدنيا ما زالت ظلامًا حالكًا، فنودع الخروف ونربت على رأسه

وفروته مشفقين وفي أعيننا الدمع، ثم نراقب في سرور وشغف عملية ذبحه ونفخه وتقطيع أوصاله. ونتوجه إلى المسجد، فنظل نردد مع المرددين:

الله أكبر كبيرًا

والحمد لله كثيرًا

وسبحان الله بكرة وأصيلًا

وإذ نفرغ من الصلاة، ونصافح من يكون عن يميننا وعن يسارنا متمتمين: «حرمًا، جمعًا. حرمًا، جمعًا»، نسرع بالتقاط أحذيتنا الجديدة التي كنا أثناء الصلاة نراقبها من طرف أعيننا للاطمئنان عليها، ثم نعود إلى المنزل عدوًا. فأبي الآن في الانتظار بغرفته وقد استيقظ وفتح نوافذه يستقبل النور. نهنئه فيقبلنا، ويفتح درجًا يخرج منه نقودًا ورقية وفضية جديدة تلمع من فرط جدتها. فيسلم كلًّا منا «عيديته». ثم يفتح خزانته ذات السلسلة الحديدية فيخرج صنوف الحلوى واللعب. وإذ يأخذ كل منا نصيبه، نجري إلى المطبخ حيث والدتي مشغولة بالخروف، قد احتفظت بفروته جانبًا لرجال الإسعاف. فتعطي كلًّا منا جزءًا من مخ الخروف وقد سلقته. ثم نساعد الخدم في إعداد المائدة، وحمل الصحون والمأكولات إليها، ونتوجه لإيقاظ من لم يكن قد استيقظ بعد من الإخوة «الكبار».

٥

نشبت الحرب العالمية الثانية وأنا في السابعة من العمر. وقد علمت بنبأ نشوبها من مصدرين: من والدتي حين رأيناها تخزن كميات هائلة من الصابون والزيت وغيرهما من السلع، ومن بائع الكراسات والأدوات المكتبية حين تقاضى مني قرشًا كاملًا ثمنًا لكراسة اعتدت أن أدفع ثمنًا لها نصف قرش، فسألته عن السبب.

لم تلعب الحرب في حياة أسرتنا دورًا كبيرًا أو صغيرًا، وذكرياتي عنها يمكن أن أوردها هنا في فقرة أو فقرتين، وهي ذكريات ليست في مجموعها بالبغيضة.

فمنها: أن والدي حين بدأت إغارات الطائرات الألمانية على مطار ألماظة بمصر الجديدة، فكر في بناء مخبأ بالبيت، خاص بالعائلة، يكفيها مضايقات الانتقال ليلًا إلى المخبأ العام. وبالفعل، بنى حائطًا سميكًا من الطوب قبالة نافذة المطبخ بالطابق السفلي، وحشد إلى جانبَي النافذة أكياسًا من الرمل. وقد كان لاجتماع العائلة في هذا المطبخ في الظلام، حين تدوي في مصر الجديدة صفارات الإنذار، أثر بهيج، حتى لقد كان فرح الأطفال منا بالصفارة أكبر من انزعاجهم منها. أذكر أنه كانت قد أُجريت لي وقتذاك عملية «الطهارة»، وكان صديق أخي عبد الحميد قد أهداني بهذه المناسبة سلة جميلة بها أرنبان جبليان رائعان. فكنت إذا بدأت الغارة وحملني والدي للنزول بي إلى المخبأ، أصر على اصطحاب الأرنبين. وفي المخبأ، كنا نقهقه عاليًا إذ نرى خالتي نعيمة على ضوء الشمعة تتظاهر بالرعب الشديد وهي تولول:

- كده يا هتلر! حزقتني يا هتلر؟!

وكأنما هي المقصودة من وراء هذه الغارات!

أما ذكريات الحرب البغيضة، فجلها يتصل بالجنود البريطانيين في القاهرة. كان يخيل إلينا أنهم سكارى على الدوام، فسلوكهم شائن، وكان مجرد رؤيتنا لهم في الطريق كفيلًا بإزعاجنا، واختيارنا الانتقال إلى الرصيف المقابل لتجنب الاقتراب منهم. وقد كانت عربات المترو دائمًا تغص بهم. فإن اضطررنا إلى ركوبها ظللنا طوال المسافة ندعو الله ألا يحدث بيننا وبينهم احتكاك. وقد حدث مرة أن جلس جندي إنجليزي سكران قبالتي ووالدي في المترو، فوجه الجندي إلى أبي إهانة دون مبرر، غلى الدم في عروقي بسببها. فما عدت إلى البيت، حتى أخرجت كراسة جديدة من الدرج، وشرعت في تأليف كتاب بعنوان «أهوال الحروب»، كان أول ما خطه قلمي في الأدب، وقد اتخذت فيه من حادث إهانة والدي محورًا لإثبات عدالة حق مصر في أن تستقل!

* * *

ثم شرعت في سن الثامنة في تأليف كتاب عن عمر بن الخطاب، مثلي الأعلى في ذلك الحين، وقصدت أن أجعله في ثلاثة مجلدات ضخام، فما وصلت إلى الصفحة الثلاثين حتى كانت المادة في

جعبتي قد نفدت. غير أني لا أزال أذكر بوضوح اليوم الذي بدأت فيه العمل في ذلك الكتاب. كنت يومها مريضًا، أرقد في فراش والدي، وأبي على أريكته يكتب في «ضحى الإسلام»، وإذ أخبرته بالفكرة، نزل إلى مكتبته يجمع لي بعض الكتب التي ستفيدني في البحث، فنشرتها أمامي على السرير كما كنت أراه يفعل، وفتحت الكراسة مسندًا إياها إلى ركبتي، واضعًا طرف القلم في فمي أدق به أسناني، مفكرًا في الفقرة الأولى من الكتاب، وهي نفس حركات أبي حين يشرع في الكتابة. ثم سألته عما إذا كان بالإمكان أن أتخذ لنفسي منظارًا كمنظاره، فأجاب بالنفي، فعدت إلى الكراسة. وبعد لحظات من التفكير العميق، أنزلت القلم من بين أسناني وكتبت:

«كان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، رجلًا عظيمًا حقًّا»!

ثم اضطر أبي بعد ساعة إلى الخروج، تاركًا إياي مستغرقًا في الكتابة، فما إن ترك المنزل حتى هب الإخوة والخدم، كعادتهم عند خروجه، يحدثون الضجيج. فقمت من الفراش إلى الباب وفتحته أوبخهم وأطلب منهم التزام الهدوء «لأني أكتب»، متوقعًا أن يلتزموا حيال هذا النشاط مني ما يلتزمونه مع أبي. غير أنهم ضحكوا ساخرين، فشتمتهم. وعندما عاد أبي من الخارج شكوتهم إليه.

ثم كتبت تحت تأثير قراءاتي لجرجي زيدان روايتين تاريخيتين، هما أطول وأكثر تعقيدًا في الحوادث من أن تصدرا في العادة من صبي في العاشرة. الأولى «الوليد بن يزيد» رواية غرامية تقع حوادثها في العصر الأموي، والثانية «ابنة فردريك» عن الحروب الصليبية ووقوع ابنة أحد قواد الصليبيين في الأسر بعد غرق أبيها، ثم وقوعها في غرام أحد المسلمين في جيش صلاح الدين، واضطرارها في النهاية إلى مفارقته والعودة باكية إلى وطنها.

غير أن أهم مؤلفاتي طرًّا في فترة الصبا هي رواية «العقاب»، رواية عصرية قامت إحدى قريباتي برسم الصور لها، ثم دفعت بها إلى مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، فطبعوا منها مائتَي نسخة على حساب والدي، أرسلت إحداها إلى والد صديقي ممدوح:

«فضيلة الشيخ مصطفى عبد الرازق وزير الأوقاف

مع أطيب تحيات المؤلف».

وقد كان الشيخ مصطفى عبد الرازق، رحمه الله، يحبني حبه لابنه، وكثيرًا ما كان يحضر مذاكرتي مع ابنه للدروس في حديقة منزله الرائعة بكوبري القبة، أو في مكتبته الضخمة، فيقرأ معنا في كتب الأدب القديمة ككتاب «الأغاني» و«العقد الفريد»، ويحدثنا عن ذكريات صداقته لأبي في شبابيهما. فما مضى أسبوع على إرسال الرواية إليه، حتى فوجئت إذ أعود عصرًا من المدرسة بأبي يقول لي:

- خطاب لك من الشيخ مصطفى.

وفتحت الظرف بأصابع ترتعش:

«وزارة الأوقاف
مكتب الوزير
ولدنا الأديب الفاضل السيد حسين أحمد أمين
سرني أن تلقيت في مطلع العام الهجري الجديد، هدية منك طيبة، تبشر بما لك من مستقبل مرجو في عالم الأدب. فإن كانت روائح الجنة في الشباب كما يقول أبو نواس، فلا غرو أن أتنسم روائح الجنة في مشرق عام جديد من هديتك الكريمة.
أسأل الله أن يجعلك قرة عين لأبويك، وأن ينفع بك البلاد».

وكدت أطير يومها من الفرح، لا تسعني الدنيا، أدفع الخطاب إلى كل من أقابله ليقرأه، آخذًا إياه معي إلى المدرسة، مشيرًا للمدرسين والتلاميذ إلى عبارة «الأديب الفاضل» لأتأكد من أنهم لاحظوها. فما هبط مساء اليوم التالي حتى كنت قد عقدت العزم على أمر...

إن كانت الرواية قد أعجبت الشيخ مصطفى عبد الرازق إلى هذا الحد (والشيخ مصطفى ليس ممن يستهان بهم في عالم الأدب، فهو الذي اكتشف عبقرية نجيب محفوظ وشجعه)، فلماذا لا أرسلها إلى يوسف وهبي، لعله يقبل أن يخرجها للسينما، وأن يمثل الدور الأول فيها؟ لقد كان من عادتي أن أرسل إلى يوسف وهبي كل عيد بطاقة تهنئة من البطاقات التي أتولى طبعها بنفسي في لجنة التأليف، فكانت تصلني منه بعد أيام بطاقة تحية وشكر، فلعله يذكرني الآن بالخير والامتنان. ولا مانع من إخفاء سني عنه (كنت وقتها في الثالثة عشرة)، حتى لا يظن الرواية عملًا صبيانيًّا فينحيها جانبًا دون قراءة.

وبالفعل، وضعت نسخة من «العقاب» في ظرف كبير، وأرسلتها إليه بالبريد المسجل، مع تحيات المؤلف، راجيًا إياه أن يدرس إمكان إخراجها، ومعبرًا له عن إعجابي العظيم به.

وقضيت الأسابيع التالية في أحلام جنونية: فهأنذا راقد في فراشي أغط في النوم، حين أسمع دقات وقرعًا عنيفًا متواصلًا على الباب (كان هناك جرس، غير أني فضلت القرع على الباب!) وأقوم لأفتحه وما زال النوم في عينَي، فإذا بيوسف وهبي خارجه مرتديًا عباءة سوداء:

- هل أنت حسين أمين؟

- نعم.

- مؤلف رواية «العقاب»؟

- نعم، نعم!

ويرمقني مشدوهًا وهو الذي كان يتوقع أن يجدني رجلًا في الثلاثين أو الأربعين، ثم يفتح ذراعيه ويحتضنني، تمامًا كما فعل الشاعر الناقد نكراسوف مع دوستويفسكي الشاب.

وأصحبه إلى والدي، فيهتف به يوسف وهبي عند رؤيته باللغة العربية الفصحى:

- سيدي! لقد ظهر نجم جديد في سماء الأدب!

ويهرع إخوتي إلى الصالون وقد سمعوا أن يوسف وهبي في البيت. وإذ يعرفون سبب حضوره إذا بموقفهم مني يتغير، وإذا هم يعاملونني باحترام جم.

ويلتفت الممثل الكبير إليَّ قائلًا:

- سأقوم بالدور الرئيسي في الفيلم إن أذنت لي. وإنه لمن حسن الحظ أن «بيت ديفيز» ستحضر إلى مصر خلال الأسبوع القادم، وسأعرض عليها دور بطلة الفيلم، ولا شك عندي في أنها ستقبله. فإن حدث وقبلته، فقد فتحت أمامك أبواب هوليوود.

ثم أتخيل في لذة شديدة افتتاحية الفيلم:

ستوديو مصر يقدم (موسيقى).

«العقاب» (موسيقى عنيفة).

«العقاب» رواية من تأليف الأديب الفاضل حسين أمين جعله الله قرة عين لأبويه (موسيقى أشد عنفًا).

حسين أحمد أمين، الصبي الذي شهد له مفكرو مصر من أمثال الشيخ مصطفى عبد الرازق بالامتياز والتفوق، يقدم لنا وهو في الثالثة عشرة باكورة إنتاجه.

ثم أسماء الممثلين والمخرج ومهندس الصوت...

كان بيتنا يغص بالمدرسين الخصوصيين، لا يلمس والدي في أحد منا ضعفًا، أو ما يظنه ضعفًا، في مادة من المواد إلا جلب لنا فيها مدرسًا خصوصيًّا يعوده مرة في الأسبوع أو مرتين. بل إنه ليكفي أن يشتد اقتناع أبي لسبب من الأسباب بالفوائد الجمة لدراسة علم أو فن معين، حتى يرى أن دروس المدرسة وحدها غير كافية. كما حدث مثلًا بصدد الرسم، إذ فكر مرة في أن يحضر لنا مدرسًا فيه، ولم يتخلَّ عن فكرته إلا بعد أن توسلنا إليه ضارعين أن يعفينا منه، نظرًا إلى أن أمسياتنا كادت أن تكون بأسرها نهبًا للدروس الخاصة، وقد كانت ألسنتنا تزل في بادئ الأمر، إذ كنا أحيانًا نعود من المدرسة، خاصة في بداية العام الدراسي، فنثرثر كما يحب الصبية أن يثرثروا عن مدرسيهم، تارة في صدق غير هادف وتارة في كذب غير متعمد، فنشكو من ضعف هذا المدرس أو ذاك في مادته! وإذ كنا لا نقصد من مثل هذا الحديث سوى الدردشة الفارغة، فقد كان يزعجنا أن نرى الوالد يصدقنا في سذاجة، ويهتم للأمر في قلق، فيفكر أحيانًا في نقلنا من الفصل الذي نكون فيه إلى فصل لا يدرس فيه ذلك المدرس «الخائب»، وأحيانًا في طلب نقل المدرس الخائب نفسه إلى فصل لا نكون فيه، وأحيانًا يطمئن مخاوفنا ويهدئ من روعنا بوعده أن يحضر مدرسًا خصوصيًّا في البيت يعوض فقر مدرس المدرسة! فنكاد حينئذ نعض على ألسنتنا ندمًا، خاصة إن كنا لا نعني مما قلناه حرفًا، ومرات هي التي جاءنا فيها خبر نقل مدرس شكونا من «خيبته» و«ضعفه» على الرغم من تأكيد الناظر لوالدي أنه أبعد ما يكون عن الخيبة والضعف، وعلى الرغم من أننا قد نكون في تلك الأثناء قد تعلمنا احترامه وحبه، وبدا لنا ما كان خافيًا علينا من علمه الغزير.

وقد سهل على والدي الإمعان في هذا الباب، كثرة معارفه من المدرسين. فكان إذا أحب مدرسٌ التعبير عن امتنانه لفضل أسداه والدي إليه، أو أراد التقرب منه بغية نيل فضل مستقبل، عرض أن يعطي الأنجال الأعزاء دروسًا خصوصية. فيذهب الأنجال الأعزاء ضحايا الفضل الذي تم والفضل الذي سيجيء. وكانوا نادرًا ما يقبلون على جهدهم أجرًا. وكثيرًا ما وضع لهم أبي مبلغًا من المال في ظرف، ودفعه إليَّ كي أسلمهم إياه، فكانوا إذا رأوا الظرف وخمنوا ما فيه ردوه.

* * *

بل إني لأذكر أن أستاذًا للفلسفة بكلية الآداب، تطوع مرة أن يعطي أحد الأنجال دروسًا في الفلسفة، فاختارني والدي لهذه الدروس في وقت كانت كل فكرتي فيه عن الفلسفة هي شرود الذهن، وهي فكرة مصدرها والدتي التي كانت إذا رأت منا شَعرًا هائشًا، أو ملبسًا زريًّا، شبهت هيئتنا بهيئة «الفيلسوف». وقد كان هذا الأستاذ أثقل الناس روحًا، وأكثرهم ادعاء. بدأ دروسه لي بشرح نظرية المُثُل عند أفلاطون. فلما لم يجد مني تجاوبًا، ولم يتبين في وجهي لذة الفهم، تقهقر إلى رأي

سقراط في المعرفة، فإلى الجدل عند السفسطائيين، ذاكرًا لي بعض نوادرهم وأحاجيهم الطريفة حتى يحبب الفلسفة إليَّ! فلما لم يفلح ذلك معي، رأى أن يعرف لي الفلسفة، وكيف أنها حب الحكمة، وكيف قلَّب الإنسان القديم ناظريه في السماء، إلى آخره. ثم اقتصرت الدروس بعد ذلك على روايته لبعض الطرائف المتعلقة بحياة الفلاسفة، كشجارات سقراط مع زوجته وأسبابها، واعتداء شوبنهاور بالضرب على سيدة ثرثارة في المسكن الذي يشغل حجرة منه، ووفاة ديكارت نتيجة لبرد أصيب به وهو في طريقه في الخامسة صباحًا إلى كريستينا ملكة السويد التي كانت تصر على تلقي دروس الفلسفة في تلك الساعة المبكرة. غير أنه حتى هذه القصص الشائقة كانت تخرج باردة ممجوجة من فم هذا الأستاذ الذي كان يعاملني بازدراء جم، والذي كان إذا رآني مقبلًا للدروس دون سترة أو رباط عنق، نظر إليَّ في دهشة وتساؤل من فوق منظاره الغليظ، ثم يأمرني في حدة أن أصعد لإتمام ملبسي بحيث يتفق وهيبة الدرس. ولعلني حين ضقت به ذرعًا، تمنيت لو أنه لقي مصير ديكارت، فيموت من برد يصيبه وهو في طريقه إليَّ. وأخيرًا تمكنت من أن أخلق في ذهنه فكرة استحالة تقبلي للفلسفة، فاعتذر لوالدي عن اضطراره لقطع الدروس، بحجة أن الوقت «لم يحِن بعد»، فودعه والدي في أسف، وودعته في غير ذلك.

* * *

غير أن عناية والدي كانت منصبة أساسًا على تعليمنا اللغات تعليمًا متقنًا، فانتقى لنا مدرسًا ممتازًا للغة العربية، وآخر لا يقل امتيازًا للإنجليزية، وثالثًا وسطًا للفرنسية، وجارة ألمانية متزوجة من مصري لتعليمي الألمانية، وقد ظل الأولان منهم يدرسان لي ولإخوتي مدة عشر سنوات.

فأما مدرس العربية فكهل طويل نحيل، محني الظهر من فرط الطول، ذو شعر أشيب، ووجه طويل، وطربوش أطول. كان حين بدأ معنا، مدرسًا أول في إحدى المدارس الثانوية العريقة، ثم أصبح خلال السنوات العشر ناظرًا لها. وهو قريب لوالدي من بعيد، أخلاقيٌّ متزمت، باهت الابتسامة، لا يطربه غير طرائف أشعب، ولا يهزه غير مرثيات الخنساء. وهو مع هذا بالغ الفصاحة، شديد التمكن من اللغة والنحو، قوي مخارج الألفاظ، واسع الاطلاع في كتب الأدب القديمة. كان يجلس للدرس فلا يتكلم إلا فيه، ربما لضيق وقته وكثرة ما يعطيه من الدروس الخاصة، وربما لأنه لم يكن يرى أن تكون بين الأستاذ وتلميذه غير علاقة الدرس. ومع ذلك فلا بأس حين تبعث والدتي إلينا في المكتبة مع الخادمة بطبق من الكعك أو الحلوى، أن يقطع الدرس ريثما يفرغ من الأكل، وفتات الكعكة تتناثر على سترته أو تتجمع عند طرفَي فمه، ساردًا أثناء مضغه النهِم المسموع الصوت إحدى مُلح الطفيليين الخاصة بالفالوذج.

حاولت مرة أن أصرح أمامه برأيي. كان يشرح لي يومها باب المدح بما يشبه الذم، فساق مثلًا قولة: «أنا أفصح العرب، بيد أني من قريش»، ودعاني إلى الإعجاب بالبلاغة فيها. وإذ قلت صادقًا إني عاجز عن مشاركته رأيه، تجهم وجهه واحمر، وسكت دقيقتين كاملتين كأنما يغالب

أثناءهما الغضب، ثم قال في برود وتأفف:

- هذا قول أشرف الخلق. وسواء تبينت البلاغة فيه أم عجزت عن تبينها، فهو قول بليغ... هلم إلى الدرس.

فلم أعُد معه إلى مثلها قَطُّ.

بدأ معي لسوء الحظ بداية سيئة. ذلك أنني قصرت بعد درسه الأول في حفظ أبيات كلفني بحفظها من قصيدة لشوقي لعلها «مصائر الأيام»، فلما سألني عنها في الدرس التالي ولم أُحِر جوابًا، شكاني إلى والدي، فوبخني أمامه توبيخًا عنيفًا، مانحًا إياه «حق الالتجاء إلى الضرب إن لم يكن يجدي غير الضرب معه». وعلى الرغم من أنه لم يلجأ قَطُّ إلى استخدام هذه الرخصة، فقد أثارت شكايته مني، أو كما كنت أسميها، وشايته بي، وإهانة والدي لي أمامه، حفيظتي عليه، وفتوري نحوه لزمن طويل، رغم محاولته استرضائي فيما بعد.

كان كثير العيال، ثقيل الحمل، لا يكاد يمر عام دون أن تأتي له زوجه بمولود. وقد كان أبي يوبخه على إفراطه في النسل، ويحذره من أخطار إنجابه في مثل تلك السن المتقدمة على صحة الطفل. فكان يعتذر بعذر أو بآخر، ثم لا يلبث أن يعود. وكان لهذا كثير الطلبات والرجاوات: إذا دخل والدي علينا الغرفة هب من كرسيه لتقبيل يده (مما كان يُحدث لدينا نحن الصبية أثرًا غير طيب)، ويظل نحو ربع ساعة يتملق أبي، ويبالغ في الثناء على كتبه الجديدة، واصفًا كل كتاب بأنه خير ما كُتِب في الأدب العربي الحديث، وأروع كُتب أبي على الإطلاق. فإن حاول والدي أن يقاطعه ويصرفه عن مثل هذا الحديث، استمر غير عابئ. حتى إذا ما فرغ بدأ يشرح شكاته ويبسط رجاءه، من علاوة أو درجة أو غير ذلك. فكان والدي عند هذه النقطة من الحديث يصرفنا من الحجرة حتى لا نسمع أستاذنا راجيًا أو شاكيًا فتقل هيبته في نفوسنا. حتى إذا ما انصرف والدي عدنا، فينفخ الأستاذ بأنفه في منديل، ثم يمسحه مسحًا عنيفًا، ثم هو يعبث بسبحته بعض الوقت متمتمًا بعبارات لا نميزها، ثم يهز رأسه هزة، ثم يعود إلى الدرس.

فأما مدرس الإنجليزية فصديقنا الذي نترقب زيارته في شغف، وخليصنا الذي يبيح لنا الحديث فيما نريد الحديث فيه، والتعبير الحر عن كل ما يراودنا من أفكار، دون ما حرج أو استحياء. كان وقت أن بدأ معنا لا يكاد يتجاوز الخامسة والعشرين. وهو ابن صديق لأبي، دفعه والدي دفعة في مستهل حياته العملية، فأحب أن يعبر عن امتنانه بإعطائنا الدروس. ومع ذلك فموقفه من أبي غير موقف المتملق المستصغر شأن نفسه. فهو إن حدَّث صدَق، وإن سئل عن رأيه عبر عن رأيه، لا يقبِّل يدًا ولا يكثر من طلب، وهو ما رفع من قدره في أعيننا.

وقد كان لدى والدتي على رف واحد بالمطبخ، ثلاثة أصناف من البن، متفاوتة الجودة، تصنع القهوة من كل صنف منها لطائفة معينة من الناس: بن يمني ممتاز تُصنع القهوة منه لطه حسين وعبد الرزاق السنهوري وأحمد لطفي السيد وأمثالهم من علية القوم، ثم بن برازيلي تُصنع القهوة

منه لمن قل في المقام عن هؤلاء، وبن وسط مخصص لسكرتير والدي وأقاربه الفقراء. وقد كان كلما طُلب إلى الخادم إعداد فنجان قهوة لضيف، أتى إلى والدتي يتلقى تعليماتها الخاصة بنوع البن الذي يستخدمه، فلا تشير عليه به حتى تستفهم عن هوية الزائر. والغريب أنها كانت تأمر لمدرس الإنجليزية هذا بقهوة الطبقة الأولى، طبقة طه حسين والنقراشي باشا، وهو خروج عن مفهومها الطبقي فيه غموض. غير أن لهذا الخروج في واقع الأمر سرًّا.

ذلك أنه حدث في يوم من الأيام في السنة الأولى أو الثانية من سنِي تدريسه لنا، أن تقدم إلى والدي يطلب يد إحدى أختَي. كان قد سمع أن لوالدي بنتين، ففكر في الزواج من إحداهما على الرغم من أنه لم يكن قد رأى أيًّا منهما، تاركًا لوالدي اختيار المناسِبة له. وما زلت إلى اليوم أذكر ساعة أن دخل والدي علينا المكتبة وأخذه منا لبضع دقائق إلى غرفة الصالون ليعتذر له بأن البنتين مخطوبتان بالفعل، ولو لم تكونا لشرَّفه وأغبطه أن يزوجه إحداهما، وليعرض عليه تزويجه من ابنة أخ له (إذ كان لوالدي في ذلك الحين حرية مطلقة في تزويج من شاء من بنات العائلة - قريباتهن في درجة القرابة وبعيداتهن - بمن شاء من الرجال، دون أخذ رأيهن، وهي سلطة انكمشت فيما بعد حين اشتدت ثورة البنات على ممارسته لهذا الحق)، غير أن المدرس اعتذر بدوره وعاد إلى المكتبة يضحك مرتبكًا وقد احمر وجهه. وقد راقبناه نحن الصبية وهو داخل (وكنا على علم بالموضوع كله)، وفي قلوبنا ألم وإشفاق وقد ازدادت معزته لدينا وتعلقنا به. ومن وقتها ووالدتي ترسل إليه في المكتبة القهوة الممتازة... ومرت الأيام والسنون، وتزوجت أختاي وأنجبتا، غير أنه ما من خلاف كان يحدث بين إحداهما وزوجها إلا عبرت والدتي عن «حسرتها» وأسفها إذ لم تتزوج الفتاة مدرس الإنجليزية:

- ذلك الشاب الممتاز الودود (على الرغم من أنها لم ترَه قَطُّ) بدلًا من هذا الزوج الذي لا يقدرها حق قدرها!

وكانت والدتي إذا سألتنا عمن معنا في المكتبة وأجبناها بأنه مدرس الإنجليزية، تسألنا دون تخلف وبصوت مرتفع:

- أهو الذي كان قد تقدم لخطبة أختكم؟

فنشير إليها متوسلين أن تخفض من صوتها حتى لا يسمع! كنا لا نشعر منه، ربما لشبابه وحيويته، بذلك التنازل في الحديث الذي ينفر الصغار من الكبار. فهو مهتم بما نهتم به، نسأله عن الشيء فيطيل التفكير فيه وكأنما سألناه سؤالًا عميقًا. فإن تجرأنا وسألناه عن السبب في أنه لم يتزوج (وهو باقٍ إلى يومنا هذا دون زواج)، أجاب على استفهامنا إجابة نطرب لإخلاصها، ونطرب أيضًا لإقباله على الرد، وكأنما كان ينتظر فرصة كهذه كي يفتح صدره. فهو صبي يدرس الصِّبية؛ ينظر في المعجم معنا أو في دائرة المعارف البريطانية للبحث عن معنى غمض عليه، أو نقطة يجهلها، ويأخذ بالكلمات المفيدة أو المعلومات الجديدة مذكرة لنفسه. وهو كثير الضحك إلى

درجة قد تذهل الغير وتثير العجب، بل والارتباك. يضحك لما يستأهل الضحك وما لا يستأهله، حتى ليكاد البعض يظن به نوعًا من الخبل، وإن كان الجميع لا يملكون إلا الاستجابة له، وتلقي العدوى منه. وهو وسيم، سَرنا أن نكتشف في ملامحه شبهًا قويًّا بملامح الممثل الأيرلندي تايرون باور، وهو شبه لم يكن هو ليعترف به، وكان ينكره في تواضع وهو يضحك. ولشد ما ساءنا أن اضطرته الأيام إلى لبس نظارة، ففسد الشبه، ثم أفسده أكثر وأكثر بمضي السنين امتلاء وجهه وجسمه، وغلبة سيماء الموظف على هيئته وزيه.

فأما دروسه فنصفها في اللغة، ونصفها حديث في الأدب. فهو محب للأدب يجيد الكتابة. ألَّف وهو في السادسة والعشرين رواية لاقت نجاحًا لا بأس به، ثم اتجه بكليته إلى الترجمة، فترجم روايات لتوماس هاردي وغيره بأسلوب عربي رصين. وهو لا يفرض علينا موضوعات الإنشاء، وإنما يترك لنا حرية الكتابة فيما نشاء، فكنا نختار غالبًا موضوعات شخصية لا نتقيد فيها بطول: كالمركز الذي نحب أن نتبوأه حين نكبر، ورأينا في الدين، وعيوبنا وكيف يمكن التخلص منها، إلى آخره. حتى إذا ما تنبه إلى أن مثل هذه الموضوعات ليست من النوع الذي يُطلب منا الكتابة فيه في امتحانات المدرسة، أسرع فهبط بنا إلى الأرض، وأعطانا موضوعًا محدد الطول عن الكلاب، أو الطيارة التي تفاخر سيارة، أو الصحة التي هي تاج على رؤوس الأصحاء... فكنا نضحك من هذه الموضوعات الأخيرة، ولكن نستجيب، مقدرين الدوافع إليها، والحاجة إلى التمرن على الكتابة في مثلها.

بيد أن أكثر ما حببه إليَّ ما كان يبديه من ثقة بمستقبلي، وتقديره للعناصر الطيبة في شخصيتي. وقد طلب مني وأنا في التاسعة أو العاشرة من العمر، وعدًا بأن أعينه وزيرًا للمعارف متى ما صرت رئيسًا للوزراء. فأعطيته الوعد في جد وحماس. ثم لكأنما أراد أن يضمن لنفسه هذا المنصب، فأشرف على تزويدي بثقافة تشرف أي رئيس للوزراء، يصحح ما أكتبه من قصص وينقدها، ويمدني بقائمة تلو قائمة بأسماء الكتب الواجب قراءتها، ويشجع انتهاجي أسلوبًا خاصًّا بي في الكتابة.

ولقد كان أخوف ما أخافه حين التحقت بكلية الحقوق فانقطعت الدروس، أن تنقطع الصلة بيننا. غير أن هذا لم يحدث. وكثيرًا ما أزوره ساعة أو ساعتين في حال الأدب في العالم العربي، ثم يسألني عن نشاطي الفكري وأسأله عن نشاطه. والراجح أن يكون أمله في وزارة المعارف قد زال زوال شبهه بالممثل الأيرلندي.

قد تطلعت في يوم من أيام صباي إلى منصب رئيس وزراء له الأمر والنهي والتعيين في كبريات الوظائف، واضعًا بين الحين والحين قائمة بأعضاء الوزارة تضم أسماء من أكون راضيًا عنهم من الإخوة والأصدقاء، إن تشاجرت مع أحدهم بسبب قلم أو لعبة شطبت اسمه من القائمة، وإن بلغ شجارنا حد التلاكم والضرب زججت به في السجن، وإن كانت قد داعبت مخيلتي بعد ذلك أو قبل ذلك فكرة أن أصبح مدرسًا أضرب بعض التلاميذ وأكافئ البعض، أو فكرة أن أكون إمامًا عادلًا عملاقًا كعمر بن الخطاب، أو دجالًا مشعوذًا قويًّا مثل كاليوسترو وراسبوتين، أو قائدًا عسكريًّا على غرار نابليون، أو قديسًا من طراز غاندي، أو مفتشًا للغة العربية أو التاريخ أدخل الفصول في ثقة فيرتعد المدرسون ارتعادًا، أقول، إن كانت قد خطرت ببالي في وقت من أوقات صباي هذه الفكرة أو تلك، فإنما ليوم أو بعض يوم، أو أسبوع على أكثر تقدير، تخطر، فتراود، ثم تمضي لا تعود. فكرة واحدة فحسب بدأت تراودني في السادسة، ولم تترك رأسي بعد ذلك، وهي أن أكون كاتبًا. فأنا رئيس وزراء أديب، وعمر بن الخطاب أديب، ودجال أديب، وقديس أديب، وقائد يضع الخطط الحربية أثناء النهار ويكتب القصص والروايات أثناء الليل...

هكذا كان أبي يردد أمامنا:

«هبكم قد ضللتم الطريق إلى واحة بالصحراء، ثم صادفكم في الطريق عشرات من الأدلاء، كلٌّ يدعي أن باستطاعته إرشادكم إلى الواحة، فأي المرشدين تنتقون وأنتم ترون بعضهم يشير إلى اتجاه، والبعض الآخر يشير إلى الاتجاه المضاد؟ تختارون نيتشه أم تولستوي؟ توما الأكويني أم برتراند راسل؟ هيجيل أم شوبنهاور؟ هذه بالضبط هي المشكلة الأولى في القراءة: انتقاء المرشد إلى الحياة الفضلى، والمجيب لكم عن أسئلة تشغل القلب والعقل. وكما أنكم لن تختاروا غير الدليل الذي طابت سمعته، وأرضى مطمح الكثيرين قبلكم، كذلك فلا تقبلوا على القراءة إلا للعظماء حقًّا، الجادين حقًّا، الذين شغلوا أنفسهم بالإرشاد للإرشاد، لا للتكسب أو طلبًا للمجد. فإن تساوى في السمعة اثنان فكرهما على طرفَي نقيض، فلا بأس في تجربة كلٍّ منهما فترة معينة، حتى يدلكم القلب أيهما أقرب إلى نفوسكم...».

وكذا بتنا نحن ننظر إلى القراءة، فلم يحدث أن قرأت في صباي رواية من روايات الجيب وغيرها من القصص البوليسية التي كان يقبل عليها أقراني من الصبية. وكانت روايات جرجي زيدان ومحمود تيمور ومسرحيات توفيق الحكيم أخف قراءاتي طرًّا، سرعان ما انتقلت بعدها إلى كتب العقاد وهيكل وطه حسين، فتراجم بلوتارك، فأعمال جوته وتشيخوف، فابن حزم والغزالي، وابن تيمية في سن الخامسة عشرة، فنيتشه وأفلاطون في السادسة عشرة. ولا تزال في أيدينا أعداد من مجلة «الثقافة» التي سمح لنا والدي، صاحب امتيازها، بالكتابة فيها في صبانا، تحمل مقالًا

لأخي جلال في مناقشة إثباتات ديكارت الأربعة لوجود الله، كتبه وهو في الخامسة عشرة، ونقدًا بقلمي لفلسفة ويليام جيمس كتبته في السادسة عشرة، وتحليلًا لأخي حافظ لمؤلفات الفيلسوف الإسلامي الهندي عنايت خان كتبه وهو دون العشرين.

كنا أحيانًا نجد صعوبة في إقناع والدي بحاجتنا إلى حُلة أو حذاء جديد، صعوبة تغضبنا منه. أما فيما يتعلق بالكتب، فالباب مفتوح على مصراعيه نشتري منها ما أحببنا. فهو يأذن لنا بأن نأخذ من مكتبة النهضة المصرية، التي تتولى نشر مؤلفاته، أي عدد من الكتب دون قيد، ثم تحاسبه المكتبة في آخر العام. وقد كنت أكثر أبنائه استغلالًا لهذه الرخصة. ولم يحدث أن اعترض أبي على إسرافي في هذا الاستغلال إلا مرة واحدة، حين قرأ في كشف الحساب السنوي اسم كتاب في تاريخ العالم من خمسة عشر مجلدًا بلغ ثمنه أربعين جنيهًا!

* * *

وقد علمَنا والدي ألا نسمح للآراء الشائعة للنقاد أو الناس بأن تحد من حريتنا في الحكم على ما نقرأ:

> «لا تخشوا أن تخالفوا مفكرًا في آرائه، أو أن تعبروا عن عدم رضائكم عن كتاب مشهور. فكما أن الفيلسوف الألماني شبنجلر يحذر الدول الغربية من التنازع فيما بينها حتى لا تفقد احترام شعوب مستعمراتها من الملونين فتسعى إلى المطالبة بالاستقلال، كذلك فإن اختلاف الفلاسفة والنقاد في أحكامهم يعطيكم الحرية الكاملة في أن يكون لكم رأيكم الخاص... لا تخشوا أن تحكموا على هيجيل بالادعاء والسفسطة والغموض، ولا تدَعوا شهرته تخيفكم، فكذا هو رأي شوبنهاور فيه. وتولستوي يرى أن شيكسبير مؤلف رديء، وأن نيتشه نصف مجنون... فمهما كونتم من رأي سيئ في أحد المفكرين، فستجدون له صدى في مفكر مشهور مثله. وبمرور الوقت، سيكون بوسعكم الاستغناء حتى عن هذا التعضيد، والوقوف ولو ضد الناس أجمعين. وهذه هي ميزة القراءة الكثيرة، فهي تزيد من حريتكم في إطلاق الأحكام».

وهو نفسه يتبع هذه القاعدة إلى منتهاها: لا يخجل من التعبير عن كراهيته للموسيقى الغربية بأسرها، خفيفها وجادها، وتفضيله الاستماع إلى أغنية أسمهان «ليت للبراق عينًا» على الاستماع إلى سيمفونية لبرامز. أذكر أنه فرغ يومًا من قراءة عدد من التمثيليات الإغريقية التي ترجمها طه حسين إلى العربية، فما أغلق الكتاب حتى شرع يخبط كفًّا بكف يعجب لأمر ذلك الإجلال والتقديس اللذين يكنهما الناس، أو يتظاهرون بأنهم يكنونهما، لكُتَّاب المسرح الإغريق.. لم يجد في كل تلك الصفحات الكثيرة سطرًا واحدًا أعجبه، أو حكمة طرب لها. فقام من فوره يتصل بالدكتور طه تلفونيًّا، يسأله أن يشرح له في صبر وإخلاص ما يمكن أن يعجب القارئ في الأدب التمثيلي اليوناني.

وربما كان من أهم ما سمعته من والدي بصدد القراءة، ملاحظته التالية:

«لن يكون بوسع امرئ أن يغوص في أعماق إنسان آخر ويفهمه، حتى يحبه كل الحب، وحتى يتلاشى لديه التمييز بين نقائصه وفضائله، ويغرم بمجموع صفاته. كذلك فيما يتصل بالقراءة، فهي لا تكاد تكون مجدية إلا إن أحببت كاتبًا حبًّا تضيع معه التفرقة بين الضعيف من أدبه والقوي، حبًّا يضيء لك الغامض ويكمل الناقص... إن حبك القوي لزوجتك يعينك على فهم النساء كلهن، ويكون أكثر قيمة من معرفتك السطحية لعشرات العشيقات. وكذا سيكون غرامك بأديب أو مفكر معين أعظم قيمة من اطلاعك السريع على أعمال مائة من المفكرين. وتأكد أن تحمسك الحقيقي الشديد لأحدهم يعني أنك قد وفقت إلى من سيمكنه مساعدتك مساعدة إيجابية على إنضاج شخصيتك، وتنمية مواهبك وقدراتك الخاصة».

ومع ذلك، فقد حدث أثناء زيارته للندن، حين اختير عضوًا بمؤتمر المائدة المستديرة الخاص بمشكلة فلسطين عام ١٩٤٦، أن أرسلت إليه خطابًا أذكر له فيه أني قد بدأت في قراءة أوسكار وايلد، وأني شديد الإعجاب به. ولا أدري كيف وجد من الوقت ما سمح له بتحرير رده التالي الذي بدأه هكذا دون تمهيد أو تحية:

«في إحدى الوثائق التي عثر عليها في مدينة كولونيا بألمانيا، والتي يرجع تاريخها إلى عام ١٤٩٩، بعد اكتشاف الطباعة: إن الله تعالى، بحكمته اللانهائية، قد مكن الإنسان من اكتشاف ذلك الفن المجيد، فن طباعة الكتب، الذي نستطيع بفضله أن ننتج نسخًا منها لا حصر لها، مما يهيئ الفرصة لكل فرد أن يقرأ بنفسه، أو أن يسمع غيره وهو يقرأ له، عن أفضل السبل لنجاة روحه.

تلك هي النظرة السليمة الوحيدة إلى فن الأدب. فهل هي مما تجده عند صديقك وايلد؟

هذا الوغد، كما أفضِّل أن أسميه، ما كان ينبغي أن يخدع صبيًّا ذكيًّا مثلك، لم يفقد حاسته الخلقية، ولم يصِب ذوقه الفني ما أصاب ذوق الناس في زمننا هذا من انحراف.

... أريد أولًا أن أنبهك إلى ضرورة أن نُكون لأنفسنا أساسًا نحكم على هديه على ما نطلع عليه من فنون، حتى يكون بمقدورنا لفظ الزائف منها، فلا نسمح له بأن يشوه عقولنا، ويؤثر في قدرتنا على الحكم الصائب. فإن سلَّمت معي بأن مهمة الفنون، كما سبقت أن ذكرت لك، إن هي إلا توجيه حياتنا الروحية، وجب اعتقادك بضرورة اتخاذ موقف واعٍ إزاء ما قد يعرقل من هذا التوجيه. وحذارِ من التأثر بالنقاد في هذا الصدد، أو إتاحة الفرصة لهم أن يكيفوا لك حكمك. فالحكم على الفن مسألة ضمير، ضمير كل شخص على حدة. وليس بوسع ناقد مهما كان شأنه، متى رأيت أن عملًا فنيًّا معينًا يعرقل حياتي الروحية، أن يثبت لي العكس. وكثيرًا ما تكون الحياة الروحية لدى النقاد من الموات،

بحيث تجدهم قد فقدوا حاسة التمييز بين الخبيث والطيب، إن لم يكونوا قد اتخذوا موقفًا عدائيًّا من الفن الطيب الذي يظهر لأخلاقية موقفهم من الحياة.

سل نفسك عقب الفراغ من قراءة عمل أدبي، عما إذا كنت قد صرت بفضل قراءتك إياه إنسانًا أفضل، عما إذا كان عزمك قد قوي على أن تكون علاقتك بمن حولك أكثر إنسانية ونبلًا. فإن كان جوابك بالإيجاب، فإن الكتاب الذي قرأته هو عمل فني من الدرجة الأولى.

ثم طبق ذلك على أوسكار وايلد، إني واثق من أنك لم تخرج من قراءته أكثر طيبة ونبلًا، وأنك لم تنظر إلى من حولك بعدها نظرة أشد تفهمًا وعطفًا وإنسانية. العكس تمامًا هو الصحيح، وهو أنك صرت أكثر احتقارًا للناس، واستخفافًا بهم وبأمانيهم وبما يكدحون من أجله، وأشد انفصالًا عن مظاهر الحياة حولك.

وكان المفكرون والفنانون القدامى إن أرادوا أن يقولوا شيئًا قالوه، لا يمسكون بأقلامهم إلا إن كانوا يريدون أن يقولوا شيئًا، فإن أمسكوا بالقلم كتبوه. أمر بديهي؟ إنه ليس بديهيًّا عند صديقك وايلد، وعند الأكثرية من الكُتَّاب المحدثين...».

لم أكن في أي وقت من الأوقات، حتى في سنِي طفولتي، قليل الثقة بالنفس، أو حتى معتدلها. وقليلون هم الذين يبرئونني من صفة الغرور.

وقد تآلفت العوامل منذ البداية على تقوية هذه الثقة وتدعيمها. ففي البيت، تفضيل والدي إياي، ومحاباته لي، واعتناؤه الخاص بي باعتباري خليفته في الأدب، وفي المدرسة، تفوقي الدائم في الدروس، وكراهية التلاميذ لي، وحرص المدرسين على إرضائي من أجل والدي الذي كان قد وصل في ذلك الحين إلى منصب العمادة في كلية الآداب وعضوية المجمع اللغوي، وأتت له كتبه عن فجر الإسلام وضحاه وظهره بنصيب ضخم من الإعجاب والتقدير.

وقد كانت السنوات الثلاث التي قضيتها في روضة الأطفال، والسنة الأولى من المرحلة الابتدائية، أهم السنوات في تكوين شخصيتي وتكييف استعداداتي. قد خلقت مني صبيًّا جم المطامح، شديد الإحساس بذاته، لا يرهب الناس ولا يتوق إلى صحبتهم، ولا يرضى بغير مركز الزعامة في أي أمر من الأمور، لهوًا كان أم جدًّا. وإنه لمن النادر حقًّا أن تعثر على صبي أشد غرامًا بالسيطرة على من شاء الخضوع لها ومن لم يشأ، قليل الاحتفال بمشاعر الآخرين؛ قليل الحرص على إرضائهم.

لم أكن بأية حال من الأحوال أذكى تلاميذ الفصل، بل ولا أحد أذكيائه. ولو كنت ذكيًّا لما نلت درجات الامتياز في جميع المواد، من اللغات والتاريخ إلى الجبر والطبيعة، وكأنما هي عندي سواء. صحيح أنني كنت أفضل اللغات ومجموعة المواد الأدبية والنظرية، وأستثقل الحساب والكيمياء وعلم الأحياء. غير أن إجادتي للمجموعة الثانية كانت كإجادتي للأولى، وكنت أبذل في مذاكرة ما أستثقله أضعاف الجهد الذي أبذله في دراسة ما أحب، حتى أتفوق في كل شيء. كان هناك بالفصل من يفضلني في الحساب، ومن يفضلني في الإنشاء أو الكيمياء، غير أنه لم يكن لزميل طوال سنِي الدراسة الابتدائية والثانوية ما لي من روح عدوانية، ومن هو من الطموح، أو من الغباء، بحيث يقبل على مذاكرة ما لا يحب أكثر من إقباله على مذاكرة ما يحب. لهذا كان ترتيبي دائمًا، باستثناء مرتين أو ثلاث، الأول في الفصل.

أذكر المرَّة الأولى التي كان ترتيبي فيها الثاني لا الأول. كنت حينئذ في التاسعة من عمري، في السنة الثانية الابتدائية، وكنا نجلس في الفصل في انتظار مدرس الحساب، نجاتي أفندي، كي يتلو علينا نتيجة الفترة الثانية. وكان التلاميذ فيما بينهم يتنبأون بمن عساه يكون الثاني والثالث والرابع، تاركين لي مكان الأولوية كأمر مسَلم به. وإذ دخل نجاتي حاملًا النتيجة. خيل إليَّ أنه صوب نحوي نظرة فيها شماتة وتشفٍّ انخلع لها قلبي. فقد كان هذا المدرس بالذات يدرك ما بي من غرور. وهو يدرك خطورته، ويدرك ضرورة اقتلاعه أو التخفيف من حدته على الأقل. وكثيرًا ما كان يتقدم إلى

زوج أختي، وهو زميل له، يجأر بالشكوى من تصرفاتي ويقترح عليه الحلول. فما إن فتح الكشف يتلو النتيجة منه، وما إن وقع على سمعي أنني ثاني الفصل لا أوله، حتى اسودت الدنيا في عيني، ومالت بي الأرض والجدران من حولي... هيئ إليَّ حينذاك أن أعين التلاميذ قد اتجهت كلها صوبي تعبر عن فرح لا يعبأون بكبته... وخيل إليَّ أنهم قد اكتفوا من النتيجة بهذا القدر، فلم يعطوا بقيتها اهتمامًا ولم يعبأوا بما قد يكون عليه ترتيبهم هم! غير أني جززت على أسناني حتى لا أبكي أمامهم وأظهر تأثري. فما وصلت إلى البيت حتى ألقيت بكراساتي وكتبي على الأرض، ورميت بنفسي بين ذراعَي والدي أجهش ببكاء لم أجهش بمثله بعدها قَطُّ، مما ذُعر له الجميع. فلما علموا السبب تنفسوا الصعداء وضحكوا، مما زادني بكاء وعويلًا. فأما والدي فقد ظل يربت على رأسي مهدئًا حتى هدأت، وحتى انتهى نحيبي من عويل صاخب، إلى بكاء خافت، إلى شهقات متقطعة. ثم دعاني إلى أن أمسح دموعي وأغير ثيابي، واصطحبني إلى دار الإذاعة حيث كان مدعوًّا لإلقاء حديث فيها، فاستأذن المذيع أن أجلس معهما في الأستوديو أثناء الإذاعة. وقد أذن المذيع على ألا تصدر مني حركة أو صوت. وجلست مبهورًا أرقب المصباح الأخضر فالأصفر فالأحمر يضيء على التوالي، وأتحسس بأصابعي جدار الغرفة الفليني، وتخامرني فكرة الصياح فجأة حتى يسمعني إخوتي في البيت فيقولون: «هذا حسين!»، فأضحك في نفسي ضحكًا مكظومًا لهذه الفكرة. فما انتهى الحديث حتى كان الألم قد ولى، وما انتهت الفترة الثالثة حتى كنت قد عدت إلى الأولوية من جديد.

* * *

وقد كان خليقًا بي، وقد أثبت تفوقي في الدروس، وأرضيت غريزة السيطرة في ميدانها، أن أترك لغيري من الصبية فرصة أن يبرزوا في غيرها من الميادين، فيكون ثمة توازن يخفف من حنقهم عليَّ. ولكن عبثًا! ففي قاعة الموسيقى أنا المغني وهم بعدي يرددون، وفي جماعة التمثيل الممثل الأول وهم التالون، وأنا في الملعب قائد أحد الجيشين وفرعون الذي به يأتمرون. كل هذا دون أن تكون لديَّ موهبة خاصة لا في الغناء ولا في التمثيل ولا في الحرب والضرب، مما يجعلني أعجب أشد العجب كيف سمح التلاميذ لي، وأنا الذي لا سلطان لي عليهم في فناء اللعب، بأن أكون قائدهم، بل أن يشركوني في لهوهم على الإطلاق، وكيف رضيت ضمائر المدرسين أن يسندوا إليَّ الأدوار الرئيسية في التمثيل، ويكلفوني بالغناء.

وإني لأذكر والخجل يملأني يومًا جلس إلينا فيه المدرس المشرف على جماعة التمثيل، يمازح أحد التلاميذ البارعين في التمثيل كل البراعة، الخائبين في الدروس أثقل الخيبة، قائلًا له إنه لا يفلح في التمثيل إلا الخائب البليد. فما ظنك إذ تراني أقوم هاتفًا بالمدرس:

- فماذا عني، وأنا المُجيد للتمثيل والدرس جميعًا!

فإذا المدرس يحدجني طويلًا بنظرة يمكن تخمين طبيعتها، ثم إذا هو بعد هذه النظرة وهذا الصمت يشيح بوجهه عني ليواصل ما كان فيه من حديث.

ثم أذكر وأنا في خجل أشد أن مدرس العربية، ويُدعى يوسف المحجوب، كان قد اتفق مع الإذاعة على أن يقوم تلاميذ فصله بتمثيل مسرحية شعرية من تأليفه في برنامج «ركن الأطفال». وكانت المسرحية عن بلال مؤذن الرسول، بلال بطلها، وهو يغني فيها عدة أغنيات من بينها أغنية رائعة اللحن، مطلعها:

أحد! أحد!

رب أحد

لا والد

ولا ولد

وما له

كفو أحد

وحدث أن اكتشف المدرس الشاعر موهبة حقيقية في الغناء لدى تلميذ هادئ وسيم ضئيل الجسم، ما إن اكتشفه حتى نحاني عن دور بلال، مسندًا إليَّ دور رأس الكفر أمية بن خلف! فما ظنك إذ تراني أقبل الدور دون اعتراض، وأستعد معهم إذ يستعدون، متظاهرًا بالرضا وعدم المبالاة، حتى إذا جاء يوم التمثيل، وتفقد المحجوب ممثليه كي يصطحبهم إلى دار الإذاعة، بحث عني فلم يجدني، وسأل فأخبروه أني معتذر لمرضي، وما كان بي يومها مرض، أو كان بي مرض ولكنه غير المرض الذي اعتذرت به.

* * *

فإن سألني سائل أن أقرن صباي بحادث معين يميزه ويشير إليه، ويلخص في بضع فقرات قصار الصبي الذي كنته، لطفا إلى ذهني على الفور الحادث التالي: كنت وقتها في الثامنة من العمر في السنة الأولى من المرحلة الابتدائية، طفلًا ليس بالوسيم، طويل الوجه، غليظ الأنف، كث الحاجبين. فإن حكمت من الصور الشمسية لي المنتمية إلى ذلك العهد، قلت إنني كنت دائمًا مقطب الحاجبين في عظمة، يشع من عينَي الواسعتين بريق طالما كان مثار التعليق والتندر. فكثيرًا ما أهاب بي والدي ألا أقطب، وألا أبرِّق عينَي. فإن أجبته بأن هذا مما لا إرادة لي فيه، رد ضاحكًا:

- بل تتكلفه لعلمك أنه من مظاهر العظمة.

وأحتج عليه معترضًا في إخلاص، فيقاطعني مهدئًا:

- حسنًا، فلتحاول إذن أن تغصب نفسك على ألا تقطب أو تبرِّق، فهما يضران بالنظر.

اختارتني إدارة المدرسة كي أكون عريف الفصل، أحل محل المدرسين في فترة الدقائق العشر التي تفصل بين حصة وأخرى، فأحافظ قدر الإمكان على النظام بين التلاميذ، أسمح لهم بالحديث

دون صياح، وبالتنقل الهادئ بين المقاعد دون الجلبة والضوضاء. فإن خرج أحدهم عن هذه الحدود المقررة، أبلغت اسمه مدرس الحصة التالية فيعاقبه أو يعفو عنه. كان هذا هو كل المطلوب من العريف. غير أني، لسبب ما، تجاوزت حدود سلطاتي تجاوزًا غريبًا لا أدري كيف صبر التلاميذ عليه، في حين كان من الممكن لأي عصيان أو تمرد على منهجي أن يجلب عليَّ تقريع الإدارة. ذلك أنني لم أكتفِ بأن أحرم عليهم الكلام الهادئ فيما بينهم، والتنقل بين المقاعد خلال دقائق الراحة تلك، بل اغتصبت لنفسي حقوق المدرس، فأصبحت أطلب من هذا التلميذ أو ذاك أن يقف ويقرأ جهرًا في كتاب المطالعة، مستوقفًا إياه بين الحين والحين لأسأله أو أسأل جاره عن معنى هذه الكلمة أو تلك! صحيح أنني لم أجرؤ في بادئ الأمر على الضرب بالمسطرة إن بدر من أحدهم ما يغضب، غير أني كنت آمر المشاغبين منهم أن يتركوا مقاعدهم إلى أركان الفصل، فيديرون وجوههم إلى الحائط ريثما يأتي المدرس. فكان المدرس إذا وصل يعجب أشد العجب لهذا العريف وسلطانه، ولإطاعة التلاميذ إياه أكثر من إطاعتهم بعض المدرسين.

ثم حدث في يوم من الأيام أن تأخر مدرس الحصة عن الحضور مدة تزيد على ربع ساعة. فظللت واقفًا عند السبورة، وفي يدي المؤشر، أستمع إلى مطالعة تلميذ. وفي هذه الأثناء كان ناظر المدرسة يمر بالردهات لتفقد النظام، فسمع ضجيجًا وضحكًا صادرين من الفصل المقابل لفصلنا عبر الردهة. وإذ فتح الباب فجأة دون طرق، رأى مدرسًا مسكينًا يحاول عبثًا ضبط النظام، بينما وقف بعض تلاميذه عند النافذة غير عابئين به، وجلس بقيتهم يتحادثون ويتضاحكون. فما إن رأوا الناظر أمامهم حتى خيم عليهم جميعًا سكون الموت. وتقهقر الوقوف منهم إلى مقاعدهم، بينما بدأ العرق يتصبب من جبين المدرس الذي أشار إليه الناظر أن يتبعه إلى الردهة. وهناك أنَّبه الناظر أعنف تأنيب، وسأله إن كان غير قادر على أن يحفظ كرامته ووقاره أن يترك مهنة التدريس لغيره. ثم تركه الناظر إلى فصلنا الذي تناهى إليه منه عبر الباب صوت هادئ يطالع. وإذ فتح الباب، وقف نصف دقيقة مشدوهًا يرقب هذا التلميذ الصغير في الثامنة، وفي يده المؤشر، يصغي مقطبًا إلى زميل له واقف عند دُرجه يقرأ، وبقية التلاميذ جلوس ينظرون في كتبهم.

صحت بالتلاميذ:

- وقوف!

فهبوا واقفين تحية للناظر الذي أومأ إليهم برأسه أن يجلسوا، ثم تقدم مني وما زالت في عينه دهشة:

- أين المدرس؟

- لم يأتِ بعد.

- أنت عريف الفصل؟

- نعم.

- ما اسمك؟

- حسين أحمد أمين.

- ابن عميد كلية الآداب؟

- نعم.

- برافو يا حسين. استمر.

ثم خرج. واستأنف التلميذ المطالعة. فما مضت دقيقة حتى عاد الناظر وقد أحضر معه المدرس المسكين من الفصل المواجه.

صحت:

- وقوف!

غير أن الناظر أشار إليهم بسرعة ألا يقفوا، وطلب مني أن نمضي فيما كنا فيه. وظل الاثنان يراقباننا مدة، والناظر يحدج المدرس بين الحين والحين بنظرة ذات مغزى، ثم أخذه وانصرف.

وصلت تفاصيل هذا الحادث إلى أبي من مصدرين: من زوج أختي الذي كان يدرس اللغة العربية لفصلنا ذلك العام، ثم من الناظر نفسه بعد يومين. وقد كان سرور أبي وقتها عظيمًا. وسرعان ما شاعت القصة بين أفراد العائلة الذين اشتهرت بينهم منذ ذلك الحين بأني «صبي ذو شخصية». أما في المدرسة، فقد سارع تلاميذ الفصل المواجه إلى مقارنة قصتهم بقصة تلاميذ فصلنا، مؤلفين من القصتين قصة واحدة سرت أنباؤها إلى سائر الفصول. وظللت مدة أسبوع لا أنزل إلى فناء المدرسة في فترات الفسح إلا وأشارت الوجوه والأصابع إليَّ. ثم جربت بعدها أن أوسع حدود سلطاتي خلال الدقائق العشر، فإذا التلاميذ لا يقاومون ولا يشكُون.

* * *

لم يكن من المتوقع إذن أن تجلب لي شخصيتي هذه حب التلاميذ، وإن كسبت احترامهم. وما زلت أذكر عددًا منهم كانوا على استعداد لافتراسي افتراسًا لو أن الفرصة فقط حانت، غير أن أمرًا معينًا كان يحول بينهم وبين تنفيذ هذا القصد.

ذلك أنه كان لي طوال سنوات الدراسة الابتدائية ما يمكن تشبيهه بالحرس الخاص: كان بفصلنا في السنة الأولى تلميذ مسكين، زري الهيئة، رث الثياب، بالغ القذارة. كنا كثيرًا ما نرى القمل يزحف جهارًا من تحت ياقة قميصه المهلهلة، أو يسقط من شعره الطويل المرسل على الدرج. وقد بلغت به القذارة وقوة الرائحة مبلغًا جعل التلاميذ يرفضون بإصرار مشاركته في المقاعد المزدوجة بالفصل، ذاكرين السبب للمدرسين في صراحة، وفي حضرته. فكان يُخصَّص له مقعد وحده في آخر الفصل، سرعان ما كان يلوثه بالحبر والطباشير ودهن الطعام الذي يحمله. وقد انتقلت عدوى احتقاره من التلاميذ إلى المدرسين الذين كانوا كثيرًا ما يجدون في كراساته بقعًا زيتية كبيرة، فيرفضون تصحيحها، ويقذفون بها في وجهه. فكان يتلقى إهانات الجميع له في استسلام ذليل،

وكأنما لم يكن من الممكن له أن يتوقع غير ذلك.

كان التلاميذ إذا لاحظوا في مؤخرة سرواله أو ظهر كمه مزقًا، فاجأوه من الخلف فزادوا المزق اتساعًا حتى تظهر منه ملابسه الداخلية ظهورًا شائنًا. فأما حذاؤه فكان يغطي خدوشه بالحبر الأسود محاولًا إخفاءها. وكان الحصى كثيرًا ما يتسرب من خروق نعله فيؤذي قدميه، فإن خلع حذاءه في الفصل لنفض الحصى منه، انبعثت من جوربه وقدمه رائحة فظيعة تملأ الصفوف الخلفية من الفصل، فيسد التلاميذ أنوفهم بحركات مبالغ فيها. وكان المدرسون إذا طلبوا منا إحضار كراسات جديدة في اليوم التالي، ظل الصبي أسبوعًا أو أسبوعين عاجزًا عن شراء الكراسة، معرضًا نفسه لتأنيب المدرسين وسخرية التلاميذ، حتى يدس في يده مدرس طيب ثمن الكراسة، فيقبله دون تردد، بل ودون شكر.

كان اسمه عطية. غير أني في يوم ما لاحظت أن التلاميذ قد بدأوا فجأة ينادونه بـ«أبو ظريفة»، وهم يقهقهون قهقهات عالية طويلة، يمتقع لها وجه الصبي امتقاعًا أليمًا. وكان يصحب هذا النداء في العادة تلميحات وإشارات غامضة إلى الفول والطعمية، والسلطة والزيت، وتعريض فاحش بأبيه. ثم تناهى إليَّ سر ذلك، فقد حدث أن اكتشف أحد التلاميذ أن لوالد عطية هذا محلًّا صغيرًا في سوق الخضار بمصر الجديدة سماه محل «أبو ظريفة» يقف فيه الوالد لبيع الساندويتشات، ويعاونه الصبي مساء بتقديم أطباق الفول والطعمية إلى الجالسين، وقد شاهد هذا التلميذ عطية نفسه في جلباب أبيض يقوم بالخدمة في المحل، فأسرع في اليوم التالي يطلع زملاءه على الأمر، وعلى موقع المحل واسمه، فأثار فيهم الخبر سرورًا ومرحًا لا يعرفان حدًّا. ومن يومها بدأوا ينادونه بـ«أبو ظريفة»، ويصيحون به أن «الشكك ممنوع، والزعل مرفوع، والأجر على الله»، ويسألونه متغامزين عن مصدر بقع الزيت في كراساته. ثم تآمر عدد منهم على الذهاب إلى المحل في المساء لتناول وجبة هناك، فكانوا يجلسون إلى إحدى المناضد، وينادون عطية كي يحضر لهم الساندويتشات، فكان المسكين يلبي طلباتهم وهو يرتعد بؤسًا، وأحيانًا يصيحون به أو بوالده أن الطعمية باردة، أو أن الفول به ذبابة، ويشتمونه أو يشتمون أباه. وأحيانًا أخرى يتركون لزميلهم بقشيشًا عبارة عن مليمين أو ثلاثة، إمعانًا في إذلاله والسخرية به.

لم أتخذ في بداية الأمر موقفًا، حتى جاء يوم وجدتهم فيه قد التفوا حوله في الفناء، وأثقلوا عليه إثقالًا لم يتمالك هذا الصبي له، وهو الذي اعتاد التظاهر باللامبالاة، واعتاد التلاميذ أن ينسبوا إليه تبلد الإحساس، فانفجر بالبكاء والعويل والصراخ والشتائم وهو يضرب الأرض بقدميه. هنا تقدمت في غضب فصرفت التلاميذ عنه، وصحبت الصبي إلى مقعد بالفناء أهدئه. فبدأ الصبي يشرح لي، وهو يشهق بالبكاء، كل ما يعانيه منهم، ويخبرني بأمر الصبية الذين يترددون على محل أبيه، والإهانات التي يكيلونها له. فوعدته بأن شيئًا من هذا لن يتكرر بعد ذلك اليوم.

وصعدنا إلى الفصل، فما جاءت فترة الدقائق العشر حتى أخذت مكاني عند مقعد المدرس:

- هذا إنذار مني إليكم، هو الأول والأخير، من أطاعه فهو خير له، وسيرى من لا يطيعه عاقبة عصيانه. قد أجَرت عطية منذ اليوم، فهو في حمايتي. فالويل الويل لمن يتعرض له، والويل الويل لمن تخطى عتبة محل أبيه أو سماه «أبو ظريفة»!

صاح أحدهم:

- فإلى من نتوجه إذا رغبنا في طبق من الفول؟

قلت للصائح في هدوء:

- تعالَ هنا.

قال:

- لا.

- لا؟!

- لا ثم لا.

قلت وقد غلى الدم في وجهي:

- وحياة أبي وأمي، وشرف النبي، لن أدخل هذه المدرسة أبدًا يا أسامة إن لم تجد نفسك مفصولًا منها في بحر يومين على الأكثر!

ثم تركت الفصل مسرعًا إلى زوج أختي في حجرة المدرسين، فأخبرته باكيًا بالموضوع كله، مكررًا قسمي ألا أعود إلى المدرسة إن لم يُفصل أسامة، وهو الذي صورته على أنه المسؤول عن كل ما لحق عطية من إهانات. فتركني زوج أختي إلى الناظر بعد أن طلب مني مقطبًا، وفي حدة، أن أعود إلى الفصل. فما مضى ربع ساعة حتى جاء إلى الفصل، فاستأذن من مدرس التاريخ أن يعلن أمرًا إلى أحد التلاميذ:

- أسامة الشاذلي!

فوقف التلميذ، بينما كان قلبي يخفق بشدة من الفرح.

- أسامة الشاذلي، لا تأتِ من الغد إلى المدرسة، فقد أمر الناظر بفصلك أسبوعًا، وسيُعلَن أبوك بالسبب. فإن تكرر منك ما حذرك حسين منه، فسيكون فصلك نهائيًّا!

لن أحاول أن أصف وقع هذا الإعلان على التلاميذ، أو أثره في تعضيد مركزي. غير أني ذاكر أنني كونت بعد ذلك اليوم عادة جديدة، هي بسط حمايتي على التلاميذ الفقراء والمضطهدين. كان يكفي أن يشكو التلميذ إليَّ سوء معاملة زملائه له، حتى أعلن أنه قد بات في جواري، أو أن يشكو تلميذ من أن اثنين من التلاميذ «الأقوياء» قد احتكرا منضدة تنس الطاولة، لا يسمحان لغيرهما باللعب، حتى أتوجه إليهما طالبًا منهما التنحي عن المنضدة. قد يكون الدافع إلى ذلك شعوري بالحاجة إلى جماعة تحميني، أو ربما شعوري بالحاجة إلى حب البعض يعزيني عن كراهية الغالبية، أو ربما هو مجرد الرغبة في التحدي والسيطرة. على أني لم أحاول قَطُّ أن أستغل رابطة الولاء القوي التي أصبحت تربط هذه الجماعة بي، والصحيح أن أفرادها هم الذين كانوا يفرضون خدماتهم عليَّ، فكانوا يجنبونني مشقة التوجه إلى المقصف لشراء مشروب أو حلوى، بأن يعدُو

أحدهم لإحضار مطلبي.

وقد حدث في أحد الأيام أن علمت أن ثلاثة من التلاميذ الكبار عقدوا النية على انتظاري خارج المدرسة بعد انتهاء الدروس، كي يكيلوا لي ضربًا مبرحًا لسبب من الأسباب. فأوعزت إلى «الجماعة» أن يعدُّوا للأمر عدته، وأن يتبعوني عن بُعد. فما إن خرجت من الباب، ورأيت الثلاثة يقتربون مني في خطوات سريعة وفي أعينهم الشر، حتى أعطيت الجماعة إشارة البدء. فانهال على الثلاثة سيل منهمر من الطوب والحجارة الضخمة شج جبين أحدهم ففر وهو يولول من الألم والدم يملأ وجهه، ووراءه زميلاه يعدوان. ثم أعطيت الجماعة الإشارة بالكف، فكفوا.

كانت أول نظرية، أو فكرة مجردة، تخامر ذهني، نظرية جد غريبة: كلفنا مدرس العربية بكتابة موضوع إنشاء عنوانه: «الشخصية التي أود أن أكون مثلها حين أكبر». فجلس كل منا يفكر دقيقتين أو ثلاثًا في الشخصية التي تستهويه، أو مثله الأعلى، ثم شرع يكتب. وكان أن اخترت شخصية محمد فريد، وحشدت للموضوع أغبى التعابير وأكثرها ابتذالًا: «محمد فريد... رمز الإخلاص والتضحية... محمد فريد... روح الوطنية الصادقة وقلب الثورة النابضة»، أو شيئًا من هذا القبيل. ثم سلمنا الكراسات. فلما عاد المدرس بها بعد تصحيحها، تبين أن الحاصل على أعلى الدرجات شخص غيري يُدعى طارق، أغرقه المدرس بالثناء عليه، ثم طلب منه أن يقرأ على التلاميذ موضوعه جهرًا.

استمعت إليه وهو يقرأ، فامتقع وجهي من الحسد. فموضوعه ممتاز حقًّا (اعترفت لنفسي بذلك بعد الفقرة الأولى)، لقد اختار له شخصية محمد النبي، وبدأه بالعبارة التالية:

«أمِثلك أكون؟ هيهات هيهات وأنت من أنت! أفغيرك إذن أحتذي؟ هيهات هيهات وأنت من أنت! فأنت غايتي، عالمًا أنني غير بالغها، وأنت مناري مدركًا أنني لست مدركه. فحسبي فخرًا أنك غايتي، وكفاني زهوًا أنني اخترتك لنفسي منارًا، يا منار الصفوة والمبصرين...».

وعلى الرغم من أني حصلت على الدرجة التالية مباشرة لدرجة طارق، فقد رأيت نفسي أتوجه إلى حجرة المدرس بعد الحصة، أستوضح منه السبب في أنه لم يعطني الدرجة الأولى كالعادة!

قال لي:

- سأترك لك الحكم ولتكُ عادلًا، فقد استمعت بنفسك إلى ما كتبه طارق، فأي الموضوعين بالله عليك أفضل؟

قلت مقطبًا:

- موضوع طارق.

صاح في دهشة:

- فما بالك إذن تطالب بالدرجة الأولى؟

هنا تكونت في ذهني إجابة عجيبة، أو قل نظرية عجيبة، لم أنطق بها لإدراكي غرابتها، ثم لأنها وقتها لم تكن واضحة كل الوضوح عندي.

فكرت: صحيح أن طارقًا قد كتب موضوعًا يَفضل موضوعي بمراحل، وصحيح أن موضوعي سخيف ممل غير أهلٍ إلا للسخرية والازدراء. ولكن! ولكن ماذا؟ ولكني كنت قد بدأت أعتقد أنه لا ينبغي للمدرسين من الآن فصاعدًا أن يقدروا الدرجات لي على ضوء إجادتي لما أكتب، أو صحة حلي للمسائل وإجابتي على الأسئلة... فعلى أي أساس إذن تريدهم أن يقدروا درجاتك؟ على لا

أساس. يكفي أن يعطوني أعلى درجة على الدوام. ولماذا؟ لأنك عريف الفصل؟ لا، ليس هذا بالضبط، وإنما لأني... حسنًا، فلأقلها صراحة: لأني حسين! لأن شخصيتي هي ما هي، لأنهم في تقدير الدرجات ينبغي أن يأخذوا بعين الاعتبار طبيعة الشخصية التي يتعاملون معها فحسب، وأن يعطوا كل امرئ الدرجة التي تناسبه وتليق به، ولأن شخصيتي أنا على الأقل قد باتت فوق أن تقدر بالدرجات لما يصدر عنها!

أعاد المدرس سؤاله:

- لماذا تطلب الدرجة الأولى إذن وهذا اعترافك؟

فتأملته لحظة شارد الذهن، ثم هززت رأسي، ثم انصرفت.

* * *

لم تكن المسافة بين البيت والمدرسة بأبعد من أن أقطعها سيرًا على قدمَي، فهي على مسيرة نحو ثلث ساعة، غير أن الشوارع التي كان عليَّ أن أجتازها إليها كانت شوارع رئيسية عريضة، تخترقها قطارات المترو والسيارات العامة. لذلك رتب والدي أن يوصلني السائق صباحًا بالسيارة، ثم يعود فينتظرني بها آخر النهار عند باب المدرسة.

كنت أبغض التوجه إلى المدرسة بالسيارة أشد البغض، أجلس منكمشًا إلى اليمين في المقعد الخلفي منها كالحيوان الأسير، وأنا أشد ما أكون خجلًا وبؤسًا. لم يكن ثمة غيري من التلاميذ، وابن وزير العدل الوفدي صبري أبو علم، من يحضر في سيارة. وأية سيارة! سيارة سوداء ضخمة من طراز «كرايزلر» يقودها سائق أسود، مشرط الوجنتين، حسن الهندام. وأجلس فيها أنا التلميذ الذي لا يكاد رأسه يظهر من النافذة، في بنطلون قصير، وعلى ركبتَي كراستان وبضعة كتب، أمُر في الشوارع التي تخترقها بزملائي متوجهين إلى المدرسة سيرًا وهم يضحكون ويجرون ويركلون بأقدامهم الزلط ويتسلقون أسوار الحدائق الخاصة لقطف زهور الياسمين أو ثمار المانجو والجوافة، يخرجون ألسنتهم لصاحب المنزل إن أطل من الشرفة يشتمهم. كنت أغبطهم حريتهم، وأشعر بقوة بأنه ليس من العدل ولا من الحكمة ولا من التناسب ولا من رفاهة الحس أن أتوجه للدراسة في مثل هذه العربة الفخمة وزملائي يمشون. أفأنا أقل قدرة منهم على عبور الطرق الرئيسية وقضبان المترو؟ فأي غرض إذن يخدمه توجهي بالسيارة، وهو الذي لا يفلح إلا في زيادة شعور العداء لدى التلاميذ نحوي؟

غير أن ثمة عاملًا أهم وأخطر: فقد تمكنت حتى الآن من أن أثبت تفوقي على التلاميذ في الفصل وغيره بالوسائل المشروعة، وهأنذا أجدني أضطر رغم أنفي إلى إحراز تفوق آخر بغيض، هو تفوق المال، وهو تفوق في نظري غير مشروع، يذهب برونق المركز الذي كونته بقوة شخصيتي، بل ينال من هذه القوة ذاتها. فلم أكن لأطيق أن ينسب أحدهم سلطاني على التلاميذ إلى ثرائي.

وكنت أنفر لذلك من جميع مظاهر التأنق في الملبس، أو الإسراف في الإنفاق. ولم يكن هناك ما يطربني قدر طربي إذ أتأمل صورة نابليون، في معطفه البالي وحوله الماريشالات في بزاتهم الفخمة الموشاة، وهو مع ذلك كالبدر بين النجوم، لا تلتفت الأنظار إلا إليه.

أردت أن أشرح لوالدي ما يعتمل في صدري، فلم يسعفني بيان، فكثيرة هي الأفكار والمشاعر التي كانت تراود ذهني وقلبي في ذلك الحين دون أن أملك القدرة على التعبير عنها. حتى وقع حادث كان أصدق إنباء من الكلام، ذلك أنه في يوم ما، إذ خرجت من المدرسة وركبت السيارة، وبدأت السيارة تتحرك، إذا بحجر كبير يأتي مندفعًا من الخلف، فيرتطم بزجاج السيارة ويهشمه، فتتناثر قطعه الصغير الحادة حولي. وقد ذعر السائق أشد الذعر، فلما اطمأن إلى أني لم أصَب بسوء، قفز من السيارة غاضبًا هائجًا، وقصد التلاميذ الواقفين عند باب المدرسة، يحاول أن يعرف أيهم فعل هذا. غير أن عددهم كان كبيرًا، ولم يشأ أحد منهم أن يفصح عن اسم قاذف الحجر، بينما وقف معظمهم يبتسمون في تحدٍّ وسرور. ولم يجد السائق في النهاية بدًّا من العودة إلى مقعده بعد أن سبهم سبًّا غليظًا. وإذ حانت منه التفاتة إليَّ، رأى الدموع تنهمر من عينَي مدرارًا.

- معلهش يا حسين بك، واحمد الله على سلامتك. إنهم صبية من أولاد الجواري لا أصل لهم ولا عائلات، فماذا عساك تتوقع غير هذا ممن لا أصل له؟ صبية لم يروا في حياتهم سيارة إلا من الخارج. من لهم بأب كأبيك يحسن تربيتهم؟

وفي المساء دخلت على والدي حجرة المكتب فوجدته يكتب:

- أبي، لن أذهب إلى المدرسة بالسيارة بعد اليوم.

قال مقطبًا وقد ضايقته لهجتي:

- لمَ؟

- ألا ترى يا أبي أنهم يغارون؟ إنهم قذفوا الحجر لحقدهم أن لدينا سيارة!

- سأطلب من ناظر المدرسة التحقيق، وتأكد أن القصة لن تتكرر.

صحت في نفاد صبر:

- ولكنهم يكرهونني من أجل السيارة! أيسرك أن يكرهني التلاميذ لهذا السبب؟

- فكيف تنوي الذهاب والمجيء إذن؟ أتحب أن يوصلك الخادم وينتظرك ساعة الانصراف؟

- لا.

- فأن تشترك في سيارة المدرسة؟

- أبي، إن لي قدمين كسائر التلاميذ، وجميعهم يذهب سيرًا إلى المدرسة.

قلتها بلهجة عنيفة لم أجرؤ على استخدامها من قبل معه.

قال بحدة وهو يعود إلى النظر في أوراقه:

- ستذهب بالسيارة كما كنت تفعل.

- لا.

نحى الورق جانبًا وقد احمر وجهه احمرارًا أرهبني، بينما كان قلبي ينبض بعنف:

- أتظن أنك ستمارس «قوة شخصيتك» تجاهي يا كلب؟!

- أنا لست كلبًا!

صاح بقوة:

- اغرُب عن وجهي!

وبدرت منه حركة وكأنه يهم بضربي، فغادرت الغرفة في بطء.

وظل أيامًا عديدة بعدها لا يوجه إليَّ كلمة، ألقي عليه تحية الصباح فلا يرد. وقد غيرت مكاني إلى مائدة الطعام، فبعد أن كنت أجلس إلى يساره، اخترت لنفسي مكانًا قصيًّا من المائدة. أما المدرسة، فبت أقصدها سيرًا وأعود منها سيرًا بمفردي. غير أن خصامنا آلمني وأثار في نفسي اضطرابًا عنيفًا. كنت أعلم جيدًا أني لن أرضخ، ولكن ما عساه يحدث لو أنه هو أيضًا كان عازمًا على ألا يرضخ، وهو الذي لا يقل صلابة في الإرادة عني؟ ألا يعني هذا أنه لن يكلم أحدنا الآخر أبدًا؟

وحل أثناء فترة الخصام موعد كان قد ضربه لاصطحابنا لشراء أحذية لنا. فلما جمع إخوتي استعدادًا للذهاب، قال لأحدهم مقطبًا:

- اذهب واسأل الولد «حسين» عما إذا كان يريد الحذاء أم لا يريد.

فرددت على أخي بأني لا أريده. فلم يكن أحب له أو لي أن يتم صلحنا من أجل الحذاء، ولو كان مجرد حجة لإنهاء الخصام.

وجاء الصلح بعد أسبوعين. كنا على مائدة الغداء، وإذ تناولت المغرفة أغرف لنفسي من وعاء الحساء، شعرت بعينَي والدي تحدجانني طويلًا من تحت حاجبيه الكثين. ثم قال بلهجة تعمد أن يجعلها جافة:

- أيمكنك أن تخبرني بالضبط عن السبب في عزوفك عن استخدام السيارة؟

أجبت في أدب جم محاولًا إخفاء فرحي:

- التلاميذ يا أبي يكرهونني إذ أحضر وأنصرف في سيارة. أفكان يسرك لو أن قطعة من الزجاج المكسور أصابت وجهي؟

- فأنت على ثقة إذن من استطاعتك قطع المسافة وحدك؟

- نعم.

- وتلزم الحذر عند عبورك الشارع الرئيسي؟

- نعم.

- لا تعبر قضبان المترو حتى يمر؟

- نعم.

- فعلى مسؤوليتك إذن؟

- نعم.

- فافعل.

في روضة الأطفال لم أكن أطيق الفتيات الصغيرات معنا، فهن في نظري كائنات ضعيفات تافهات الشأن، كثيرات البكاء إلى حد يثير الاشمئزاز والضيق، لا يحسنَّ لعبًا ولا عدوًا ولا ضربًا، ولا حول لهن ولا قوة. فماذا نصنع بهن؟ وكانت بفصلنا طفلة تُدعى نادية (لا أدري كيف علق اسمها إلى اليوم بذاكرتي)، شديدة التعلق بي، إن جلست على مقعد جاءت تجلس إلى جواري، فإن قمت قامت تقتفي خطاي. وهي تعرض عليَّ دائمًا كل ما يكون في حوزتها، من حلوى أو طوابع بريد أو ورق ملون أو خرز أو بلي. فإن رفضت عرضها دمعت عيناها وشرعت في البكاء، فأضطر أن آخذ منها ما بيدها بسرعة، تفاديًا لدموعها، ثم أتخلص منه فيما بعد، فما كان هناك ما هو أثقل عليَّ من إعجابها، أو ما هو أجلب لسخرية الصبية وضحكهم من ملاحقتها لي.

ثم يمضي الزمن، فإذا بي لا أجد صحبة الفتيات الصغيرات سيئة إلى هذا الحد! فإن شئت الحق، فلمرافقتهن سحر خاص ليس في مرافقة الصبية الذكور. فهن إن تحسسن العضلات في ذراعي صدرت عنهن صيحات إعجاب هي أحلى سمعًا من الموسيقى العذبة. وهن فاتنات في ضعفهن وجهلهن، فاتنات في حاجتهن إلى حمايتك وشرحك لما يغمض عليهن. إن قتلت لهن حشرة أفزعتهن دهشن لجرأتك وشجاعتك، وإن تسلقت شجرة لقطف ثمرة لهن أعجبن بخفتك وسعة حيلتك، وإن أبعدت عنهن صبيًّا يضايقهن فقد تعطف عليك إحداهن بقبلة امتنان وشكر.

ثم تقل هذه العلاقة جمالًا بتقدم السن بهن وبك، ويدخلها عنصر بغيض غير واضح، تزيد قوته ووضوحه يومًا بعد يوم، ويزيد فساد العلاقة بازدياد إحساسك وإحساسهن به. فهن الآن أكثر تحفظًا في معاملتهن إياك، أقل إقبالًا على صحبتك وإبداء الإعجاب بك. فإذا العداء يعود من جديد، ولكنه عداء مختلف في طبيعته. فأنت الآن سر بالنسبة لهن، وهن سر بالنسبة لك. وعداؤك لهن ليس راجعًا الآن إلى اشمئزاز من ضعف، أو احتقار لكثرة بكاء، أو سخرية لعدم إجادة الجري واللعب، وإنما هو راجع إلى اضطراب لا تدري مصدره أو مبرره يغشاك في حضرتهن، وعجب من تصرفات لهن تبدو متكلفة متصنعة أو صعبة الفهم. فلماذا لا يتحسسن الآن عضلاتك حتى لو طلبت إليهن أن يفعلن؟ ولماذا يسحبن أيديهن بسرعة إن تلامست الأيدي عرَضًا؟ ثم ما هذا التكلف الآن في الملبس، وهذا الحرص الشديد في اللعب، بحيث لا يصعدن شجرة أو ينقلبن على رؤوسهن؟ وما علة هذا التهامس المستمر بينهن، وكثرة ضحكهن الغبي أثناء الهمس؟ وما هذه النظرات الحادة من أمهاتهن إن انحسر عن الركبة طرف ثوب؟

* * *

يروي بلزاك أن طفلًا وطفلة لأحد الملوك وقفا أمام لوحة زيتية للرسام تيسيان تصور آدم وحواء عاريين. سأل الطفل أخته:

- أيهما آدم وأيهما حواء؟

فأجابته الطفلة:

- أما إنك لغبي! ألا تراهما دون ثياب؟ كيف يمكننا إذن أن نعلم أيهما المرأة وأيهما الرجل؟!

لم تكن فكرتي قبل العاشرة بأكثر وضوحًا. وإذ لم يكن أبي - أو أمي - يلفظ بكلمة لي عن العلاقات الجنسية قَطُّ، فقد كان عليَّ أن ألتقط بنفسي المعلومات الخاصة بها، صحيحها وخاطئها، من هذا المصدر أو ذاك، أجمعها وأوفق بينها، وأحاول أن أخرج بفكرة عامة عن طبيعتها. وإذ كنت دائمًا شديد العزوف عن الاختلاط بالطلبة، عظيم النفور من رفع الكلفة مع الناس في الحديث، فقد ظللت أمدًا طويلًا جاهلًا بأبسط المعارف الجنسية وأيسرها، مما هو معروف لدى كل طفل بالريف.

أذكر ظهر يوم شديد القيظ من أيام يونيو، كنت وقتها في العاشرة، قد آوى أفراد العائلة للنوم بعد الغداء، وبقيت وحدي في غرفتي أفرغ مكتبي من كراسات العام الدراسي المنصرم. ثم شعرت بظمأ، فصعدت إلى السطح حيث غرف الخدم بِنية أن أطلب من الخادمة (وهي فتاة قروية في الثالثة عشرة) إحضار مشروب مثلج لي من السوق. ناديت عليها فلم أسمع ردًّا. وإذ دفعت باب غرفتها، إذا بها راقدة على سريرها الخشبي تغط في النوم وقد تعرت من ملابسها تمامًا. ومكثت أرقبها مذهولًا بضع لحظات، وقد شعرت بقلبي يقفز ويضطرب في صدري وكأنما هو كرة من مطاط، ثم فررت أعدو لاهثًا إلى حجرتي: «كيف؟ ما هذا؟ كيف؟ أهذا ممكن؟ أهذا معقول؟ أأنا في وعيي، أم أنها خدعة؟ أكانت هذه هي الحال دائمًا؟ أهي... أهي الحال معهن جميعًا؟ فلماذا أبقوه سرًّا طول هذا الوقت؟ أفي الأمر ما يحتاج إلى إخفاء؟ أهذا هو السبب إذن في أن أخواتي لا يستحممن معنا؟ وما الداعي إلى هذا؟ ومن عساني أسأله عنه؟ أتراهم يوبخونني لو أني سألت؟ أهذا هو السبب في أن أبي وبخ أخي حين شاهده يكلم ابنة الجيران؟ فما وجه الاستهجان في هذا؟...».

أثار هذا الحادث في نفسي اضطرابًا شديدًا وحيرة أشد. رأيت الخادمة بعده بساعة وقد استيقظت وارتدت ملابسها، فلم أستطع أن أرفع إليها عينَي إلا خلسة: «إنها تتصرف وكأن شيئًا لم يحدث! تتصرف تمامًا كما كانت تفعل قبل نومها! كيف؟ أكانت هكذا طول الوقت؟».

ثم ما عدت أخرج إلى الشارع بعدها فأرى فتاة صغيرة أو كبيرة إلا تساءلت: «أهي أيضًا كذلك؟ فلماذا تمشي في هدوء هكذا وكأن شيئًا لم يحدث؟».

وازدحمت في رأسي مئات الأسئلة تريد الجواب، غير أني أحسست لسبب ما بأن الأمر أدق من أن أسأل عنه.

ثم حدث بعد أيام أن نزلنا إلى الحديقة كعادتنا نلعب مع الخدم. وإذ وقفت عند شجرة وانحنيت عليها أجمع ما علق بجذعها من قطرات الصمغ، جاءت الخادمة المذكورة من خلفي ترقب ما أصنع، ووضعت ذراعها على كتفي. فإذا بي ألكمها في صدرها بقوة وقد احمر وجهي، ونحيت

ذراعها عن كتفي في عنف.

كنت في ذلك الحين أكتب قصة، وقد ورد فيها أن راعي غنم (هو بطل قصتي) كان يعيش مع خطيبته الحبيبة في كوخ واحد: «تجدهما في المساء وقد جلسا عند باب الكوخ، يتناجيان كعصفورين، حتى إذا ما ثقلت جفونهما دخلاه، فناما على سريرهما متعانقين»! وقرأت القصة على أبي عقب الفراغ منها، فلما وصلت إلى هذه الجملة لمحته يبتسم، ثم قال:

- حسبتك قلت إنها خطيبته.

- هي كذلك.

- فاشطب إذن هذه الجملة الأخيرة.

- ولمَ؟

- ليس لها في الواقع داعٍ.

اللعنة عليهم جميعًا! ما كل هذا الغموض؟!

* * *

غير أن الوقت يمضي فيعود ميلي إليهن من جديد، وهو ميل فيه مع ذلك شيء من غرابة، وشيء من ألم، وشيء من عداء. أصبحت أقع في حب كل فتاة أراها، أتوجه إلى السوق فأسمع فتاة تقول لبائعة: «شكرًا يا خالة»، فأعود إلى البيت مضطربًا أحتضن وسادتي وأقبلها متمتمًا: «إنها ملاك طاهر، إنها ملاك!». ثم أخرج فتسألني فتاة عن الطريق، أو عن الوقت، فأقع في غرامها وأتمتم: «إنها ملاك!». وتجلس فتاة إلى جواري في الترام فتلامس كتفها كتفي: «إنها ملاك!». وتناديني ابنة الجيران باسمي، فلا أرى له وقعًا أجمل وأعذب من وقعه إذ تنطق به.

وأتوجه يومًا إلى السينما لمشاهدة فيلم «المأخوذ» الأمريكي، فإذا بي أخرج من الدار وقد وقعت على حبي العظيم وغرامي الأبدي، إنجريد برجمان، إلهة الجمال وربة الطهر. وأصبحت من يومها حريصًا على مشاهدة أفلامها كافة، أجمع صورها من الصحف والمجلات، وأبتاع من مصروفي مجلة «الشاشة الفضية» لمتابعة أخبارها، وأحاول رسم صورة زيتية لها. وبدأت من يومها عادة كتابة اليوميات، أبث صفحاتها غرامي وشوقي وقصائدي فيها، فبقيت هذه العادة معي إلى اليوم، وقد تضخمت اليوميات بمرور السنين حتى بلغت عشرين مجلدًا.

حدث مرة أن نسيت درج مكتبي مفتوحًا وخرجت، فما كان من أخي حافظ إلا أن فتحه وفتش فيه حتى عثر على يومياتي فقرأها. وأعود من الخارج فلا أقابل أخًا من إخوتي أو أختًا إلا ضحك أو ضحكت في وجهي ضحكًا مكظومًا. ثم بدأ كل منهم يبث في كلامه التلميحات ويقهقه، حتى أنشد أحدهم في لهجة تمثيلية:

«فينوس ويحك!

قد خجلت أمامها...».

وهو شطر بيت من قصيدة نظمتها فيها. وأدركت لحظتها أنهم قد قرأوا اليوميات. وهرعت إلى الدرج، فلما وجدته مفتوحًا شرعت في بكاء وعويل وتوجيه سيل من الشتائم إليهم جميعًا، حتى سمعني أبي فجاء يسألني ما الخطب. وإذ أخبرته بالأمر، قطب جبينه في غضب حقيقي، ووبخ حافظًا وعنفه. وسمعنا منه يومها لأول مرة شيئًا عن حرمة اليوميات والرسائل والأسرار الخاصة.

وغرقت في بحر من أحلام اليقظة: فها هي إنجريد برجمان تفكر في القيام برحلة سياحية إلى مصر، أرض الفراعنة، فتأتي إلى القاهرة ومعها حبيبها جريجوري بيك (بطل فيلم «المأخوذ»)، غير أنها ما إن تصل حتى تصاب بمرض خطير يُخشى منه على حياتها. وأقرأ في الجرائد نبأ مرضها، فأمر يوميًّا بالمستشفى الذي ترقد فيه أستفسر من الممرضات والأطباء عن حالها، تاركًا باقة من الزهر (كنت وقتها أقرأ رواية «غادة الكاميليا» للمرة الرابعة)، دون أن أدلي باسمي، وتعجب هي لأمر هذا العاشق المجهول الوفي، وتتوق إلى رؤيته، خاصة أن جريجوري بيك كان قد هجرها إذ مرضت وبات يقضي وقته في الحانات والملاهي الليلية. وأصعد إلى غرفتها، فتنشأ على الفور بيننا علاقة حب عميقة خالدة، ونتعاهد على الوفاء الأبدي. ويكون لحبنا - بطبيعة الحال - أثره في التعجيل بشفائها، فنقضي فترة نقاهتها بالأقصر، أشرح لها الآثار وأسرد تاريخ الفراعنة. ثم أبسط أمامها تعاليم الإسلام، فتعجب بها كل الإعجاب، وتسأل كيف أنها لم تسمع بهذه التعاليم من قبل، فأذكر لها شيئًا عن المحاولات الخبيثة للمستشرقين في الغرب أن يخفوا نور هذا الدين القويم ويشوهوا صورته. ونعود وقد تم شفاؤها من الأقصر إلى القاهرة في يخت يضعه الملك فاروق تحت تصرفنا حين يسمع بقصة حبنا الغريبة، وأترجم لها أثناء رحلتنا النيلية أشعار امرئ القيس وزهير بن أبي سُلمى فتحبها، وتروي لي قصائد بايرون وشيلي وكيتس فأطرب لها!

كنا في نهاية أشهر الصيف، في طريق العودة من رأس البر، قد أوصلنا الزورق البخاري في السابعة صباحًا إلى ساحل دمياط، فعبرنا طريقين أو ثلاثة ملؤها القضبان الحديدية والحجارة، حاملين أمتعتنا الكثيرة الثقيلة إلى حيث يقف قطار القاهرة، ينتظر القيام في التاسعة. وقد كانت لوالدي عادة في السفر كثيرًا ما كنا نستنكرها في نفوسنا، ولا نستطيع أن نبوح إليه باستيائنا منها. فهو يريد أن يكون سفره خاليًا من المتاعب والمضايقات، يقصد بنا جميعًا إلى إحدى عربات القطار ومعنا الأمتعة كلها، عاهدًا إلى أخي الأكبر، محمد، أن يهتم بنا وبالتذاكر والحقائب:

- خاصة هاتين الحقيبتين... أتسمع؟ خاصة هاتين الحقيبتين.

مشيرًا إلى الحقيبتين اللتين أودعهما كتبه وما قد يكون قد ملأه أثناء الإجازة من كراسات. ثم يحيينا على أن يرانا في محطة العاصمة، وقد يأخذ من إحدى الحقائب رواية لتوفيق الحكيم أو لتيمور، فيضعها تحت إبطه، ويمضي بها إلى مقعده في عربة أخرى بعيدة.

استقر مجلسنا في العربة، ونظرت أتأمل الجالسين قبالتنا. كانت أسرة طيبة المظهر، من أم في الأربعين بدينة مليحة الوجه، وعمة أو خالة في الخمسين، ثم فتاة في الخامسة عشرة، لم أكن قد رأيت قبلها في حياتي من يفوقها حسنًا وجمالًا ورِقة. فهي شقراء الشعر طويلته، زرقاء العينين ناعستهما، ذات وجه بيضاوي دقيق التقاطيع، وجسم نحيل قد دثرته أمها بشال ثقيل كانت طوال المسافة تتعهد إحكام التفافه حول صدر ابنتها. كانت في بادئ الأمر نائمة أو كالنائمة، مسندة رأسها الملائكي إلى كتف قريبتها عن يسارها. ثم أفاقت فجأة، ونظرت حولها وفي عينيها جزع، وانخرطت في سعال طويل مؤلم دمعت له عيناها، واحمرت وجنتاها احمرارًا شديدًا. وإذ حانت مني نظرة إلى المنديل الأبيض الذي غطت به فاها أثناء السعال، إذا بي، لفزعي الشديد، أرى المنديل وقد ظهرت فيه بقع حمراء متناثرة، تأملتها الفتاة في قنوط، ثم دست المنديل في حقيبتها في بطء وضعف.

هدأت الفتاة وانقطع سعالها، وابتسمت لأمها ابتسامة ضيقة هزيلة، فأجابتها الأم القلقة بابتسامة. ثم دخلت والدتي ووالدتها في حديث أذكر أنه بدأ عن الحقيبتين اللتين أوصى والدي أخي بأن يوليهما اهتمامًا خاصًّا. فقد سمعت السيدة الوصية، ورأت ما عانيناه من مشقة إذ نحاول رفعهما إلى الرف لشدة ثقلهما، فالتفتت إلى والدتي مداعبة تراهن أن الحقيبتين إنما تحويان قضبانًا من الذهب.

أجابت والدتي:

- ذهب؟! هما كذلك أو أغلى من الذهب عند صاحبهما. وهما عندي لا تعادلان هذه الربطة من الفطير (المشلتت) التي أراكِ قد أتيتِ بها.

- فماذا بهما إذن؟

- كتب وحياتك عندي.

- لا أصدق!

- فبادليني إذن هذا الفطير بهاتين الحقيبتين بما عسى أن يكون بهما من كنوز. أو بحقك فخذيهما دون فطير، وسيكون لكِ مني الثواب والدعاء، فهما عندي أثقل من ضرة، وتأخذان من وقت صاحبهما أكثر من الضرة بكثير!

هنا ضحكت الفتاة المصغية إلى الحوار ضحكة مرحة، فضحكت أنا أيضًا وقد سرني سرورها.

- أزوجكِ كاتب إذن؟

- كذلك يدعي.

سألت الفتاة والدتي:

- أكاتب قصصي هو؟

- والله يا بنتي ما قرأت له حرفًا، فلا تسأليني.

- فما اسمه؟

- أحمد أمين.

- لم أسمع به.

صاحت والدتي في انتصار:

- أسمعتِ به بذمتك؟ بيد أنه يظن الناس إنما تلهج ألسنتهم بذكره! شكرًا لك يا بنية. والله ما إن أصل إلى القاهرة حتى أخبره بأني قابلت في القطار من لم يسمع عنه في حياته قط، ولم يقرأ من كتبه الأربعين حرفًا. علَّ ذلك ينزله من عليائه، ويعيد إليه صوابه!

- ألا يسركِ أن تكوني زوجة لأديب مشهور؟

- أين هو السرور، خبريني؟ في انشغاله عنك وعن أولاده بكتبه، أم في شرود ذهنه، أم في تلك النسوة اللاتي يأتينه مدعيات حب الأدب؟ والله لا سرور سوى ربما بأن الكتب قد بدأت تدر دخلًا لا بأس به. أتظنينه يومًا لاحظ فستانًا جديدًا اشتريته، أو قرطًا تحليت به؟ أبدًا يا روحي. أجيئه بالفستان الجديد فأجده إما قارئًا أو كاتبًا. أقول له: «انظر وقل رأيك»، فيرفع رأسه بمشقة ويقول: «هه!». فأعيد عليه الجملة، «رأيي في ماذا؟»، «في الفستان، في هذا الفستان الجديد». فيقول كالمذهول: «ماله؟». أصيح وقد تبدد كل سروري به: «ما رأيك فيه؟»، فينظره وأنا واثقة من أنه يقلب في ذهنه جملة مما كان يقرأ أو يكتب، ثم يقول: «جميل». فوالله لو سألته وقتها ما هو الجميل، وعن أي شيء أتحدث، ما درى!

واستغرقت الفتاة في الضحك، غير أن ضحكها لم يطُل، إذ سرعان ما اتصلت به نوبة أخرى من السعال العنيف تناثرت له خصلات شعرها على جبينها، وأسرعت تخرج منديلًا نظيفًا كورته على شفتيها. وراقبتها والدتي هذه المرَّة ففهمت ما بها، وتبادلت مع أم الفتاة نظرة ذات مغزى.

همست الفتاة:

- إني عطشى.

فهببت من مقعدي إلى زمزمية كانت معنا بها عصير الليمون، وملأت لها الغطاء إلى حافته، فشربت حتى رويت.

- تريدين المزيد؟

- لا. شكرًا لك.

وابتسمت لي ابتسامة كدت أطير لها. وإذ رأيت والدتي قد دخلت في حديث آخر مع السيدتين، فقد انتقلت إلى الجلوس إلى يمين الفتاة:

- ماذا بكِ؟

- دعك من الحديث عني، قل لي: ما اسمك؟

- حسين.

- أستكون أديبًا مثل والدك يا حسين؟

- نعم. وقد كتبت بالفعل روايتين، وكتابًا عن عمر بن الخطاب.

- أريد أن أراها يومًا ما.

- لن يكون في الدنيا ما هو أحب إليَّ من ذلك. أين تسكنين؟

- في مصر الجديدة.

صحت في فرح:

- هناك نسكن نحن. يا لحسن الحظ، فسأراكِ إذن؟

وابتسمت لفرحي، ومدت يدها إلى رأسي تربت عليه. وهممت أن أمسك بهذه اليد فأنهال عليها تقبيلًا، غير أني أحسست بعين والدتي ترقبني، فاكتفيت بأن صببت لها قدحًا آخر من عصير الليمون.

وقطعنا المسافة إلى القاهرة في حديث عذب لم أنسَ حلاوته قَطُّ، نلعب حينًا، ونقوم إلى الممر حينًا، ونتحدث فيما أقرأ، وفيما تقرأ (كانت تقرأ ديوان «أنت وأنا» لبول جيرالدي)، وعن الحفرات التي كنا نحفرها أمام العشة في رأس البر حتى يقع فيها الباعة المتجولون، وكيف وقع في إحداها الدكتور عبد الرزاق السنهوري إذ قدم لزيارة أبي، وعن آمالها هي: وهي أن تسكن كوخًا في قمة أحد الجبال بسويسرا، تتزحلق على الجليد شتاء، ثم تهبط لصيد السمك صيفًا، وتكتب شعرًا كشعر لامارتين.

ووصلنا إلى محطة العاصمة فافترقنا. وما إن احتللنا مقاعدنا في السيارة، حتى قالت والدتي في لهجة حازمة:

- لا يشربن أحدكم من هذه الزمزمية التي شربت منها الفتاة، فلديها داء السل.

ليس بوسعي أن أصف شعور الاستياء والانقباض الشديد الذي غمرني إذ أسمع هذه الجملة تقال بمثل تلك اللهجة الواقعية الصريحة. وأقسمت في نفسي لأنتقمن للفتاة من والدتي بأن أشرب كل ما تبقى في الزمزمية من عصير فور وصولنا إلى البيت. بل ومن نفس الموضع الذي مسته شفتاها. وهو ما صنعته فعلًا. غير أن شعور الغضب من والدتي دام أيامًا بعدها.

كان هذا هو أول حب حقيقي لي. فعلى الرغم من أني لم أرَ الفتاة بعدها قَطُّ، فقد ظللت عامًا كاملًا أفكر فيها في شغف عميق، تدور حولها أحلام يقظتي ومنامي، أقول فيها الشعر، وأتصور نفسي مخترعًا للدواء الذي سيشفيها من مرضها، ثم إمبراطورًا على الشرق كي أجعل من هذه الفتاة رائعة الجمال إمبراطورة عليه. وقد أطلعت أبي على ما نظمته فيها من قصائد فأعجبته، فلما سألته عن رأيه في نشرها، قال إنها على الرغم من جودتها ليست بالجودة التي تؤهلها للنشر، فألقيت بها في الدرج.

كانت الفتاة قد ذكرت لي أنها تسكن في الفيلا رقم سبعة من شارع دمياط. وقد مررت بهذا البيت عشرات وعشرات من المرات، أطوف به عسى أن أراها تخرج أو تدخل فيه، أو تطل من إحدى نوافذه، فلم أرَها مرة واحدة. وكنت في طوافي أشبه بالمتعبد الخاشع، أقف على الرصيف قبالته فأنظم الأبيات في هذا البيت المنزه كالعتيق الذي يضم حبيبتي بين جدرانه:

يا دارَ سَلوى فانظُري ذاكَ الذي يَرنو إليكِ بقلبِه المتأملِ

مَهما صَنَعتُ مِن القَصائدِ سُلمًا سأرى الحَبيبَ إليَّ يَنظرُ مِن عَلِ

ثم حدث بعد ذلك بعام، بعد أن انتقلت من مدرسة «مصر الجديدة الابتدائية» إلى «المدرسة النموذجية الثانوية»، أن لاحظت أن سيارة المدرسة كانت توصل أحد التلاميذ وتأخذه عند ناصية من ناصيات شارع دمياط، قريبة من بيت فتاتي. فرأيت أن أسأله عن رقم بيته عله يكون جارًا لها. قال:

- سبعة.

صحت به وقد أمسكت بياقتَي سترته:

- سبعة؟! سبعة شارع دمياط؟! ألك أخت إذن؟

قال في برود:

- لا.

قلت مقطبًا:

- كيف لا؟

قال وهو في مثل تقطيبي:

- كيف كيف لا؟!

- ليست لك أخت؟

- قلت لك لا!

- وتسكن في المنزل رقم سبعة؟

- هذا هو الوضع.

- منذ متى؟

- منذ عشر سنين.

- فمع من تسكن؟

- وما شأنك أنت؟

صحت مزمجرًا كالأسد:

- ما شأني؟ أجب يا رأس الخنزير وإلا فتحت نافوخك!

- فافتحه إذن.

- مع من تسكن؟

- مع أبي وأمي.

- ومن؟

- لا أحد.

- لا أحد على الإطلاق؟

- لا أحد.

ثم أطلق ساقيه للريح.

وأصابني ذهول. كيف! لا أحد سوى هذا الخنزير ووالديه؟ فبماذا كنت أطوف إذن؟ وأي دار إذن كتبت فيها الشعر، وراقبت نوافذها في خشوع، أحفظ مداخلها ومخارجها وأحجارها حجرًا حجرًا، وأضيع وقتي على الرصيف قبالتها؟

وأصبحت من يومها لا أمر بالدار إلا بصقت تجاهها في غضب، ثم مرت الأيام، فأصبح بوسعي أن أضحك كلما مررت بها.

عندما قامت جماعة من نخبة رجال معهد التربية بتنفيذ فكرة إنشاء مدرسة نموذجية بمصر تكون بمثابة مدرسة أرستقراطية على غرار المدرستين البريطانيتين إيتون وهارو، أثار الموضوع معارضة قوية صاخبة في الصحف، وفي وزارة المعارف، بل وفي مجلس الوزراء نفسه. غير أن الجماعة مضت قدمًا في مشروعها، لا تحفل بمعارضة أو نقد، وأعلن زعيماها عن أهداف المدرسة ونظامها في صراحة وروح من التحدي خليقين بالإعجاب. فالمدرسة لن يؤمها غير أبناء الطبقة الأرستقراطية في مصر (الأرستقراطية المالية والفكرية)، ثم عدد من الطلبة من الطبقات الأخرى ممن تشهد لهم المدارس التي كانوا فيها بالنبوغ الجم. والمتقدمون بطلبات الالتحاق بالمدرسة يُجرى لهم امتحان دخول بالغ الصعوبة، فلا يقبل طلب إلا لمن اجتازه، ولن يزيد عدد الطلبة بالمدرسة بأي حال من الأحوال على مائتين، يلحق بكل فصل ما بين خمسة عشر طالبًا وعشرين، حتى يتسنى للمدرس معرفة تلاميذه معرفة وثيقة، ويتمكن من أن يمنح كل فرد منهم قسطًا وافرًا من العناية والإشراف.

فأما دروسها فتختلف اختلافًا بينًا عن الدروس في غيرها، إلا في السنوات الدراسية التي تنتهي بامتحان شهادة عامة يشترك فيه تلاميذ المدرسة مع تلاميذ المدارس الأخرى، فهي تهتم اهتمامًا فائقًا بالتربية البدنية والأخلاقية والاجتماعية. وفي الأسبوع يومان يتوجه فيهما جميع الطلبة إلى ملعب الحرس الملكي المجاور للمدرسة بحدائق القبة، ليمارسوا الألعاب الرياضية من الثالثة عصرًا إلى السابعة مساء، ثم يوم ثالث في الأسبوع للنشاط الاجتماعي، من جمعيات للتمثيل أو التصوير أو الموسيقى أو الرسم أو الكشافة، إلى النادي الإنجليزي الذي حُشدت بقاعته كتب الأدب الإنجليزي (أصلية ومبسطة)، وأسطوانات للموسيقى الكلاسيكية، يحرم على الطلبة فيه الحديث إلا بالإنجليزية، ويقوم أعضاؤه بتحرير مجلة أسبوعية بتلك اللغة. وينتسب كل تلميذ إلى أسرة من أربع خاصة بالنشاط الرياضي والاجتماعي: أسرة محمد علي (وشعارها اللون الأحمر في ملابس الألعاب)، وأسرة صلاح الدين (وشعارها اللون الأخضر)، ثم أسرة أحمس (وشعارها الأزرق)، وأسرة المعز (وشعارها الأصفر). وتتبارى هذه الأسر في مختلف أوجه النشاط، على أن تمنح كؤوس دورية لأبرزها في كل مجال على حدة.

وأما الغاية المعلنة فخَلْق طبقة من الشباب أرستقراطية الثقافة والخلق، تكون أهلًا للقيام بأعباء الدولة المختلفة فيما بعد، من سياسية وفكرية وفنية. وقد ذكر رئيس الجماعة أن «من شأن نظم هذه المدرسة أن تربي في التلاميذ الصغار حسن السلوك والاستقامة الخلقية في جميع الأوقات، في المدرسة وفي البيت وخارجهما، حتى يصبحا عادة راسخة، كما تنمي في نفوس الطلبة الكبار نزعة الاهتمام بشؤون غيرهم، وتعويدهم على تحمل المسؤوليات منذ زمن الدراسة».

لم تفلح انتقادات المنتقدين في زحزحة إدارة المدرسة عن خططها ونظمها قيد أنملة. اتهمها الشيوعيون بأنها من وحي السياسة الاستعمارية البريطانية، تربي جيلًا من الشباب ممالئًا في نزعته لإنجلترا. وعاب عليها بعض الوزراء والكُتَّاب أن خريجيها سيجدون أنفسهم أجهل الناس بالشعب المصري، وأقلهم إحساسًا بمشاكلهم، وسينمو فيهم ميل قوي إلى الانعزال، وإلى إقامة سد بينهم وبين واقع الأحوال. بينما كتب بعض الصحفيين وعدد من رجال التربية يفرقون بين النمو الطبيعي والتضخم السرطاني، ويشبهون المدرسة النموذجية بالتضخم السرطاني داخل المجتمع، إذ تسعى إلى خلق جماعة صغيرة من الصفوة، وسط بحر زاخر من جمهور الشعب منخفض المستوى في التعليم والثقافة والطباع.

فأما الانتقاد الأول (بأن فكرة المدرسة كانت بإيعاز من بريطانيا)، فإني أميل إلى رفضه. وأما الانتقادان الثاني والثالث، فقد ثبتت صحتهما وبُعد نظر القائلين بهما إلى أبعد الحدود. لقد تركت المدرسة في نفسي وفي نفوس غالبية زملائي أثرًا لا يُمحى. وطويلة شاقة هي السنوات التي قضيناها بعد التخرج منها في محاولة الاندماج في المجتمع حولنا ومسايرته وفهمه، وفي محاولة تنمية الاهتمام بالأوضاع السياسية والتحمس لاتجاه دون اتجاه. كنا - ولا نزال - جزيرة في محيط، وهو وضع لا يزال مصدرًا هامًّا لصنوف التعاسة الحادة، والسعادة العظيمة لنا. ثم جاء سفري إلى إنجلترا للعمل والدراسة، فالتحاقي بالسلك الدبلوماسي واضطراري إلى الإقامة في الخارج من جديد لسنوات عديدة، جاءا يقضيان على البقية الباقية من القدرة على الاندماج والتأقلم.

فالمدرسة النموذجية إذن هي ثاني أهم العوامل في تكويني بعد والدي.

التحقت بها أنا وأخي جلال وصديقي ممدوح مصطفى عبد الرازق (سفير مصر الآن في يوغوسلافيا)، فما لبثنا أن شعرنا بعد شهرين أو ثلاثة بأن طلبة هذه المدرسة في جانب، وطلبة باقي مدارس القطر في جانب آخر. لم تكن لتجد بيننا من يدخن، أو من يغازل الفتيات في الطريق، أو من يتفوه بألفاظ فاحشة بذيئة، أو من يفكر في التشويش على مدرس. فهنا أبناء الوزراء، ورئيس الوزراء، وشيخ الأزهر، ورئيس الديوان الملكي، وسفرائنا بالخارج، وكبار رجال التربية، ومشاهير الأطباء والمهندسين والأدباء. وهنا مدرسون من طراز مختلف، جميعهم من معهد التربية، والكثيرون منهم حاصلون على شهادة الدكتوراه في التربية من إنجلترا أو الولايات المتحدة. فإن بدر عن أحد الطلبة أدنى إخلال بالنظام وقواعد السلوك، كان استنكار الزملاء حوله رادعًا له عن أن يكرر إخلاله. ثم هذا سيف الرفت مصلت على رقاب الجميع، على أتم أهبة لأن يهوي في أية لحظة ولأهون الأسباب، دون اعتبار لمركز الأب. ثم أنَّى لنا أن تنتقل إلينا عدوى سوء السلوك من الغير، أو أن نأخذ عن طلبة المدارس الأخرى فاحش الألفاظ وسقيم العادات، وساعات الدراسة والرياضة البدنية والنشاط الاجتماعي تكاد تمتد يوميًّا إلى غروب الشمس، فلا تترك لنا فائضًا من قوة أو وقت؟

لا عجب إذن أن يُكن لنا طلبة المدارس الأخرى عداء ما بعده عداء، وكراهية مُرة، مع تظاهر منهم باحتقارنا تظاهرًا أملاه الحقد والحسد. وإذ كان لتلاميذ مدرستنا زي موحد، فاقع اللون، يميزنا من على بعد مائة ياردة، فقد كان تلاميذ المدارس كلما لمحونا في ستراتنا الأرجوانية في الطريق عدوا خلفنا كي يمطرونا بوابل من السباب حينًا، ومن اللكمات حينًا، وهو موقف سرعان ما أشعرنا بقوة بأن لنا وضعًا خاصًّا، وأننا من عجينة خاصة، ما دامت مدارس العاصمة قد وجدت داعيًا للتحالف ضدنا.

غير أن هذه الكراهية كانت تبدو على أشدها في أوقات الأزمات السياسية وإضرابات المدارس. ذلك أن مدرستنا لم تكن لتشترك في إضراب قَطُّ، فقوانين المدرسة صارمة في هذا الصدد، وتلاميذها ليسوا من الصنف الذي يجيد خطابة أو هتافًا أو سيرًا في مظاهرات في الطريق. زد على ذلك أن آباء التلاميذ كانوا عادة من الذين يوجه الإضراب ضدهم. فها نحن نصغي في فصولنا إلى الطلبة في الشارع يهتفون ضد حافظ عفيفي رئيس الديوان الملكي، أو محمود فهمي النقراشي رئيس الوزراء، وبيننا في الفصل ابنان للأول، وابن للثاني. وكثيرًا ما كان طلبة مدرسة القبة الثانوية - بحكم قرب موقعها من مدرستنا - يمرون أثناء تظاهرهم على مدرستنا يحاولون «إخراجنا» وإشراكنا فيما هم فيه، يصيحون بنا أن «الوطنية فوق العلم»، وأن «يحيا تضامن الطلبة». فنراقبهم من فناء المدرسة في وجوم وصمت، لا ننبس ببنت شفة، ويراقبوننا هم من الشارع في غضب واشمئزاز. وكان الجرس يدق قبل موعده في مثل تلك الظروف يدعونا إلى فصولنا، فنمضي إليها بقلوب ثقيلة منقبضة، لا لأننا كنا راغبين في «التضامن» مع الطلبة، وإنما لكراهتنا أن نُتهم في وطنيتنا ورجولتنا. فكان المدرسون يهدئون حزننا وقد فطنوا إلى ما بنا، فيحدثوننا عن كيف أن الوطنية الحقة هي في الدراسة والتسلح بالعلم، لا في السير هاتفين في الشوارع أو في قذف الطوب، وكيف أن المستعمر نفسه يسره أن يخرج الطلبة المصريون في مظاهرات حتى تضعف حصيلتهم من العلم، وحتى نظل على حالنا أمة متخلفة، وكيف أنهم، أي المدرسين، على أتم استعداد لأن يكونوا أول من يعرض نفسه لرصاص الإنجليز لو كان للتظاهر مبرر حقيقي، ونتيجة فعالة. «أما هؤلاء الأوباش فغرضهم الأكبر هو الخروج من المدرسة، وإثارة الشغب حينًا، ثم التوجه إلى دور السينما بعد ذلك». فكانت هذه الأقوال منهم تهدئنا، فنعود بعدها إلى الالتفات للدرس. أما طلبة القبة، فكانوا إذا رأونا نعود إلى الفصول دون أن نتجاوب معهم، يستمرون في الصياح دقيقة أو دقيقتين، يشتموننا ويلعنون آباءنا ويطعنون في وطنيتنا، ثم ينصرفون بعد أن يكونوا قد غيروا بالطباشير من المكتوب على اللوحة النحاسية عند باب المدرسة، فإذا بها:

«المدرسة النموذجية الثانوية... للبنات»!

كان أهم أثر للمدرسة النموذجية في شخصيتي هو الأثر التالي: إذ بينما كانت الزعامة التي

استطعت انتزاعها في مدرسة «مصر الجديدة» زعامة سهلة، كانت كفيلة بأن تجعلني أرضى بالسيطرة الزائفة التي لا قيمة لها، وتبشر بأن أصبح في المستقبل زعيمًا سياسيًّا دجالًا أو شيئًا من هذا القبيل. كان للنموذجية أثرها في تنمية احتقاري للانتصار السهل، وتوجيه اهتمامي كله إلى تهذيب النفس وتقويمها وتثقيفها ثقافة حقيقية دسمة. كنت في مدرسة «مصر الجديدة» عريفًا وزعيمًا لتلاميذ لم يربط بيني وبينهم، عدا ممدوح عبد الرازق، صداقة قَطُّ، ولم أشعر في يوم من الأيام بأني زميل لهم. أما هنا في النموذجية، فالجميع زملائي، قد نشأت بيني وبين عدد منهم صداقات لا تزال قائمة إلى اليوم. ومجال التفوق مفتوح دون فرصة للتهريج وفرض السيطرة، تفوُّق في الدروس أو الألعاب الرياضية أو التمثيل أو الأدب أو ما شئت. ونظام الامتحانات والدرجات هنا غير معروف. والشهادات تقتصر على ذكر الملاحظات، والترتيب فيها راجع إلى تقدير المدرسين. وقد ظل ترتيبي هنا الأول كما كنت، غير أن هذا لم يعُد الآن مهمًّا كما كان. يكفي أن تذكر الشهادة أن شخصيتي «تسير نحو التكامل بخطى سريعة ثابتة»، أو أن في أخلاقي وتصرفاتي «رجولة يحمد عليها»، حتى أرضى وأطمئن. فهنا في هذه المدرسة وأدْتُ طموحي إلى الشهرة والمجد، وأصبحت على استعداد لقبول فكرة أن أكون قديسًا غافل الذكر، أو أديبًا ممتازًا لا يقرأ كتاباته أحد. فإن جاءت الشهرة بعد ذلك، فأهلًا بها وسهلًا.

* * *

غير أن هذا التطور في شخصيتي لم يأتِ إلا تدريجًا، وبعد عام أو عامين من الدراسة في المدرسة النموذجية.

التحقت بها مجهولًا من المدرسين والطلبة، فكان عليَّ أن أبدأ من جديد. وقد كانت معاملتهم إياي في الأيام الأولى (معاملة الفرد العادي)، تسبب لي الألم واللذة في آنٍ واحد: الألم لجهلهم ماضيَّ، واللذة لثقتي من أن تصرفًا على إثر تصرف يصدر عني، هنا سوف يُبنى من جديد صرح سمعتي السالفة، فأثبت أن الشخصية الممتازة لا بد فارضة نفسها على ما حولها أينما حلت:

«He sings each song twice over,

Lest you should think he never could recapture,

The first fine careless rapture!».

وقد كان من بين الحوادث الأولى التي لفتت إليَّ الأنظار بالمدرسة، الحادث التالي: كان زوج أختي، وهو المرحوم الدكتور عبد العزيز عتيق، شاعرًا. وكانت له إلى جانب دواوينه، عدة كتب مطبوعة تتضمن تمثيليات شعرية طويلة، كتبها لطلبة المدارس الابتدائية والثانوية، بالاشتراك مع صديق عمره المرحوم سيد قطب، وهو الذي كان قد أشار عليه بالتقدم لخطبة ابنة أحمد أمين. وكان عتيق يعدني أحيانًا بمبلغ خمسين قرشًا عن كل تمثيلية طويلة أحفظها من تمثيلياته. فما أسرع ما كنت أحفظها وأسمِّعها له!

وقد حدث خلال السنة الأولى من دراستي بالمدرسة النموذجية، أن أعلن مدرس العربية أنه قد اختار لفصلنا تمثيلية «صقر قريش عبد الرحمن الداخل» لتمثيلها في حفل نهاية السنة الدراسية، وهي إحدى تمثيليات عتيق وقطب التي كنت قد حفظتها. ثم قال إنه سيقرأها علينا أولًا، ثم يوزع الأدوار. وإذ بحث في أوراقه عن الكتاب ليقرأ منه، تبين أنه نسيه في حجرة المدرسين، فأمر أحد الطلبة بأن يحضره من مكتبه. غير أني أسرعت بالوقوف لأعلن بلهجة غير المكترث أنه لا حاجة لإحضارها، نظرًا إلى أني أحفظها برمَّتها.

- تحفظ ماذا برمَّتها؟

- التمثيلية.

- تمثيلية «صقر قريش»؟

- نعم.

- تحفظها كاملة؟

- نعم.

وحدجني المدرس والطلبة بنظراتهم، بينما ثبَّت عينَي على القمطر أمامي.

- فلنسمعها منك إذن.

- الفصل الأول: يُرفع الستار عن عبد الرحمن الداخل جالسًا مطرقًا محزونًا في حجرته. يدخل عليه خادمه بدر.

عبد الرحمن: إيه يا بدر، ما وراءك؟ قل لي! هاتِ، قص الأخبار في صدق قول! هاتِها، هاتِها على أي شكل.

بدر: ماذا أقول وقد غدونا في الحياة مهدَّدينا! من معشر نقضوا العهود وأصبحوا في الغادرينا!

عبد الرحمن: نقضوا العهود؟

بدر: أجل، وصاروا يقتلون ويظلمونا...

وعهد المدرس إليَّ دون تردد بدور عبد الرحمن، إلى جانب مهمة الملقن لسائر الممثلين.

وقد كانت اللذة القصوى التي خبرتها ذلك اليوم إزاء اندهاش الطلبة والمدرس، منشطة لرغبتي في إدهاش من حولي بسعة علمي. وكان لزوج أختي الفضل الأكبر في مساعدتي على تحقيق هذه الرغبة وتوجيهها الوجهة السليمة. فكان إذا عرف مني الموضوع الذي يتناوله الدرس التالي، سواء في التاريخ أو الأدب أو غيرهما، جلسنا معًا في الأمسية السابقة، لا لاستذكار الدرس فحسب، بل للنظر أيضًا في المراجع المطولة في مكتبة أبي. فإن كان الدرس التالي في التاريخ عن سقوط الدولة الأموية، وتأسيس الدولة العباسية، قرأنا في هذا الموضوع في فجر الإسلام وضحاه. وإن كان الدرس التالي في اللغة العربية في المعلَّقات السبع، حدثني عتيق عن خلف الأحمر وحماد الراوية، وعن احتمال أن يكون الكثير من الشعر الجاهلي - كما ذكر طه حسين في كتابه الشهير في الموضوع - قد وضعه الرجلان في بداية العصر العباسي ونسباه إلى الشعراء الجاهليين، ثم عن فائدة هذا الشعر الموضوع مع ذلك في التعرف على أحوال العرب قبل الإسلام. فكنت إذا حل وقت الدرس؛ أتحين الفرص للإدلاء أثناءه بما أكون قد حصلته من معلومات، وإنشاد ما أكون قد

حفظته في الليلة السابقة من قصائد. ولا أزال أذكر التعبير على وجوه الطلبة ومدرس الدين حين فرغ من قراءة خطبة جعفر بن أبي طالب أمام نجاشي الحبشة، فقمت أسرد البراهين التي وردت في كتاب أبي «فجر الإسلام» على أن هذه الخطبة لا بد أن تكون منسوبة كذبًا إلى جعفر، ومنها أنه قد ورد بها ذكر الصيام الذي لم يُفرض على المسلمين إلا بعد مرور سنوات طويلة على المناسبة التي يزعمون أن هذه الخطبة قد ألقيت فيها.

قال المدرس مرتبكًا وقد ساءه أن يتشكك الطلبة في قيمة الخطبة بعد الذي سمعوه:

- هذا جائز، ولكنها مع ذلك قيِّمة في حد ذاتها، إذ توضح لنا حال المسلمين في ذلك الوقت، وما لاقوه من أذى الكفار، وطريقة استمالتهم لنجاشي الحبشة.

قلت:

- هذا حق.

ثم جلست، وطفق المدرس يرمقني بعدها صامتًا بعض الوقت، لا يدري أيهنئني على ما فعلت، أم يفترسني افتراسًا.

وجاء إذ كنت في الثانية عشرة يوم عيد، وقع فيه حادث كان له أثر مفاجئ في حياتي استمر قرابة عامين: كانت لي ابنة عمة في الخامسة عشرة تُدعى نعيمة. كانت جميلة براقة العينين، تفيض ذكاء وحيوية وصحة ونشاطًا. لم يكن بوسعها، إن جاءت لزيارتنا مع أمها، أن تجلس في مكانها دقيقتين متواليتين. فكانت تنتحل عذرًا أو آخر حتى تخرج من الصالون، وتدخل علينا حجرة المكتب، لا نكاد نتهيأ للنهوض لمصافحتها حتى نجدها قد أقفلت كتبنا وكراريسنا في مثل لمح البصر، وهرعت نازلة إلى الحديقة دون أن تلتفت خلفها، واثقة من أننا سنتبعها على الفور. وفي الحديقة كانت تتولى دون منازعة مكان الزعامة في ألعابنا، على الرغم من حضور من يكبرها في السن بين إخوتي. فهي التي تأمر وتنهى، وتقترح الألعاب، وتختار أعضاء الفريقين، وهي التي يُحتكم إليها في أمر كل من يتهم بالغش أو الخطأ. فإن عبرت عن رغبتها في عنقود عنب، تسابق الصبية منا يصعدون التكعيبة لتلبية طلبها. والغريب أنه على الرغم من أنها كانت نادرًا ما تضحك (بالعكس، كان وجهها يكاد يكون دائم التقطيب)، فقد كان مجرد وجودها كفيلًا بأن ينشر بيننا جوًّا من المرح والسعادة والحيوية الزائدة. ثم حدث أن زارتنا الفتاة مع أختها الكبرى يوم وقفة عيد الأضحى. واتفقنا، أخي أحمد وأنا، مع الفتاتين على أن نلتقي قرب موقف المترو بشارع عماد الدين في الساعة التاسعة من صباح العيد للذهاب إلى السينما معًا. وفي صباح ذلك اليوم المشؤوم، كنت وأحمد في الانتظار على الرصيف المواجه للموقف، حين شاهدنا نعيمة وأختها في القطار القادم تستعدان للنزول... لم يكن القطار قد وقف بعد، وكان سلم النزول في غير الجانب المواجه للرصيف الذي كنا عليه. وإذ التفت إلى أحمد أعيد عليه رجائي أن نذهب إلى فيلم «أحدب نوتردام» بدلًا من فيلم «شبح الأوبرا» الذي اقترحه، إذا بنا نسمع صرخة نسائية مدوية، وصيحات رعب من الركاب والمارة عند الجانب الآخر من القطار، وزمارة المحصل تصرخ منبهة السائق أن يتوقف. وإذا حشد من الرجال قد تجمع قرب السلم، قد انحنوا على شيء عند العجلات.

صاح أخي بي في حدة:

- قف هنا مكانك وإياك أن تتحرك، أتسمع؟

ثم عدا يعبر الطريق، بينما تسمرت في مكاني أرتعد. كان يقصد بطبيعة الحال ألا أتبعه إلى قطار المترو حتى لا أشاهد الحادث ومن سقط فيه. غير أن رغبة مخالفة تمامًا كانت تعتمل في نفسي في تلك اللحظة: الرغبة في أن أفر في الاتجاه المضاد. كنت أشعر دائمًا بأني لو تجنبت الأزمة، أية أزمة من الأزمات، وتغيبت عن مكانها مدة كافية، لوجدتها عند عودتي قد حُلت حلًّا مرضيًا، أو خفت وطأتها على الأقل... والتفت إلى اليسار، فشاهدت القطار المتجه إلى مصر الجديدة يغادر المحطة، فإذا بي أعدو حتى أبلغه، فأقفز فيه.

قلت لنفسي وما زلت ألتقط أنفاسي: «سيعود أحمد إلى البيت في الثانية، فيسألني موبخًا أين اختفيت وقد طلب مني الانتظار، ويخبرني أنه بعد البحث عني توجه إلى السينما مع نعيمة وعائشة، ثم يثني على فيلم «شبح الأوبرا» ويقص عليَّ قصته، ونجلس إلى الغداء كالعادة. سأشعر حينئذ ببعض الندم إذ قد ضاعت عليَّ نزهة الصباح. غير أن الفرح بأن كل شيء على ما يرام، سيكون أضعاف الندم». غير أن كل شيء لم يكن على ما يرام. عاد أحمد في الواحدة. سمعته وهو يصعد السلم يسأل الخادم عني، فأجابه بأني قد عدت. فلما دخل الصالة ورآني قابعًا في ركن منها في خجل، ألقى عليَّ نظرة غاضبة، ثم دلف إلى حجرة أبي دون أن يوجه إليَّ كلمة.

وشاع الخبر بعد لحظات: لقد سقطت نعيمة تحت عجلات القطار وقطعت ساقاها.

* * *

لم أرَ نعيمة بعد ذلك اليوم قَطُّ، على الرغم من أنها عاشت بعده نحو عشر سنوات. غير أن القصص والشائعات التي تواترت إلينا عنها طوال تلك المدة لم تكن تعرف حدًّا: ذكر لنا أنها ما سُمح لها بالعودة من المستشفى إلى بيتها حتى اختارت لنفسها غرفة منعزلة منه، لازمتها ملازمة أبي العلاء داره، لا تخرج منها أبدًا، ولا تسمح بدخولها إلا لأمها وإخوتها. كانت النوافذ دائمًا مغلقة، لا تريد لضوء النهار أن ينير ما بالداخل. بل قيل لنا إنها ظلت مدة عامين تأبى النوم على السرير، وتنام على الأرض في قميص رفيع صيفًا وشتاء. وقيل إنها لم تكن تسمح لأحد أن يكنس الغرفة، وإنها كانت تجمع التراب وتحافظ عليه محافظتها على شيء ثمين. وقد رفضت قبول الكرسي ذي العجلات الذي جاءها والدي به. ثم وصل إلينا أنها أصيبت بالسل، وأنها قبلت بعد إلحاح أمها وبكائها أن تستخدم السرير في النوم، وأن تلبس الصوف. وشاع الاعتقاد في العائلة بأن الفتاة قد جُنت.

وتمر سنوات تسع، فإذا بأبي وقد وصلته في يوم من الأيام رسالة طويلة من نعيمة، يدفعها إلينا لقراءتها وهو يهز رأسه في عجب. كانت الرسالة من أربع عشرة صفحة، كُتبت بخط أنيق جميل، ولم يرد بالرسالة كلها (وهي بالعربية الفصحى) خطأ نحوي واحد. كانت عبارة عن نقد شامل لمؤلفات والدي في مجموعها، لأسلوبه ومنهاجه في التفكير وطبيعة الموضوعات التي اختار أن يكتب فيها، نقد جميل لا يخلو من عمق، ولا توحي أية جملة منه برغبة في إطراء أو إيلام. أذكر منه:

> «عرضت تطور الحياة العقلية للمسلمين في كتبك الأولى - وهي كتبك التي سيقدَّر لها البقاء في رأيي - فاستطعت أن تفرض نفسك على الحياة العلمية فرضًا، وأن تصبح ثقة في تاريخ الثقافة الإسلامية... غير أنك أخطأت في تقدير قواك وطبيعة مواهبك، فظننت أن باستطاعتك أن تنتج في كل شيء، وأن تسيغ كل شيء، كما أسغت تاريخ الفكر الإسلامي وحضارة العرب. وهأنت اليوم تكتب فيما ينبغي ألا يكون لك به شأن، فأصبحت

كتاباتك لا تطفئ ظمأ ولا تشبع نهمًا، تاركًا شمس كتبك الخالدة، فجر الإسلام وضحاه وظهره، معلقة في السماء، تريد لها أن تكمل دورتها...».

ورد عليها أبي معتذرًا:

«... لقد كان في نيتي أن أسير في السلسلة عصرًا فعصرًا إلى يومنا هذا. ولكن شاء القدر أن أصاب في نظري بما جعل الأطباء يحرمون عليَّ كثرة القراءة، وخصوصًا في الليل. والاستعانة بالغير لا تكفي. فقد كنت أستطيع أن أتصفح الكتاب الكبير في ساعات، فأقف منه على ما يلزمني وما لا يلزمني. أما قراءة الغير فلا تجزي هذا الإجزاء. لذلك وقفت عن العمل في تلك السلسلة، وبدأت أؤلف كتبًا أساسها تجارب ومطالعات سابقة مما ادخر في الذهن على توالي الأيام...».

ومن يومها بدأت بين أبي ونعيمة مراسلات تكاد تكون أسبوعية. أخبرنا أهلها (حين ذكرنا لهم رسائلها)، أنها لم تنقطع طوال السنوات السابقة عن القراءة، تنفق على الكتب ما يخصصه لها أبي من مصروف شهري، وأنها قد باتت تتقن العربية والفرنسية إتقانًا تامًّا. ولم تكن تقتصر في رسائلها على الحديث في الكتب، فكانت تتحدث كثيرًا في الجنس، موردة آراءها في الزواج والحب، دون أدنى إشارة إلى نفسها. وقد كانت آراؤها في غير الكتب ساذجة في تحمسها، سطحية في مثاليتها. وأخبرتنا أمها بعد أشهر أن تَراسلها مع أبي كان له أثر طيب في رفع روحها المعنوية، وأن فكرة الخروج من غرفتها إلى العالم، وأن تنشر بعض ما تكتب في مجلة والدي «الثقافة»، بدأت تخامر ذهنها.

ثم جاءنا أنها خرجت، وأنها أصيبت في الطريق بنوبة قلبية، ماتت على إثرها.

* * *

لا أستطيع القول إن الألم الناتج عن حادث سقوط نعيمة تحت عجلات القطار كان كافيًا لتبرير ما طرأ على تفكيري وأسلوب معيشتي من تغير جوهري. لقد هزتني مأساة الفتاة، وكنت أحب صحبتها. غير أن الحادث وحده لا يفسر ذلك التدين العنيف المتطرف الذي بدأ معي بعده بيوم واحد، واستمر عامين، والذي ترك وراءه حين خفت حدته آثارًا لا رجوع فيها.

كانت الحالة أقرب إلى الهوس الديني منها إلى التدين.

بدأت فجأة في أداء الصلوات الخمس في أوقاتها وعلى نحو منتظم. ثم قرأت أن هارون الرشيد كان يصلي مائة ركعة في اليوم الواحد. وإذ كنت أسمع دائمًا من والدي عبارات الإزراء بهارون الرشيد، قلت لنفسي إنني لست دونه، فأخذت في الصلاة مائة وعشر ركعات في اليوم. فإن تبقى لي من الوقت بعد المدرسة والمذاكرة والصلاة ما يسمح بالقراءة، أقبلت على تلاوة القرآن وصحيحَي البخاري ومسلم وقصص الأنبياء وسير الصحابة والتابعين، مستبعدًا ما كنت شديد الشغف به من روايات جرجي زيدان ونجيب محفوظ. واطلعت أثناء قراءتي في التاريخ الإسلامي على قصة

حرق مكتبة الإسكندرية، واتهام بعض المؤرخين الأوروبيين لعمر بن الخطاب بأنه هو الذي أمر بإحراقها، «وإذ كان يعتقد أن القرآن قد تضمن كل شيء». وعلى الرغم من أن ما قرأته كان دحضًا لهذا الاتهام، فإن فكرة إحراق الكتب راقتني. فإذا بي في بعض الأحيان - وإن لم تكن أحيانًا كثيرة - أستل من مكتبة والدي بعض ما أعرف من الكتب أنه يتضمن أفكارًا إلحادية، ومن مكاتب إخوتي بعض المجلات التي تحوي صورًا لنساء في ملابس البحر، وأتسلل بها إلى سطح المنزل، أصب عليها نقطًا من الجاز، ثم أشعل النار فيها متمتمًا ببعض الآيات القرآنية.

تميزت شخصيتي خلال تلك الفترة بالقتامة الكئيبة والجدية المفرطة، لا أعرف مرحًا أو ضحكًا أو لهوًا. وعُرفت أثناءها بثقل الدم الشديد. فما من موضوع يُفتح أمامي إلا حولته إلى الدين، وذكرت حكم الشرع فيه، وما قد يكون للنبي من حديث بصدده. وما من سلوك يبدر من أحد إخوتي أخال فيه تعارضًا مع الدين إلا حاولت أن أقومه بلساني أو بقلبي. وقد ضج إخوتي في النهاية مني، ومن سعيي إلى هدايتهم إلى الطريق القويم. فتحول صبرهم عليَّ إلى سخرية مني، ملقبين إياي هازئين بـ«الشيخ حسين». وكلما شعروا بأنني في سبيل الوعظ صاحوا:

- اللهم اجعلنا من بركاتك يا سيدنا الشيخ!

فكانوا بذلك يفلحون في إسكاتي، وأراني أستعيد وقتها في ذهني ذكرى صبر النبي على ما لاقاه من أذى المشركين من قريش.

في الليل، حين آوي إلى فراشي الذي أشارك فيه أخي أحمد، كنت أتمتم مدة طويلة بعدد من الآيات القرآنية بصوت خفيض، فلا يسمع منها غير «بسبسبسبس»، فيصيح بي أحمد حين يبلغ به الضجر مبلغه:

- كفاية بسبسة، الله يقلب دماغك!

ويصحب طلبه بركلة قوية من قدمه أو ضربة بركبته. فإن لم أسكت قام مزمجرًا إلى أبي يرجوه أن يأمرني بالسكوت. وأسمع صوت أبي من الصالة يهتف بي:

- نم يا حسين!

فأتردد عندئذ بين الطاعة وبين عدم إطاعة الوالدين فيما يأمراني به مما يخالف الدين، ثم أطيع.

* * *

قضينا صيف أحد هذين العامين بالإسكندرية في شقة من عمارة كان أصحابها يسكنون الطابق الأول. كانت العائلتان تتزاوران يوميًّا، وقد نشأت بين فتيات عائلة المؤجر وشبان عائلة المستأجر علاقات وثيقة، كان والد الفتيات يغض عنها - أو لعله كان يشجعها - على أمل أن تنتهي أشهر الصيف بزواج. فأما الأرجح، فهو أن إخوتي لم يستمتعوا بصيف استمتاعهم بذلك الصيف. وأما المؤكد، فهو أني لم أخبر من العذاب ما خبرته فيه. هُيِّئ لي أن المكان أشبه ببابل مصغرة: الفتيات

ما بين صاعدة تجري، وهابطة تعدو، هذه تلبس «الشورت»، وتلك يهتز ثدياها اهتزازًا عنيفًا مع كل سلمة تهبطها، وثالثة تلبس «بلوزة» لا تدري ألبستها للستر أم للكشف. وكان شعوري إزاء ما أرى شعورًا مختلطًا: فأنا أطيل النظر إلى «البلوزة» ما في ذلك شك، وإلى الصدر يعلو ويهبط عند نزول صاحبته الدرج، بدليل ما أردده بعدها في السر من دعاء. غير أن نومي كذلك قد بات مضطربًا، أظل أتقلب من جنب إلى جنب حتى أسمع أذان الفجر فأقوم للصلاة.

دخلت عليَّ يومًا إحدى هؤلاء الفتيات الصالة، فوجدتني أجلس إلى النافذة مقطبًا، وفي الصالة ابن خالة لي. قالت له الفتاة:

- تراهنني أنني سأجعل ابن خالتك هذا يبتسم؟

أجاب ضاحكًا:

- أراهنك!

فأخرجت من حقيبة يدها إصبع «روج»، وفتحته، وسارت به إليَّ تريد أن ترسم به على وجهي. وعلى الرغم من أني ابتسمت من قبل أن يلمس الإصبع وجهي، رافعًا يدي لمنعها، فقد صممت على تنفيذ ما أرادته وانحنت بجسمها كله عليَّ تتظاهر ومحاوِلة التغلب على مقاومتي... احمر وجهي، وانتفض جسمي انتفاضات سريعة من الاضطراب، غير أني تمنيت في نفس الوقت أن يطول الصراع المصطنع. وأحست هي باضطرابي فزادها ذلك إلحاحًا. ثم إذا بي وقد صدرت مني حركة عنيفة لم تكن الفتاة تتوقعها، فإذا بها تتعثر إلى الخلف، وتسقط على الأرض سقطة ارتطم لها رأسها برجل كرسي رطمة قوية، فقامت ممسكة رأسها بيدها، وأدبرت خارجة تلعن غاضبة محنقة.

حتى تخيلي للجنة التي كنت سأدخلها يوم القيامة، لم يكن يخلو من العنصر الجنسي. فالحور العين هن أول ما يقفز إلى مخيلتي، لا يفوقهن في الأهمية غير رضا الله عز وجل. فإن قرأت في تاريخ الأمويين والعباسيين وقررت في نفسي أن أدعو الناس حين أكبر إلى العودة إلى ذلك النمط من الحياة الذي عرفه السلف الصالح، وجلست أتخيل هذه العودة لو تمت، كان أول ما يتبادر إلى ذهني صورة الجواري في ثياب فضفاضة شفافة وأوضاع ساحرة خلابة، بينما أجلس بينهن على الحشايا أستمع إلى غنائهن وعزفهن.

وتطورت الحال معي إلى الوسوسة والخزعبلات. أضع في فمي قطعة من الحلوى، فلا أكاد أذوقها حتى يهتف بي هاتف أن الله يريدني أن ألقيها من فمي. وأسير في الطريق فأقول في نفسي إن الله يريدني أن أدور حول هذا العمود أمامي ثلاث مرات، فأفعل دون أن أعبأ بما قد يظنه فيَّ المارة من خبل. وأدخل السينما فلا يكاد الفيلم يبدأ حتى أتوهم أن الله لا يريدني أن أشاهد هذا الفيلم، فأغمض عينَي وأحني رقبتي حتى يظن الجالس إلى يساري أني مريض فيعرض مساعدته عليَّ.

وقد أعارني أحدهم خلال ذلك الصيف كتابًا يحوي عددًا من الأحاديث الموضوعة المنسوبة إلى النبي! كان غذاء جديدًا من الخرافات.

واضطر أبي في النهاية إلى التدخل حين رأى حالي تتطور من التدين إلى الهوس، فنحى كتبه وكراساته ليخصص الساعات الطوال لإقناعي بأن ما أنا فيه ليس من الدين في شيء، ويسرد القصص عن سماحة الرسول ومرونته وسعة أفقه.

في السينما، كنت أغمض عينَي دائمًا عند مناظر القبلات وما شابهها، عدا مرة واحدة (كانت في أواخر العام الثاني من ذلك الطور) أثناء فيلم «فتى من بروكلين» لداني كاي، لم أستطع أن أحول بين نفسي وبين الحملقة أكثر مما ينبغي في بطلة الفيلم، حملقة أشعرتني لأول مرة بقرب تصدع البناء الذي استغرق عملي فيه نحو عامين.

عندما اكتشفت جماعة منا بالمدرسة الابتدائية شيئًا اسمه الشفرة، فكرنا في تكوين جمعية سرية نستخدم الشفرة فيها. وإذ إنه ما من حاجة إلى استخدام الشفرة في جمعية موالية للحكومة، فقد قررت جمعيتنا أن تكون مناهضة لها. وقد اجتمع خمسة من التلاميذ، كنت أحدهم، في غرفة بمنزلنا خافتة الإضاءة (تعمدنا أن تكون خافتة الإضاءة لتكرار استخدام الصحف في ذلك الوقت لعبارة «الذين يعملون في الظلام»، وهي عبارة ألهبت مخيلتنا دون أن نفهم معناها بدقة). فوضعنا في الجلسة الأولى رموزًا للحروف، ودونها كلٌّ منا في مفكرة جيب صغيرة، وفي الجلسة الثانية قواعد اختيار الرئيس والوكيل وأمين الصندوق وانتخابهم في اقتراع سري، وحلفنا في الجلسة الثالثة يمين الولاء للجمعية أمام الرئيس، وحددنا قيمة الاشتراك الشهري ثلاثة قروش.

فأما الغرض الأساسي للجمعية فقلب نظام الحكم بالقوة، وإجبار الملك فاروق على التنازل عن العرش، والاستيلاء على أمواله، وطرده هو وأمه وأخواته من البلاد، مع منحهم مرتبات شهرية كافية. وقد اقترح أحد أعضاء الجمعية إعدامهم (أو إعدام الملك على الأقل). غير أننا أقنعناه بضرورة ضبط النفس، لتجنب الظهور بمظهر سفاكي الدماء. وناقش المجتمعون شكل نظام الحكم الجديد: جمهورية أم ملكية مستنيرة. وقد كنت أميل إلى إعلان ملكية مستنيرة (لغرض خفي في نفسي لم أفصح عنه)، غير أن الباقين أيدوا شكل الجمهورية. فأما عن الوسائل التي ستتبناها الجمعية في سبيل تحقيق أهدافها، فكتابة المنشورات (بخط اليد إلى حين التمكن من شراء آلة كاتبة)، ووضعها سرًّا في صناديق البريد بالعمارات التي نسكنها أو نزورها، وكتابة شعارات «يسقط الملك» و«تحيا الجمهورية» على حيطان دورات المياه بدور السينما وما يشابهها (أي يشابه دور السينما)، ومحاولة إقناع من نتوسم فيه الخير، والروح الثورية، وحب الوطن، بوجوب العمل على إسقاط الملكية، مع التزام الحيطة والحذر حتى لا نضع ثقتنا فيمن ليس أهلًا لها. كما تعهد ثلاثة منا كتابةً بالالتحاق بعد إتمام الدراسة الثانوية بالكلية الحربية، لضمان تأييد الجيش للثورة ووقوفه خلفها، أو إقناعه، على الأقل، بالامتناع عن التدخل.

كان الاجتماع الرابع مخصصًا لدراسة النظم التي نريد تطبيقها عقب التخلص من الملك. وقد واجهنا هنا صعوبة لم نواجه مثلها وقت وضع الشفرة وانتخاب مجلس الإدارة، فمعلوماتنا ضئيلة في هذا الصدد، والقول بوجوب تحقيق عدالة اجتماعية في ظل النظام الجديد، والقضاء قضاء مبرمًا على الفقر والجهل والمرض، لم نجده، مع صغر سننا، كافيًا. فقد كانت تتناهى إلى أسماعنا، وتقع تحت أبصارنا، عبارات شتى عن الشيوعية والرأسمالية واشتراكية إنجلترا واشتراكية الإسلام، فهمنا من مجموعها فهمًا غامضًا أن العدالة الاجتماعية هنا، ظلم اجتماعي هناك، وأنه قد أصبح من المضحك أن يطالب المرء بالعدالة الاجتماعية على إطلاقها، دون أن يحدد أي نمط منها

يريد. ولم يكن يعقل أن تتخذ جمعية سرية من الرأسمالية مبدأ لها، لذلك ترددت الجماعة في اجتماعها الرابع هذا بين الشيوعية واشتراكية إنجلترا. أراد اثنان منا اشتراكية إنجلترا، غير أن ما كنا نقرأه في الجرائد في ذلك الحين عن ضبط خلايا شيوعية، واتهام أفرادها بحيازة المطابع السرية وتوزيع المنشورات، مال بالثلاثة الآخرين إلى اختيار الشيوعية، فأقررناها مبدأ للجمعية. وكان نصيرا اشتراكية إنجلترا من الأدب وسلامة الذوق بحيث رضخا لقرار الأغلبية، ولم يتعنتا في التشبث برأيهما.

وبدأنا نجمع المعلومات عن الشيوعية، فالفكرة الوحيدة في رؤوسنا عنها هي أنه ليس في النظام الشيوعي غني أو فقير، وأن الكافة متساوون في الداخل. وهي فكرة لا تكاد تكفي وحدها لوضع أنظمة ومجموعات قوانين أو حتى لدستور. وإذ كنت أعلم أن أحد أصدقاء والدي، وهو المرحوم مفيد الشوباشي، شيوعي، فقد انتهزت فرصة مقابلتي له في أحد الاجتماعات الأسبوعية للجنة التأليف والترجمة والنشر، وسألته عن خير كتاب في الشيوعية يوصي بقراءته. أجاب بلا تردد:

- رأس المال لكارل ماركس!

واشتريت في اليوم التالي ترجمة الدكتور راشد البراوي للكتاب، وجلست متلهفًا لقراءته، مسلحًا بالورق والقلم كي أنقل مقتطفات منه يمكن استخدامها في المنشورات. فلم يحدث أن صادفت في حياتي ما هو أصعب على الفهم، ولا أثقل ظلًّا، ولا أبعث على السأم وأدعى إلى التثاؤب والملل من ذلك الكتاب (والظاهر أن هذا الانطباع الأول عن الكتاب كان من القوة بحيث حال دون بذلي لأية محاولة لاحقة لقراءته حتى يومي هذا).

غير أن اعترافي أمام أعضاء الجمعية في اجتماعهم الخامس باستحالة فهمي لمضمون «رأس المال»، لم يوهن من عزمها أو يثبط من حماسها. واستمرت الجمعية في نشاطها العملي ثلاثة أسابيع كاملة، لا تعرف الكلل أو الملل. وكان أهم ما أنجزته خلال تلك الأسابيع، قصيدة قمت بنظمها على وزن قصيدة لأحمد شوقي كانت أم كلثوم تغنيها في ذلك الحين في مدح الملك:

المُلكُ بَينَ يَديكَ في إقبالِهِ عَوَّذتُ مُلكَكَ بِالنَّبي وآلِهِ

عارضتها بقصيدة مطلعها:

عَرشٌ يَنوءُ الشَّعبُ تَحتَ ظِلالِهِ وتَرى بإذنِ اللهِ شَرَّ مَآلِهِ

وَغْدٌ وأنتَ الوَغْدُ في أخلاقِهِ تَيسٌ وأنتَ التَّيسُ في أعمالِهِ

يرديكَ نَصرانيه بِصليبه والمنتمي لمُحمدٍ بِهلالِهِ

وفي نهايتها:

وقد أكبر الرفاق هذه الموهبة في النظم عندي، وأدركوا أهميتها في جمعية كجمعيتنا وفي تعبئة الرأي العام، فقاموا بنسخ عشر نسخ منها لتوزيعها على نطاق واسع. غير أن حادثًا مؤسفًا وقع لأحد زملائنا أثناء تأديته لواجبه الوطني، ذلك أنه وهو في طريق عودته من المدرسة، دلف خلسة إلى إحدى العمارات الكبيرة كي يُودِع نسخة من القصيدة في أحد صناديق البريد. وإذ مد يده بالورقة إلى فتحة الصندوق، شعر بيد غليظة على كتفه تستوقفه، هي يد بواب العمارة، وأخذ البواب القصيدة منه يقرأها دون أن يدعه يفلت من قبضته. فما إن وصل إلى «ثوروا على هذا المليك وآله»، حتى رنت على قفا الرفيق صفعة مدوية قوية، تلتها قرصة في الأذن ولكمة في البطن، مع سيل من السباب البذيء، والتظاهر بنية استدعاء الشرطة. وعلى الرغم من أننا عزينا صديقنا في اليوم التالي بأن ستالين سجن ست مرات، وأمثلة أخرى مما يلاقيه المناضلون في كل مكان من تعذيب وتنكيل واضطهاد، وبأن بواب العمارة الذي هو في حقيقة أمره من الكادحين لم يدرك بعد أن مثل نشاطنا هذا في مصلحة طبقته، فإن حماس الزميل للجمعية طرأ عليه من يومها فتور ملحوظ، لم يلبث أن انتقلت عدواه إلى بقية أفرادها، فلم يمضِ شهر على إعلان تأسيسها حتى أعيدت إلى كل عضو بها القروش الثلاثة التي كان قد دفعها، بعد خصم حصته من النفقات الإدارية.

* * *

ثم تلت ذلك فترة العامين من التدين الشديد، وقد التقيت خلالها في الإسكندرية بزميل لي في المدرسة في مثل تديني يُدعى خليفة. كنا نلتقي كل صباح فنسير جيئة وذهابًا على شاطئ ميامي، كلٌّ يشير للآخر إلى ما يصادفنا من مناظر لا يرضى عنها الدين، ثم نعبر معًا عن استنكارنا لها، مستعيذين بالله منها، ونحاول أن نلفت أنظار النساء في ملابس البحر إلى تعبير الاشمئزاز على وجوهنا. وخطر لخليفة يومًا أن ننتقم للدين من كل هذا الفجور الذي يملأ الشاطئ، وأن نقدم على عمل يرى فيه هؤلاء البابليون يد الله وغضبه. وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، التقينا في مكان محدد بالشاطئ وقد أتينا بمجموعة من الخرق الصغيرة وقدر من الجاز وأعواد الثقاب. فكنا نشعل النار في الخرقة، ونلقي بها في الكبينة من إحدى فتحات نوافذها، ثم ننتقل إلى الكبينة التالية. فعلنا هذا في ست من الكبائن أو سبع، ثم عدنا لاهثين إلى البيت نرتقب وصول الأخبار إلينا عن «حريق هائل يجتاح الشاطئ»، فلما قصدناه عند الظهر، إذا الأمور تجري فيه كالمعتاد.

ثم بدأ العام الدراسي الجديد، فجددت صلتي بخليفة. وقد لاحظت منذ الأيام الأولى أنه يقتصر في صِلاته بالمدرسة على خمسة أو ستة من الطلبة ذوي طابع خاص يميزهم عن غيرهم. فهم أعف الطلبة لسانًا، وأعزفهم عن اللهو والهذر، وأقلهم اعتناء بالملبس. فإن كانوا لا يتمتعون بذكاء كبير،

ففي جدهم واجتهادهم عوض عن الذكاء. وهم يلتزمون في علاقاتهم بقدر من السرية عظيم، وكثيرًا ما نراهم في أوقات الفسح منتحين ركنًا من أركان حديقة المدرسة يتحادثون بصوت خفيض، لا يشاركون رفاقهم في لعب البلي والجري والضحك. فإن انضم إليهم غريب شعر من فوره بأنه قطع عليهم حديثهم الخاص. وهم في معاملتهم لمن ليس في حلقتهم يتخذون سمت التنازل، شأن الأخ الكبير العاقل. وعلى الرغم من أنهم كانوا يبادرون بمد يد المساعدة إلى كل من احتاج إليها، فقد شاع بين الطلبة وصفهم بثقل الدم. وقد ميزهم عن غيرهم أنهم كانوا إذا ذكروا النبي، أو ذُكر النبي في حضرتهم تمتموا على الفور: صلى الله عليه وسلم، فعرفوا لذلك في المدرسة بجماعة «صلى الله عليه وسلم».

عرفني خليفة بهم فكرهتهم منذ اللحظة الأولى: ربما لتفضيل خليفة لهم عليَّ، وربما بسبب لهجة التعالي والإرشاد التي كانوا يتحدثون بها إليَّ، بل ربما لأن شعوري نحو خليفة نفسه كان قد أخذ يتغير لإحساسي بأنه يعاملني معاملة الهادف إلى أمر، وأنه يتبع أساليب مرسومة للوصول إلى هذا الهدف، وكأني أداة يمكن استخدامها بعد علاجها.

بدأ بأن سرد عليَّ قصة حياته: كيف أنه كان فاسدًا شريرًا (كان وقتها في الرابعة عشرة من العمر!)، ثم كيف أنه مرض مرضًا خطيرًا كاد الأطباء ييأسون من شفائه منه، غير أن الله تعالى شاء له النجاة، فإذا به يقوم من فراش المرض إنسانًا غير الذي كانه. وها هو أبوه (وهو قاضٍ شرعي) يقرأ معه أثناء فترة النقاهة كتاب الغزالي «المنقذ من الضلال» ويشرحه له، فإذا الكتاب نور أضاء له عقله وقلبه، فعرف الحق وأقسم ليكرسن حياته لتعريف الآخرين به. ثم قال عني إني أشبه في الملامح شقيقًا عزيزًا له اختطفه الموت في ريعان شبابه، وأنه لذلك يكنُّ لي مودة خاصة، ويريد أن يفيدني من تجاربه وثمار تفكيره (كنا في سن واحدة)، موفرًا عليَّ الآلام الشديدة التي عاناها قبل أن يدرك الحق. وقد كان لخليفة هذا فضل تعريفي في ذلك الوقت بكتابات ابن تيمية وابن حزم، وهي الكتابات التي ظلت الأثيرة عندي من بين جميع كتب التراث الإسلامي إلى يومي هذا.

ثم إذا به في أحد الأيام ينتحي بي في جانب الفناء أثناء فسحة الظهر ويقول:

- أتسمع عن الأستاذ الشيخ حسن البنا؟

- زعيم جماعة الإخوان المسلمين؟ قد سمعت به.

- وما رأيك فيه؟

- كل ما أعرفه عنه أنه نشر منذ أسبوعين في جريدة الإخوان خطابًا مفتوحًا إلى أبي يعرض عليه فيه الانضمام إلى الجماعة، ويقول إن مكانًا ينتظره في الصف الأول من صفوفها.

قال فجأة:

- أتحب أن تقابله وتسمع منه؟

- وكيف لي بذلك؟

- سيحضر هذا المساء إلى بيتنا لزيارة أبي، وهو يرحب دائمًا بمقابلة الشباب.

- ليس لديَّ مانع.

واستأذنت أبي عصرًا في الذهاب، فتردد لحظة يفكر، ثم أذن لي، على أن أسرد عليه عند عودتي ما دار من حديث. ثم قال وأنا أتأهب للانصراف:

- إن سألك الشيخ البنا لماذا لم أُجِب على خطابه المفتوح، فقل إنه لا علم لك بالموضوع.

* * *

في شقة خليفة بحي كوبري القبة، كان الشيخ حسن البنا جالسًا مع أربعة أو خمسة من الضيوف الآخرين في حجرة الاستقبال عتيقة الطراز، وقد كُسيت مقاعدها بالقماش الأبيض. كانوا فيما عدا الشيخ البنا، يحتسون القرفة. وإذ عرفهم خليفة بي، ذكر للشيخ البنا أنني ابن الأستاذ أحمد أمين، فأبدى الشيخ على الفور دلائل الاهتمام، وخبط بكفه الغليظة ثلاث مرات على حشية الكرسي المجاور له إشارة إليَّ أن أجلس بجانبه.

ثم واصل حديثه مع أحد الحاضرين:

- المسألة يا مولانا خلافية إلا فيما يتعلق بالطعام والشراب، فالحديث متفق عليه والنهي شديد، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافهما»، ويقول: «الذي يشرب في آنية الذهب والفضة فكأنما يجرجر في بطنه نار جهنم». ولا قياس مع النص، ولا مناص من الامتثال.

أجاب محدثه:

- يا أستاذ، أنا أحكم بقوانين نابليون، وفضيلة القاضي يحكم بالكتاب والسنة، وكل منا ملزم بشريعته!

- الأمر إنما جاء للمسلمين عامة، وأنت واحد منهم.

ثم التفت الشيخ البنا فجأة إليَّ:

- إذن فأنت ابن أستاذنا الجليل أحمد أمين. لقد قرأت كل حرف كتبه أبوك مرات ومرات، وأقولها مشهدًا الله على ما في قلبي، إني أراه قد استكشف تاريخ الحياة العقلية للمسلمين استكشافًا لم يسبق إليه.

كان يتكلم بصوت جهوري عميق، وبسرعة عجيبة وكأنما يسمِّع لنفسه في أقصر وقت ممكن درسًا حفظه.

وبدأت أرد بأن أبي يبادله شعور الاحترام والإجلال، فقاطعني بحركة من يده ورأسه وكأنما هو يرفض ما يقال من قبيل المجاملة:

- لعلك سمعت منه أنني وجهت إليه خطابًا مفتوحًا بجريدتنا أدعوه فيه إلى الانضمام إلى الجماعة. أَحَدثكم في هذا الأمر؟

حاولت أن أكذب فلم أستطع، فلهجته الحاسمة وسرعته في الكلام التي توحي بالرغبة في الحصول بسرعة على الرد الصحيح لكي يتمكن من الانتقال إلى النقطة الهامة التالية، لم تتركا لي مجالًا سوى لأن أجيب:

- نعم.

- فلماذا لم يرد إذن؟

- أبي يرى أن جماعة الإخوان المسلمين بدأت بداية طيبة محمودة في دعوتها الدينية، غير أنها انحرفت بعد ذلك عن غرضها الأصلي بتدخلها في السياسة. وهو لا يرى الربط بين السياسة والدين.

- لا يرى الربط بين السياسة والدين؟!

قالها في تهيج شديد وهو يشد لحيته السوداء بأصابعه الخمس، وكأنما هي المرة الأولى التي سمع فيها هذا الانتقاد يوجه لجماعته!

- لا يرى الربط بين السياسة والدين! أنا بصراحة لا أفهم هذه العقلية، لا أفهمها إطلاقًا...

قال ذلك موجهًا حديثه إلى الآخرين:

- قد أفهمها من ملحد علماني، نعم، أما ممن لا شك في صدق إيمانه كأحمد أمين فلا. هي نفس العقلية التي ألحظها في الشيخ مصطفى عبد الرازق وهيكل باشا. كيف يمكنكم أن تفسروا هذا؟ كيف يمكنكم أن تفسروا أن أكبر علماء المسلمين شأنًا عندنا يتحدثون عن عدم ارتباط السياسة بالدين، وكأنما لم يسمعوا قط عن الرسول صلى الله عليه وسلم؟ ألم يكن الرسول يربط بين السياسة والدين؟ أيمكن أن نتصور شأن الإسلام الذي كتب أحمد أمين تاريخه لو لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم قد أحدث هذا الربط؟ ما رأيك؟

هززت كتفي لا أدري بمَ أجيب.

- تحب أن تفهم؟

- نعم.

- فاسمع إذن. الواضح من ملامحك أنك فتى نجيب، فاستمع إليَّ واشرب قرفتك قبل أن تبرد. ما نعنيه بربط السياسة بالدين هو الإرادة أن تحكم هذه الأمة لا وفق دستور من وضع بشر قد يخطئون، وإنما وفق أحكام القرآن الكريم والسنة الشريفة، وهي أحكام لا يمكن أن يعتورها خطأ. ما العيب في ذلك؟

- يقول والدي إن مقتضيات العصر...

صاح مستنكرًا دون أن يدَعني أكمل جملتي، وهو يخبط الأرض بعصا في يده:

- ماذا؟ كيف إذن يُسمي نفسه مسلمًا ويحل لنفسه الكتابة في الإسلام؟ مقتضيات العصر؟!

- أنا أرى أن أحكام القرآن وسنة النبي...

- صلى الله عليه وسلم.

- صلى الله عليه وسلم، تصلح لكل زمان ومكان.

- أنت ترى ذلك، ولكنه يرى أن القرآن لم يحوِ كل ما يمكنه أن ينظم علاقاتنا وأوضاعنا التي تختلف عما كان قائمًا وقت النبي عليه الصلاة والسلام، وكأنما لم يكن من السهل على الله عز وجل أن يرى ما سيكون في المستقبل! ومع ذلك فلننظر إلى الأوضاع التي لم تختلف. خذ السرقة مثلاً، القرآن يقول اقطعوا يد السارق. فلماذا لا يقطعونها اليوم؟

- أبي يقول...

أيضًا دون أن ينتظر إكمالي للجملة:

- هذه سفسطة لا تفسير للدين! في عهد النبي كانوا يقطعون يد السارق، وكفى بذلك تفسيرًا. عبد العزيز باشا فهمي أيضًا ظهر مؤخرًا ببدعة جديدة في الدين، محاولاً أن يثبت أن القرآن لا يسمح بتعدد الزوجات. ولكن النبي والصحابة كانوا يتزوجون بأكثر من واحدة. ما أريد قوله هو أن الحكومة الحالية تحكم بما يخالف الشرع، بما يخالف حكم الله، ومن يحكم بما يخالف حكم الله والشرع حقت محاربته وإسقاطه. ومن ثَمَّ فلا مفر من ربط السياسة بالدين إن أردنا أن نهيئ مجتمعًا يرضى الله عنه، ويمكن للمسلم فيه أن يعيش حياة إسلامية حقة.

ثم ابتسم الشيخ البنا في وجهي فجأة وكأنما هو يعتذر عن لهجته المتحمسة:

- لا يمكن للمسلم في يومنا هذا أن يكون مسلمًا حقًّا إلا إن وحد مع غيره من الأتقياء المخلصين جهودهم في سبيل تهيئة المجتمع الصالح. العمل الفردي لا يجدي. الصلاة والصوم والزكاة لا تكفي، والجهاد في سبيل فرض حكم الله واجب. هذا ما تبينته حين كنت في مثل سنك يا سيد حسين. الجماعة قوة، والمسلم بمفرده غير ذي شأن. وإذ إن جماعتنا هي الجماعة الوحيدة في أمتنا التي نصبت أمام عينها هذا الغرض، فإن الانضمام إليها واجب ديني، هو الحل الوحيد. وإني أقولها مخلصًا مؤمنًا: إن رفض الانضمام إلى جماعة الإخوان المسلمين إعراض عن الإسلام بأسره... قل هذا لأبيك!

ثم حول عني وجهه بغتة، فلم يوجه إليَّ كلمة واحدة بقية الجلسة. ونقلت عند عودتي نص الحديث

إلى والدي، فهز رأسه مرتين أو ثلاثًا، ولم يعلق.

لم أجد في حديث الشيخ حسن البنا ما يغريني بالانضمام إلى الجماعة. وقد كان خليفة يتوقع أن يكون لقائي بالشيخ نقطة تحول في حياتي. فلما سألني بعدها عن انطباعي وارتآه سلبيًّا، فترت مشاعره نحوي فتورًا ملحوظًا، وكذا مشاعري نحوه ونحو أصحابه. ثم إذا بحادث يقع حوَّل هذا الفتور عندي إلى عداء صريح ومجابهة مريرة، ألا وهو حادث اغتيال رئيس الوزراء في ذلك الحين، محمود فهمي النقراشي، على يد أحد أفراد جماعة الإخوان المسلمين، وقيل إنه كان بإيعاز من الشيخ حسن البنا.

كان النقراشي، زعيم السعديين، صديقًا حميمًا لأبي، يسكن دارًا قرب دارنا، وكثيرًا ما يتزاوران. وقد رأيته لأول مرة إذ كنت صبيًّا في روضة الأطفال. دخلت علينا مدرسة الفصل ذات صباح تخبرنا أن النقراشي باشا وزير المعارف سيزور روضتنا خلال النهار، وأنها ستطلب منا كتابة جملة، فمن كتبها ولم يخطئ في كلمة منها ناب عن الفصل في الترحيب بالضيف. وكانت الجملة:

«رأس المجلس رئيس من الرؤساء».

فلم يكتبها سليمة غيري. وإذ تقدمت في فناء المدرسة للترحيب بالوزير، صافحني وقبَّل رأسي وسألني عن اسمي. وعندما سأل عما إذا كنت ابن أحمد أمين، تقدمت ناظرة المدرسة تجيب نيابة عني بالإيجاب، وتضيف قولها إن «ابن الوز عوام». فعاد يقبِّل رأسي ويصافحني من جديد، ثم قال:

- حجم رأسه وبريق عينيه وحدهما يحكمان بذكائه.

ومن وقتها بات النقراشي عندي زعيم الأمة دون منازع، لا أقبل من أحد قولة سوء فيه. فما اغتالته جماعة الإخوان حتى تبلور عدائي لها ولمرشدها العام.

وكان بالمدرسة «السعيدية الثانوية» التي انتقلت إليها بعد تحولنا للسكنى بالدقي، عدد من الطلبة الشيوعيين، يتزعمهم فتى يُدعى الدفراوي، شديدي العداء للإخوان. وكثيرًا ما كان يحدث بين الفريقين احتكاكات واشتباكات، خاصة أثناء فترات الاضطراب السياسي. وقد صور لي خيالي أنه قد يكون بإمكاني إذا ما انضممت إلى هذه الطائفة الأولى، أن أستغلها في ضرب الطائفة الثانية كخطوة أولى في سبيل تحقيق أهدافي. حدث مثل هذا من قبل في مختلف عصور التاريخ. فكنت أتسلل أحيانًا مع الدفراوي في فترة فسحة الظهر إلى الفصول الخالية، نفتح أدراج الطلبة من الإخوان، ونترك فيها ورقة تحوي عبارات السب والتهديد وتنتهي مكان التوقيع بعلامة «زد» (Z) (إذ كان فيلم «علامة زورو» في ذلك الوقت من أشهر الأفلام لدى الطلبة).

وقد تبينت إدارة المدرسة بعد وصول عدد من الشكاوى إليها خطورة الأمر، فكلفت من يقوم من الفراشين بحراسة الفصول أثناء الفسح، مما وضع حدًّا لنشاطنا في هذا الميدان.

وفي يوم من الأيام سألني الدفراوي عما إذا كنت أقبل التبرع لإحدى المجلات التي يصدرها الطلبة الشيوعيون بالجامعة. وإذ أجبته بالإيجاب، أخبرني أن محررًا فيها سيزورني ذلك اليوم في المساء لاستلام المبلغ، والاتفاق معي على الموضوعات التي أرى الكتابة فيها وإرسالها للمجلة. وأخبرني عن هذا الرفيق أنه طالب بالهندسة جد فقير، يسكن في شبرا، ويقطع المسافة يوميًّا إلى الجامعة سيرًا على الأقدام.

وفي المساء (لن أنسى ذلك المساء أبدًا) كنت في حجرتي أستعد للذهاب مع العائلة إلى الأوبرا حين هتف بي والدي، وكان بالشرفة:

- حسين! صديق لك يناديك في الحديقة.

صديق لي؟ لا بد أنه ذلك الشيوعي. وأحسست لحظتها بخجل شديد من نفسي أن يناديني أبي في براءة وسلامة نية، ظانًّا أن الزائر صديقي حقًّا، وأن الزيارة زيارة عادية. في حين كنت في واقع الأمر على وشك الإقدام على خطوة ستسهم في سقوط الطبقة التي تنتمي إليها عائلتي، فأنا الخائن إذن لطبقتي ولعائلتي وأبي. ومع ذلك فقد نزلت لاستقبال الزائر، وقد بدا منظره بثيابه الرثة، وحذائه القديم، جالسًا في حجرة الاستقبال الفخمة، شاذًّا غريبًا. أعطيته مبلغًا من المال، وطلبت له الشاي وبعض الحلوى والساندويتشات. ثم شعرت برغبة قوية خبيثة في أن أزيد من إدراكه لثرائي، ففرجته دون مناسبة أو داعٍ على غرف الطابق الأسفل، على صالة البنج بُنج، والمكتبة، والبلياردو المصغر الذي أهداه إليَّ والدي في عيد ميلادي، ومجموعة الأسطوانات الضخمة من الموسيقى الكلاسيكية. كل هذا لأشعره بأنني شيوعي لا لمصلحة، لا لأني فقير مثله، وإنما عن مبدأ وتفكير عادل، وضد مصلحتي الخاصة. والغالب أني أفلحت في بهره، كما أنه من المحتمل أن يكون قد ظن بي البلاهة والسذاجة إذ تكون لي آراء مثل آرائه.

أكملت ارتداء ملابسي، وتوجهت إلى دار الأوبرا مع العائلة، وفي المقصورة، ظل شبح هذا الزائر يطاردني ويقلقني. لقد وجه ماركس وإنجلز في نهاية بيانهما الشيوعي حديثهما إلى العمال قائلين: «ليس ثمة ما قد تفقدونه غير أغلالكم، بينما سيجلب النصر لكم عالمًا بأسره». فالمبدأ الشيوعي إذن هو لأولئك الذين لا يملكون شيئًا يخشون فقده. أما عني فلديَّ ما أخشى فقده، ولن أحصل في ظله على أكثر مما لديَّ. ولو كان هذا الطالب يملك ما أملك لما اعتنق المبدأ. فما هذا الغباء إذ أعرض نفسي للخطر؟ ينبغي عليَّ إذن أن أكف عن الاتصال بهم، أن أكون نفسي من الآن فصاعدًا، بعيوبي ومحاسني، دون خجل، ودون تدخل. إن أبي تسوؤه مماطلة مستأجري الأرض في دفع إيجارها. وكذلك تسوؤني. فلتسؤني إذن ولأكن الرأسمالي الذي أنا هو، دون خجل، ودون تدخل، ودون أدنى محاولة مني للتغيير...!

مرت فترة المراهقة بي دون التسبب في إزعاج أو متاعب لأحد، فمن الجائز أن أكون قد شعرت في بعض الأحيان برغبة في التدمير، في أن أهب من فراشي ليلًا فأمسك بالعصا وأهشم جميع نوافذ البيت، أو أن أكون قد خبرت فترات من الانقباض والاكتئاب الشديدين، أو أن يكون شعوري الغامض بالرغبة الجنسية قد أثار عندي قدرًا من الحيرة والألم. غير أن هذه الاضطرابات الداخلية لزمت مكانها فلم يحس بها الغير إحساسًا كبيرًا، ولم يلمس المحيطون بي وقتها سوى إقبال نهِم مني على قراءة سير الأبطال، وتفضيل للعزلة، مع قدر غير مستحب من الغرور.

بدأت أتبين الرغبة الجنسية عندي نتيجة لعدة عوامل: مجلات كمجلتَي «دنيا الفن»، و«الدنيا الجديدة» التي كانت تغص بصور النسوة العاريات والمقالات عن الغريزة الجنسية، ثم الأفلام الأجنبية التي بدأت في الإقبال على مشاهدتها منذ سن الرابعة عشرة، ثم أحاديث الهمس بين زملائي في المدرسة. ومع ذلك فقد ظللت مدة لا أستطيع أن أدرك بوضوح طبيعة هذا الأمر. التحقت بخدمتنا في ذلك الحين خادمة تُدعى سميرة، فتاة شهوانية ضئيلة الجسم، رقيقة الوجه والملامح، ذات عينين ناعستين شديدتَي السواد. كانت هاتان العينان تتجهان دومًا إلى الذكور في أي جمع، مع اتخاذ موقف الحذر والمخاتلة من والدتي وأختَي، فإن نزلت معنا إلى الحديقة للعب، شعرنا بأنها لا تشارك في اللعب مشاركة حقيقية. يدير أحدنا وجهه للحائط ليدع بقية اللاعبين يختبئون، فإن مضيت إلى ركن من الجراج أختبئ به، جاءت هي للاختباء معي، بينما المفروض أن يختبئ كل من اللاعبين في مكان بمفرده. فإن دخلت المكتبة أبحث عن كتاب، أو جلست لإصلاح لعبة أو ساعة، إذا هي تدخل وتقترب حتى يلامس جسمها جسمي، وتنظر في عينَي نظرة ذليلة خبيثة. وهي تشعرني دائمًا بثدييها إذ تلتصق بي، فكان يعتورني وقتها اضطراب لا أدري كنهه، مع إحساسي بأن في الأمر ما يشين. فهو دائمًا يتطلب الخداع والكذب، لا تلتصق بي في حضرة أحد إلا من يصغرني سنًّا، فإن دخلت والدتي أسرعت بالابتعاد وشعر اثنانا بالارتباك، بينما ألمح في عينَي والدتي نظرة الشك. وهذا الاقتراب الشديد وقت إصلاحي الساعة غير لازم تمامًا لاشتراكها معي، بل هي لا تفهم شيئًا في إصلاحها، وإنما هي مجرد حجة منتحلة للاقتراب. وإصلاحي للساعة أو اللعبة وقت قدومها يضطرب ولا يتقدم، وأحس بقلبي يدق بشدة، وبدمي يغلي، فالأمر كله أساسه الغش والتظاهر. وكنت أدرك هذا وأستعين أحيانًا على شعوري إزاءها بالصلاة، دون أن أفهم بوضوح على أي شيء أستعين، وأظل أردد في حرقة: يا رب، يا رب، دون أن أكمل الدعاء، فيظل الدعاء معلقًا، وأحس نحوها أحيانًا بالغضب الشديد إذ أفقدتني هدوئي، فألتمس الحجج الواهية لأصعد إليها في السطح فألكمها في وجهها بقوة، وأرقب الدم يسيل من بين أسنانها، بينما تظل هي ترمقني بنظرتها الحائرة الذليلة، متظاهرة بأنها لا تعلم ما جنت، ثم تشرع

في البكاء، فتحل الشفقة عندي مكان الغضب، وأحيط كتفها بذراعي مهدئًا معتذرًا، وأربت على شعرها، فإذا نحيبها يخفت، وتشرع في مسح دموعها مسندة رأسها إلى صدري. ثم غضبت والدتي عليها لسبب ما، فأرادت أن تحلق لها شعرها كله (وهي عقوبتها التقليدية للخدم)، وقد رفضت الفتاة ذلك في إصرار. صاحت والدتي بها:

- أتتحدينني؟

- لا أتحداكِ، وإنما لا أريد لشعري أن يُقص.

فطردتها أمي من الخدمة.

وقد سرني طردها سرورًا زائدًا، متنفسًا له الصعداء، ظانًّا أني قد تحررت به إلى الأبد من شعور منغص غريب. غير أني كنت مخطئًا في هذا الظن.

كان لي صديق حميم بالمدرسة «السعيدية» يُدعى نبيل، وقد لاحظت منه خلال السنة الأخيرة من الدراسة الثانوية تغيرًا واضحًا تجاهي، وعزوفًا عن صحبتي إلى صحبة «شلة» كان أفرادها يتبادلون المجلات والكتب، ويجتمعون في فترات الفسح لقراءة فقرات معينة من كتاب «ألف ليلة وليلة» وغيره، يغرقون أثناءها في الضحك. وقد آلمني عزوف هذا الصديق ألمًا شديدًا. فلما قررت سؤاله صراحة عن سر تغيره، أجاب في إخلاص:

- إن التكلف ليس من سمات الصداقة.

ولم أفهم ما يعني، فسألته في حيرة:

- أي تكلف؟

أجاب بأنه يعني رفضي مشاركة الغير في الحديث عن النساء والجنس. وقد كانت هذه المحادثة القصيرة، لا معرفتي بسميرة، أول ما نبهني تنبيهًا واعيًا إلى مشكلة الجنس.

انضممت إلى «الشلة» مجاملة لصديقي، وسعيًا إلى اكتساب مودته من جديد. وقد سر أفرادها أن يشاركهم اهتماماتهم أول الفصل وأحد المعروفين لدى إدارة المدرسة بحسن السلوك، مما يضفي نوعًا من الشرعية على هذه الاهتمامات. فقرأت معهم في «ألف ليلة»، وتكلفت الضحك لنكاتهم الجنسية. وكان البعض يسرد، أو يلفق، القصص عن صلاته بفتيات. وسرعان ما أصبح لدى كل فرد ما يحكيه، إن كذبًا وإن صدقًا، فإن سألوني ابتسمت ابتسامة من يخفي شيئًا، وإن ألحوا ملقبين إياي بـ«دون جوان الكتوم»، اختلقت لهم قصة عن علاقة بيني وبين ابنة الجيران.

كانوا يعلمون كذبي، خاصة وهم يرون وجهي يحمر احمرارًا شديدًا إذ أسمع البذيء من ألفاظهم، وعزوفي عن استخدام ما يستخدمون من تعابير. غير أنهم كانوا يريدون إطرائي، وأن يكسبوا لأنفسهم نفس الإطراء والتصديق. وعلى الرغم من أن كل فرد منا كان يشك في صدق الآخرين، فقد كانت تلك القصص والخبرات المزعومة تقلقنا، أو تقلقني على الأقل، وتدفعني إلى أن أسائل

نفسي أحيانًا عما إذا كنت الوحيد بينهم من لا صديقة له. وبدأت مرحلة كنت كلما شاهدت خلالها في الطريق فتى يرافق فتاة، انتابني الحزن والغم، خاصة إن كانت سن الفتى تقارب سني.

* * *

ثم كان يوم مشهود، يوم أعلن إلينا أكبر أفراد «الشلة» سنًّا أن عائلته قد سافرت إلى الريف مدة يومين، تاركة له الشقة وحده، وأن ابن عم له، وهو طالب بكلية الطب، قد وعد بإحضار امرأة إلى الشقة في المساء، وسأله أن يحضر معه عددًا من أصدقائه إن شاءوا.

وعرض علينا الحضور، فقبل البعض ورفض البعض، وكنت بين الرافضين. غير أن من قبل منهم لم يكونوا ليتركوا أول الفصل وشأنه، فتمادوا في الإلحاح حتى قبلت. ولكي يطمئنوا على أني لن أخلف الوعد، مر عليَّ عدد منهم في المنزل مساء لاصطحابي.

وذهبت، وجلسنا في صالون بالي الأثاث، عاري المصباح، ننتظر طالب الطب والمرأة. وسألت الزميل صاحب الشقة عما إذا كان قد شاهد المرأة، فأجاب بأنه شاهدها عصرًا حين ذهب مع ابن عمه للمعاينة والاتفاق. وقال إن شعرها أصفر، فسرح خيالي لهذه الجملة الأخيرة. شقراء الشعر، وربما زرقاء العينين. فلعلها فتاة لا بأس بها على الإطلاق، لعلها فتاة كريمة قد اضطرتها الظروف القاسية إلى احتراف هذه المهنة. فهل من الممكن إنقاذها؟ أن أقوم تجاهها بدور أرمان ديفال مع مرجريت جوتييه؟ سأدخل الغرفة عليها فأدهشها بألا أقربها، وأقضي الوقت المخصص لي في سؤالها عن حياتها وظروفها، وأناشدها العودة إلى صوابها، ثم أعطيها المبلغ وأخرج. فإن نشأت بيننا علاقة حب فسأتزوجها على الرغم من كل معارضة، فليس هناك ما هو أسمى من إنقاذ نفس خاطئة، وإرجاع الشاة الضالة إلى القطيع.

وأخيرًا وصلت الشاة الضالة إلى الشقة، فإذا هي إلى البقرة أقرب. امرأة في الأربعين، تلبس ملاءة لف، شديدة السمرة، ذات شعر مصبوغ، وأسنان مذهبة، وألفاظ نابية، ما إن رأت جماعتنا حتى دقت صدرها بكفها متظاهرة بالانزعاج:

- ثمانية؟! أتريدون قتلي؟!

ولم تطلب إنقاص العدد، وإنما طلبت زيادة الأجر. ثم اختلى بها طالب الطب للتأكد من خلوها من الأمراض.

وتسمرت في كرسيَّ أرتعد وقد أحسست بنوع من الحمى مقبلة، لاعنًا نفسي أن قبلت الحضور، وأن انضممت إلى هذه «الشلة». ثم قفزت إلى ذهني فكرة الفرار، فقمت أسأل صاحب الدار عما إذا كان بشقته تلفون. فلما أجاب بالنفي، قلت إني سأنزل إلى الطريق من أجل مكالمة تلفونية هامة ثم أعود، فما إن وصلت إلى باب العمارة حتى أطلقت ساقَي للريح.

وعدت إلى بيتنا محمومًا، فنزعت ملابسي ودخلت الفراش، مسببًا الفزع لوالدي ووالدتي إذ

شاهداني أتصبب عرقًا، وارتعشت بشدة ثم انخرطت في البكاء، وكلما تبينت عطفًا متزايدًا من أمي زاد بكائي وخجلي إذ تلمسني بيدها. فلما خرجت تعد لي عشاء وانفردت بوالدي، لم أملك إلا أن قصصت عليه ما حدث. فقطب جبينه، وأطرق إلى الأرض مفكرًا:

- لا أدري ما أقوله لك. لقد أسأت صنعًا ثم أحسنت إذ تداركت الأمر. فلتترك هذه الجماعة، ولا تضع نفسك مرة أخرى في تجربة مماثلة. لقد أنجاك الله هذه المرة. فالأمر أبشع مما يمكنك أن تتصوره. وقد كانت التجربة كفيلة بأن تفسد إلى الأبد علاقتك بالنساء.

ومع ذلك فقد أسفت بعد أيام أن أخبرت والدي، فقد أثار اعترافي حيرة لديه وطول تفكير، بينما كنت قد قررت في حزم أن أقطع علاقتي بتلك «الشلة»، بل وحتى بصديقي نبيل. غير أن الواضح أن الحادث أثار مخاوف أبي، وأن تفكيره قاده إلى ضرورة شرح العلاقات الجنسية لي، وأن يشرف على تطور موقفي منها. فانفرد بي يومًا وبدأ حديثه وأسئلته وهو في ارتباك يزيد على ارتباكي، غير أني شعرت إذ أستمع إليه باستياء شديد، وبأنه إنما يفعل ما يفعل نتيجة إحساس بواجبه لا كأمر طبيعي، فكأنما قد قرأ في كتاب أن عليه التحدث مع أبنائه في هذه الأمور. فرجوته ألا يستمر، وشعر هو باستيائي فاحمر وجهه وسكت.

واتخذت من يومها موقفًا بالغ التعفف والشدة من موضوع الجنس، لا أشترك في حديث فيه، وأتخطى بناظري الفقرات الفاضحة في الكتب. فإن تفوه أحد الطلبة بعبارات جنسية بذيئة أمامي عنفته، وأبديت احتقاري له، وهددته بإبلاغ إدارة المدرسة. فكان الطلبة في البداية لا يعبأون بهذا التقريع أو التهديد، إلى أن وقع حادث جعلهم يأخذون التهديد مني على نحو جدي: كان بفصلنا طالب هو ابن أحد أمناء القصر الملكي، وسيم الوجه، ممتلئ الجسم، مخنث السلوك. وكان قد استحوذ على لب عدد من الطلبة، يتبعونه أينما ذهب، ويحيطون به في فناء المدرسة إحاطة السوار بالمعصم، إن لحقته إهانة أو عدوان تولوا الانتقام له نيابة عنه. وهو كذلك مقرب لدى بعض المدرسين، خاصة مدرس الألعاب الرياضية الذي كان بادي الشغف به.

ثم حدث أن خرجنا في رحلة مدرسية إلى حلوان، وقضينا ثلاث ليالٍ في مخيمات بالعراء. وصادف أن كان مبيتي في نفس الخيمة مع هذا الطالب، ومدرس الألعاب، وعدد آخر من الطلبة. وإذ هبط الليل وأوينا إلى الفراش، استيقظت في الثانية صباحًا على صوت بالخيمة، ورأيت المدرس يتسلل من مكانه إلى فراش الصبي، ويوقظه برفق. فما أدركت ما يجري حتى أيقظت جارًا لي من الطلبة في هدوء، وأشرت له إلى مكان المدرس حتى يكون شاهدًا معي على ما رأيت.

وفي اليوم التالي لانتهاء الرحلة، كان أول ما صنعت بعد وصولي إلى المدرسة، أن توجهت إلى حجرة الناظر أخبره بما حدث.

صاح مزمجرًا:

- عندك إثبات لما تدعي؟

قلت في هدوء:

- نعم.

وخرجت أنشد الطالب جاري، فأتى المسكين إلى حجرة الناظر بائسًا لا يدري ما يقول. وأدركت من جملته الأولى أنه سيحاول القول بأنه لم يرَ شيئًا، فحدجته بنظرة نارية أربكته. ثم قص على الناظر ما حدث. فلما فرغ طلب الناظر منا الانتظار خارج غرفته، ودق الجرس يطلب من الفَراش استدعاء المدرس إليه.

وجاء المدرس، باسم الوجه كعادته، لا يدري سبب استدعائه، فلما رآني وزميلي واقفين خارج حجرة الناظر، ظن أننا إنما استُدعينا لنيل الجزاء على أمر ارتكبناه، فحيانا غامزًا بعينه:

- حتى أنت يا حسين؟ ماذا يمكن أن تكون قد ارتكبت؟

غير أننا لم نرد تحيته، ونحينا عنه وجهينا في وجوم.

وانقضى ثلث ساعة، خرج المدرس بعده في حالة مخالفة تمامًا للحالة التي دخل بها، شاحب الوجه، ذليل النظرة، يمسح عرقه بمنديله. وإذ وقعت عيناه علينا، توقف مترددًا، ثم تقدم منا وتمتم:

- غفر الله لكما ما صنعتما.

ثم انصرف.

وعلمت المدرسة بعد يوم بأمر فصل الطالب والمدرس نهائيًّا.

قال والدي حين سمع بحادث المدرس:

- إن قلقي عليك ليفوق قلقي على أيٍّ من إخوتك، وأكاد أرى مستقبلك أمامي رؤى العين، مستقبلًا مشحونًا بالمتاعب والاصطدامات. فإن كان حسن الحظ قد مكن لك حتى الآن من أن تنتصر، وأن تحقق كل ما تصبو إليه، فتأكد أن الحال لن تكون هكذا دائمًا. وإنك لمن النوع الذي إن صادف حائطًا ظل يخبط برأسه حتى يقع الحائط أو يُشج الرأس. والغالب الذي أخشاه أن يكون شج الرأس نصيبك.

- فهل أخطأت إذن أن أبلغت الناظر؟

- ليس هذا ما أعنيه، وإنما أعني طبيعتك وشخصيتك بوجه عام. إنك صلب، عنيف. وقد يجلب عليك عنفك كراهية زملائك اليوم، ورؤسائك حين تكبر.

- لن يكون لي رؤساء أبدًا.

- كيف يا بني؟ كل شخص في الدنيا له رؤساء.

- أنت لا رئيس لك.

- كيف؟ أفليس عبد الرحمن عزام رئيسي في الجامعة العربية؟ أليس لطفي السيد رئيسي في مجلس الجامعة المصرية؟

- إن بسمارك يقول: لا أستطيع بطبيعتي أن أكون واحدًا من العازفين في فرقة موسيقية، فإما أن أقود الفرقة أو أتجنبها.

- هذه أقوال ستؤدي بك إلى التهلكة. فاسمع مني وألِن عريكتك ولا تسعَ إلى تشكيل الناس حولك وفق ما تهوى، أو تعتبرهم مجرد أدوات تستخدمهم لنيل أغراضك. فإن كنت تستشهد بأقوال بسمارك أو نابليون، فاتعظ أيضًا بنهايتهما.

ثم هز رأسه وأضاف في حزن:

- غير أن الأيام كفيلة وحدها بأن تثبت لك صحة ما أقول. كل ما أخافه هو ألا تدرك ما أعني إلا بعد حشد من التجارب المؤلمة.

في اليوم الأخير من شهر مايو عام ١٩٥٤، كانت وفاة والدي عن ثمانية وستين عامًا.

* * *

لا أملك إلى اليوم نفسي من العجب كلما فكرت في بساطة معيشته وقلة احتياجاته: مأكله وملبسه ومختلف عاداته. فإفطاره كوب من اللبن وقطعة من الجبن، وغداؤه خالٍ من النشويات لإصابته بمرض السكر البولي، وعشاؤه اللبن الزبادي وبعض الفاكهة. فأما الشاي فلا يكاد يشربه، وفنجان القهوة يشربه عقب الإفطار، وآخر بعد ساعة من النوم عقب الغداء. وأما الخمر فلا يقربها. ثم لا إفراط في شيء غير التدخين، فالسيجارة لا تكاد تفارقه، غير أنه لا يكاد يشعلها حتى يلقي بها بعد نفسين أو ثلاثة، ثم يشعل أخرى بأصابع يد ترتعش.

وهو قليل الاحتفال بالملبس، غير أنه لم يهمله كلية إلا في السنوات الثلاث الأخيرة من حياته بعد إصابته بجلطة في ساقه وتدهور صحته، فاستغنى عندئذ نهائيًّا عن رباط العنق الذي كان يضايقه دومًا ولكنه يحتمله قبل ذلك، ولم يعد يستنكف من الظهور أمام الناس ولحيته لم تحلق، أو يستقبل ضيوفًا مرتديًا جلبابه.

وبساطته في أسلوب معيشته تنعكس في كتاباته وأسلوبه الأدبي. فهو لا يعرف تأنقًا أو حذلقة، وإنما هو قلم يجري بما يعن له من خواطر، والجملة عنده على قدر الفكرة. وهو يكتب للعامة كما يكتب للخاصة، ولا يسعى إلا إلى إفهام. غير أنه مع استنكاره للتأنق أو الحذلقة في كتابات غيره، كان يدرك - فيما أعتقد - أن أسلوبه دون أن يستحق وصفه بالأسلوب الأدبي الرفيع. ولا أزال أذكر، بشيء من العجب والإشفاق، كيف أبهجه أشد البهجة أن يتحول عباس العقاد إلى الاعتراف به أديبًا بعد صدور كتابه «حياتي»، بعد أن ظل دومًا قبلها يصر على وصفه بالبحاثة أو المؤرخ العالم.

فثقته بنفسه لا تتعدى الثقة بمبادئه الخلقية وموقفه الأساسي من الحياة. أما بصدد كتاباته، فإعجاب النقاد والقراء، أو حتى إعجاب أولاده، كان يجلب إلى شفتيه ابتسامة الرضا الشديد، وقد يؤرقه ويبئسه لبضعة أيام هجوم في صحيفة.

* * *

وهو خجول حيي في المحافل العامة خجل العذراء وحياءها، لا ينتقص من خجله ما يلقاه الناس به من توقير ومودة. إن سار سار مطرقًا، وإن دلف إلى قاعة اجتماع أو مجلس قوم اضطربت خطواته وتعثر. وقد دفعه ذلك الضعف الشديد في بصره إلى أن يتجنب النظر إلى الناس حتى لا يحسب أحدهم أنه لم يحيِّه استكبارًا، أو تجاهله عامدًا، في حين أنه لم يتعرف عليه لضعف بصره. وقد حدثنا مرة عن كيف قصده رئيس الوزارة في محفل عام ليصافحه ويهنئه على كتاب جديد له،

فسأله والدي عن اسمه، وهو ما أحرج الرئيس وأغضبه! وهو مع خجله هذا عنيف المعارضة - ربما أعنف مما ينبغي بسبب هذا الحياء نفسه - حين يرى مبدأ يُهدر، أو أخلاقيات تنتهك، حتى إن كان (أو قل، خاصة إن كان) معارضه من علية القوم ورؤسائهم.

وهو شديد التواضع دون أدنى تكلف، تحيته للوزير كتحيته للساعي أو الخادم، وبابه مفتوح لهذا كما هو مفتوح لذاك. وقد كان يزوره في المستشفى وقت إجراء عملية الشبكية له وزراء وأعيان، وسعاة وفلاحون، فيأذن لهم جميعًا بالجلوس حول سريره، حتى تكاد ساق رئيس الديوان الملكي تلامس ساق فراش مكتبه بكلية الآداب.

وكان سخيًّا إلى أبعد الحدود، ساذجًا أشد السذاجة في أمور المال، ولا أظنه كان ليترك مليمًا واحدًا لأسرته لولا حرص والدتي وحسن تدبيرها. فهو يمد يد العون دومًا لأقربائه الفقراء، والباعة تتهلل وجوههم إن هم رأوه يدخل محالهم (إذ كان غالبًا ما يشتري حاجيات البقالة والفاكهة بنفسه)، فهو لا يساوم ولا يشكك في عدالة أسعارهم. وقد يخطئ، بسبب ضعف بصره، فيعطي الورقة من فئة العشرة جنيهات ويحسبها جنيهًا، بل قد يزيد على الثمن المطلوب حتى ينتقي البائع له أفضل بضاعة.

وقد كان مع هدوئه وتواضعه وطول صمته وقلة كلامه، قوي الشخصية مؤثرًا فيمن حوله. وهي قوة نابعة أساسًا من قوة خلقه ونبل مبادئه ومسلكه وعدله وموضوعيته. فالعدل والموضوعية سمتان بارزتان فيه، سواء في حياته الخاصة أو العامة، وهي السمة الغالبة في كتاباته، إلا فيما تعلق منها بفرقة الشيعة الذين لا أظنه أنصفهم أو حاول محاولة جادة أن يلم بأدبهم ووجهة نظرهم قبل أن يصدر أحكامه القاسية عليهم. وهو حريص دائمًا على الالتزام بحدود المنطق، وكان يرجع ذلك إلى اشتغاله زمنًا طويلًا بالقضاء.

وسمة أخرى بارزة فيه، وغالبة عليه، وهي الحزن. حزن عميق دائم حتى في حالات الرضا، ولحظات المجد، وساعات الاستجمام. فهو نادرًا ما يضحك، وإن راقته نكتة أو استخفه موقف، فأقصى ما هناك ابتسامة حزينة. ولا شك في أن حزنه هذا نجم عن نشأته الأولى، فحياته بعدها كانت سلسلة من الإنجازات والارتقاء والنجاح، ولم يكن في حياته الخاصة أو العامة (حتى أصابه المرض)، أدنى مبرر لمثل هذا الحزن العميق، كما أنه لم يعرف من مولده إلى وفاته ضائقة مالية.

* * *

وقد تفسر موضوعيته وعدله كراهته للحزبية، وعزوفه عن الاشتغال بالسياسة. وقد حاول في شبابه الأول أن يهتم بالسياسة فلم يفلح:

> «فقد كنت أخاف السجن وأخاف العقوبة. ولعل من أهم أسباب خوفي إشفاقي على والدَي وقد أصبحت ابنهما الوحيد بعد وفاة أخي، إذا سمعا بحبسي أو عقابي هد ذلك من كيانهما الذي أشرف على السقوط. وقد علمني أبي الإفراط في التفكير في العواقب. ومن فكر في

العواقب لم يتشجع. والسبب الثاني أن مزاجي مزاج علمي لا سياسي، ولهذا كنت أختلف عن كثير من زملائي السياسيين كمحمود فهمي النقراشي وصبري أبو علم، بأنهم كانوا يؤمنون بسعد زغلول كل الإيمان، ويعتقدون صحة كل ما ذهب إليه وارتآه، ويؤولون ما يصدر عنه من خطأ ويلتمسون الحجج لتبريره. ولم أكن على هذا المذهب، بل كنت أؤيد سعدًا وأنقده، وأؤيد عدلي يكن وأنقده، وليس هذا هو المزاج السياسي الذي يؤمن بكل ما يصدر عن الحزب ويتحمس له...».

كذلك يفسر هذا العزوف منه عن الاشتغال بالسياسة عدم تعيينه في أحد المناصب التي توصف عادة بالخطيرة، وعدم نيله رتبة الباشوية. وقد قص علينا كيف أن سعد زغلول امتعض منه يومًا وازورَّ بوجهه عنه إذ أجابه والدي برأي جاء موضوعيًّا على نحو لم يستسِغه سعد، فإذا هو يتمتم في ضيق:

- إنت موش عاجبني النهارده!

وقد حاول الشيخ حسن البنا - كما سبق أن ذكرت - ضمه إلى جماعة الإخوان. كما حاول صديقه النقراشي زعيم السعديين ربطه بالحزب السعدي، وهو حزب كان يضم الكثيرين من أصدقائه كالدكتور عبد الرزاق السنهوري. وأذكر أن النقراشي فاتحه مرة في منزلنا بالإسكندرية حتى يتولى رئاسة تحرير صحيفة الحزب الجديدة «الأساس»، فأبى على الرغم من ضخامة المرتب المعروض، فأرسل إليه إبراهيم باشا عبد الهادي ليحاول كرَّة أخرى إقناعه، فعاد إلى الاعتذار بأنه أديب وباحث لا يأبه كثيرًا بأمور السياسة، ولا يصلح لمثل هذا المنصب.

غير أن كثرة أصدقائه من بين السعديين جعلت البعض، والقصر نفسه، يعتبرانه سعديًّا، خاصة أن المراكز الرفيعة التي كان يتولاها إنما كان يتولاها متى وصل السعديون إلى الحكم، ويفقدها متى عاد الوفد. وكان أبرز سوء فهم لحقيقة اتجاهات أبي هو عندما قررت اللجنة الدائمة لجوائز الدولة في الأدب منح هذه الجوائز عام ١٩٤٨ لوالدي ولعباس العقاد وطه حسين ومحمد حسين هيكل. ذلك أن الملك، عندما رفعت إليه القائمة لإقرارها، شطب بيده اسم طه حسين منها باعتباره وفديًّا معاديًا له، ثم تردد في إقرار بقية الأسماء بالنظر إلى أن هيكل من الأحرار الدستوريين، بينما العقاد وأحمد أمين (في رأيه) من السعديين، وأشار بأن يُختار رجل واحد من كل من الحزبين. غير أن اللجنة رفضت أن تستبعد العقاد أو أحمد أمين، وأرسلت إلى الملك من أفهمه أن الثاني ليس سعديًّا، وأن الأمر على أي حال يتصل بالأدب لا بالسياسة. فقبل الملك في النهاية.

وأقيم في قاعة الاحتفالات بجامعة فؤاد احتفال ضخم كان ذروة حياة والدي الأدبية وتتويجًا لها وله. فهو لم يُمنح فيه جائزة الدولة للأدب فحسب، بل درجة الدكتوراه الفخرية كذلك التي قرر مجلس كلية الآداب خلعها عليه. وقد حضرت مع إخوتي كافة هذا الاحتفال، فكانت دموع الفرح لا ينقطع تدفقها من عينَي طواله، فما تقدم أبي في روبه الجامعي من المنصة ليتسلم براءة الجائزة من

إبراهيم عبد الهادي، حتى قمت من مقعدي أصفق بكل ما فيَّ من قوة، ولم أملك نفسي من أن ألتفت إلى الجالسين جواري قائلًا:

- هذا أبي!

وكان إحساسنا جميعًا، وقد رأيناه يخرج منديله ليمسح دموعه، أن ذلك اليوم كان أعظم أيام حياته.

* * *

وهو مع كراهته للملك وسروره بعزله، لم يجد في الكثير من تصرفات عبد الناصر خلال السنتين الأوليين من الثورة مدعاة للإعجاب. وأجدني إلى اليوم أبتسم كلما تذكرت كيف كان يجلس في اهتمام شديد للاستماع إلى خطب عبد الناصر في المذياع، ثم يقوم في غضب وألم لإغلاقه بعد دقائق معدودات حين تتكرر الأخطاء النحوية على لسان «الخطيب»، وهي أخطاء كانت تؤذي مسمعه أيما إيذاء.

وقد كان في مواقفه السياسية شيء من تناقض: فهو يتمتع، كما يشهد الكافة، بجرأة شديدة في الحق، وكثيرًا ما كان يقاوم ويعارض ويحتد ويقدم استقالته من عضوية لجان ومجالس إدارات حين كان يرى اعتداء على قيم يؤمن بها، كاستقلال الجامعة مثلًا. وهو مع ذلك لم يهاجم الملك في مقال أو كتاب، ولا هو انتقد تصرفًا ساءه من جانب حكومة الثورة، كما لا أعتقد أنه ساهم في شبابه في الحركة الوطنية ضد المستعمر البريطاني بأكثر من موقفين أو ثلاثة، كلها خاصة بتوحيد صفوف المسلمين والأقباط.

* * *

كان الصراع بين القديم الموروث والجديد الذي اتصل به عن طريق القراءة والأصدقاء والحياة، يحتدم دومًا في نفسه على أحدِّ صوره، وبصدد المجالات كافة: في علاقته بزوجه وأبنائه، وفي أسلوب معيشته، وفي كتاباته. فجذوره في القديم (في الجو العائلي الذي نشأ فيه، وفي المجتمع الذي عرفه في شبابه، وفي الأزهر حيث درس)، أعمق من أن يستأصلها الجديد الطارئ. وحماسه للتغيير والإصلاح ومسايرة العصر، أقوى من أن تطفئه التقاليد الموروثة. وقد تحول من العمامة والجبة إلى الزي الأوروبي على مضض وبناء على إلحاح أصدقائه له. غير أنه لم يرتَح تمامًا إلى الزي الجديد، ولا كان يستشعر الراحة إلا في جلبابه في بيته. فإن جلس إلى طعام بين أهله، أو إلى كتاب في حجرة مكتبه، تربع أو رفع رجله على قاعدة الكرسي أو الأريكة وكأنما هو في رواق الأزهر. وهو يستغني بأصابعه عن الشوكة والسكين. وقد يستنكر في قرارة نفسه من أولاده تصرفًا لم يكن ليحلم أن يتصرفه في حياة أبيه، أو عقيدة تخالف عقيدته، غير أنه يؤمن كذلك بحقهم في أن تكون لهم حياتهم الخاصة، وعقائدهم المباينة، ويرضخ رضوخ الحكيم لمقتضيات التطور،

واختلاف الأجيال. ولا أذكر أنه حاول قَطّ أن يفرض اهتماماته الفكرية على أحد منا، ولا أن يجبر أحدًا على صلاة أو صوم. كما لا أذكر أنه استخدم عنفًا معي إلا مرة واحدة، كنت أقرأ له فيها صحيفة، فتكررت مني أخطاء نحوية، فإذا هو يخطف مني الجريدة ويضربني بها ثلاث ضربات على فمي!

غير أن القديم يتمثل فيه أكثر ما يتمثل في علاقته بأمي، فهو لا يصطحبها معه في زياراته أو رحلاته أو نزهاته، ولا يشركها في اهتماماته العقلية أو شؤون حياته العامة. فإن حادثها، حادثها عن الأهل أو مشاكل الأولاد والخدم. بل إنه، وهو ما نجده اليوم بالغ الغرابة، لم يكن يناديها باسمها قَطُّ، ولا كانت هي تناديه باسمه. فإن أراد أن يدعوها رفع صوته أو تنحنح، أو نادى نداء مبهمًا عامًّا. اللهم إلا في حالات تبَسط مؤثرة، أو رضا شديد، أو اعتراف بذنب، فكان وقتها يناديها بالست أم حمادة! فإن كتب إليها من بلد سافر إليه، كانت خطاباته لضرورة ملحة، ولم يستهلها بتحية أو حتى بلفظة «عزيزتي»، وإنما كان يدخل رأسًا في الموضوع، ويذكر المطلوب. ومن خطاباته التي بعث بها إليها مرة من رأس البر، وكان قد سبقنا إليها (وهو خطاب لا نزال نذكره في محيط الأسرة ونضحك لتذكره أشد الضحك)، ما يجري على هذا النحو:

«١- ثلاث مخدات.

٢- شمسية البلاج.

٣- مجموعة الكتب التي تركتها على المكتب.

أرجو إحضار هذه الأشياء معكم، والسلام».

* * *

لم تبدأ رحلاته إلى أوروبا إلا وهو في منتصف العقد الخامس من عمره، حين بدأ اسمه يلمع في ميدان التأريخ الإسلامي، وصار يُدعى إلى مؤتمرات المستشرقين، أو يكلف بمهام كحضور مؤتمر المائدة المستديرة في لندن عام ١٩٤٦. فإن تذكرت اليوم ما كان يرويه لنا عند عودته من انطباعات عن الحياة الأوروبية، تذكرت لفوري كتاب «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» لرفاعة الطهطاوي. فهو منبهر بأمور صارت عند أبنائه وحفدته من الأمور العادية المألوفة: كالأمانة والنظافة والنظام وقلة الضوضاء ودقة المواعيد والديمقراطية وإطاعة القانون. وقد تأثر تأثرًا عميقًا إذ رأى إرنست بيفين وزير الخارجية البريطاني يحضر مؤتمر المائدة المستديرة في حُلة رثة، وياقة قميص بالية، وقارن لنا بين هيئته وهيئة وزرائنا على تفاهة شأنهم. كما تأثَّر تأثُّر الشيخ محمد عبده من قبله، إذ رأى الشعوب المسيحية أشد التزامًا من الشعوب الإسلامية بقاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فإن كان قد سطر في السنوات الأخيرة من حياته إدانة لمادية الغرب، فقد كان بوجه عام أميل إلى الاعتراف بتفوق الغرب في كل مضمار تقريبًا، وإلى التحسر على حاضر العالم الإسلامي.

كذلك كان يكنُّ احترامًا عميقًا لكبار مستشرقي عصره، من أمثال هاملتون جيب وبرجشتراسر وشفالي ومرجوليوث، خاصة الأول الذي كان يزوره كلما حضر إلى مصر، والذي تولى كتابة مادة «أحمد أمين» في الطبعة الثانية من دائرة المعارف الإسلامية، ويردد أمامنا قولة محمد عبده: «إن المستشرقين ألفوا في تاريخ الإسلام ما لا نظير له في مؤلفات المسلمين». غير أنه مع أخذه ملاحظاتهم على أجزاء كتابه «فجر الإسلام وضحاه وظهره» على نحو جدي، ومع استفادته استفادة جمة من نتائج أبحاثهم التي كان يكنُّ أعظم تقدير لما بذلوه فيها من جهد، لم يكن موقفه منهم موقف التبعية أو الانقياد، ولا كان غافلًا عن عنصر سوء النية لدى عدد منهم. ولو أنه عاش حتى رأى تدهور حال الاستشراق، وضحالة معظم ما ينشر اليوم في هذا الميدان، لكان موقفه على غير ما كان عليه.

* * *

كانت القراءة والكتابة عماد حياته، ومتعته الكبرى. وقد يجد المثقف في أيامنا هذه جوانب ضعف وثغرات خطيرة في ثقافة والدي، مع تقدير عميق في الوقت ذاته للشوط الذي قطعه في هذا المضمار. فهو يذكرني بالمثل القائل: «الثعلب يعرف أشياء صغيرة كثيرة، والقنفذ لا يعرف غير شيء كبير واحد». فوالدي كالقنفذ في هذا المثل؛ لا يكاد أحد يضاريه في معارفه الإسلامية، وفي إلمامه بتاريخ حضارة الإسلام وعلومه. أما فيما عدا ذلك فثمة خلل كبير، تداركه بعض كُتَّاب عصره كالعقاد، بل وطه حسين. فهو لا يعرف شيئًا عن الموسيقى الغربية ولا يستسيغها، والأسماء الرنانة في ميدانها هي عنده مجرد أسماء. وهو لا يكاد يقرأ قصصًا أو مسرحيات غير بعض ما يُهديه إليه من مؤلفاتهم أدباء عصره، كتوفيق الحكيم، ومحمود تيمور، والروائي الشاب نجيب محفوظ، تجنبًا للحرج حين يقابلهم بعدها. فلا أعتقد مثلًا أنه قرأ في حياته رواية لتولستوي، أو دوستويفسكي، أو مسرحية لموليير. وهو لا يعرف شيئًا عن الأوبرا والباليه، ولا عن فن التصوير والنحت، ولا أظنه زار متحفًا للفنون في مدينة أوروبية إلا من قبيل «الواجب». كذلك فقد كانت معارفه الخاصة بالتاريخ، عدا التاريخ الإسلامي، بل حتى بتاريخ مصر القديم، شديدة القصور. وفي ظني أن أي شاب يعرف اليوم عن الماركسية وغيرها من المذاهب الاقتصادية أكثر مما كان يعرفه أبي.

غير أنه مع كل هذا القصور لم يكن يتظاهر بعكسه، ولا كان الأمر يؤرقه. كل ما هنالك هو أنه حين ضعف بصره ضعفًا شديدًا وصار مهددًا بفقده، أحس بحسرة شديدة إذ لم يُعنَ في شبابه بتنمية اهتمامات وهوايات مختلفة، ولم يهوَ غير القراءة والكتابة اللتين أصبح الآن مهددًا بأن يحرم منهما. فكان يردد قوله: «لو أني نميت في نفسي هواية الاستماع إلى الموسيقى مثلًا، لكان في لجوئي الآن إليها العزاء عن فقد البصر».

وهو لم يشرع في تعلم لغة أجنبية إلا بعد أن جاوز الخامسة والعشرين، وقد اختار الإنجليزية (لم

يعرف غيرها)، وأتقنها قراءة، وإن لم يتقنها كتابة أو حديثًا. وكان بقية عمره كثير القراءة فيها، ولكنه اقتصر على قراءة أبحاث المستشرقين وكتب الاجتماع والمنطق والفلسفة، خاصة كتب برتراند راسل وجود اللذين كان يعجب بهما. وكانت تستهويه العقلية الأنجلوسكسونية ومنطق الإنجليز ونمط عيشهم وأخلاقهم وتحفظهم في إصدار الأحكام، ويفضل ما يكتبون على ما يكتبه اللاتينيون. بل إنه كان دائمًا يشعر أثناء زياراته لفرنسا، أو بين جمع من الفرنسيين، بأنه كالسمكة خارج الماء.

وكنت أعجب لقلة نظره، نسبيًّا، في الشعر العربي، وضعف تعلقه به واحترامه له. فهو يستنكر منه غلبة المدح، وبذاءة الهجاء، وجعجعة الفخر، وتكلف المشاعر، وزيف الوصف. وأعتقد أن زكي مبارك كان محقًّا حين اتهم والدي بالعجز عن استساغة الشعر العربي، وبأن تفضيله المعلن لابن الرومي وأبي العلاء على سائر الشعراء ليس تفضيلًا مخلصًا حقيقيًّا، وإنما جاء اتباعًا لرأي العقاد في الأول، وطه حسين في الثاني، وتسليمًا بحكميهما على الشاعرين.

أما أحب كُتَّاب العربية إليه فهو أبو حيان التوحيدي قبل كل كاتب، يليه الجاحظ فابن عبد ربه. وكان لسبب ما، ربما لاشتراكه في تحقيق الكتاب وعمله فيه مدة طويلة، يفضل «العقد الفريد» على أغاني أبي الفرج. أما مذهب المعتزلة فيفضله على سائر المذاهب، لاعتقاده الخاطئ أن مدرستهم أكثر المدارس الإسلامية التزامًا بالعقلانية والمنطق وحرية الفكر. ولم يكن يتعاطف مع الصوفية التي هي في رأيه أحد أسباب ما أصاب العالم الإسلامي من كوارث وانحطاط. ومع ذلك فالغزالي قريب دائمًا إلى قلبه، وكتابه «المنقذ من الضلال» من أحب الكتب إليه. وقد أدهشه وسَره سرورًا عظيمًا، وأنا أقرأ له في المستشفى «اعترافات تولستوي»، ذلك الشبه الغريب بين الكتابين، وتلك التجربة الروحية الواحدة التي خاضها كل من حجة الإسلام والكاتب المسيحي الروسي.

* * *

وهو يحب الغناء الشرقي ويطرب له، شديد الإعجاب بأم كلثوم، عظيم الاحترام لها. وقد كانت أم كلثوم كثيرًا ما تتصل به تلفونيًّا قبل ساعة أو ساعتين من بدء حفلها الشهري، تسأله في إعراب أو اشتقاق كلمة وردت في قصيدة تغنيها، أو تخبره برأيها في مقال له. غير أنه كان يفضل أسمهان عليها بسبب نبرة الحزن العميقة في صوتها. فإن استمع إلى موال قديم، ظل يهز رأسه طيلة الوقت طربًا. وهو يترنم بهذه المواويل بصوت جميل عميق خافت مرتعش كلما جلس مع أحدنا إلى لوحة الشطرنج واستغرق في التفكير في الخطوة التالية، فالشطرنج هو اللعبة الوحيدة التي يعرفها، علمنا إياها وأتقناها وصرنا نغلبه فيها. وكان يعجب إعجابًا ساذجًا بمنولوجات ثريا حلمي، ويغني معها إذا استمع إليها في المذياع: «فتح يا بني فتح، شوف مين بيكلمك!». أما عن السينما فلا يزورها غير مرة في السنة أو السنتين، فإن قصدها فمقعده دائمًا في الصف الأول أو الثاني قرب الشاشة، حتى يستطيع أن يميز ما يُعرض، ولا يذهب لمشاهدة غير فيلم مصري. وهو يفضل المسرح،

خاصة إن كانت المسرحية لشوقي أو عزيز أباظة أو محمود تيمور، وكان من بين ممثليها صديقه الممثل القدير أحمد علام.

وهو لا يمارس شيئًا من الرياضة البدنية غير السير على الأقدام والسباحة، حتى أصيب بالجلطة فحرم من كليهما. غير أنه في شبابه كان شديد الشغف بالمشي لمسافات طويلة عند جبل المقطم، وفي صحراء مصر الجديدة، أو في عزبته التي اشترك مع الدكتور السنهوري في شرائها. وهو لا يروقه شيء كمنظر غروب الشمس في الريف أو على شاطئ البحر، يخرج إليه لمراقبته، ويفضل الغروب على الشروق أيضًا لما يوحي به الأول من مشاعر حزينة لا يوحي بها شروق الشمس.

* * *

أحب أصدقائه إليه الدكتور السنهوري: كل منهما يرتاح إلى ذلك الالتزام الصارم بالمنطق لدى الآخر، والبعد عن الهوى عند إطلاق الأحكام. وكان السنهوري يحب الاستفادة من رسوخ قدم والدي في التاريخ الإسلامي والأدب العربي، فهو يعشقهما دون أن تسمح له دراساته القانونية بوقت طويل يقضيه في القراءة فيهما. وكان والدي يحب الاستفادة من إلمام السنهوري بالقانون الذي اشتغل به أبي زمنًا ثم انصرف عنه كلية إلى التاريخ والأدب. وكانت المكالمات التلفونية بينهما تستغرق عادة ما بين ساعتين أو ثلاث! إن اتصل السنهوري به مساء هرعنا إلى إعداد مقعد لوالدي بجانب التلفون، وأحضرنا له علبة سجائره والكبريت وكوب ماء وكل ما قد يحتاج إليه خلال الساعات التالية، ثم نحييه منصرفين إلى حجراتنا على أن نراه في الصباح! كل ذلك قبل أن يلتقط أبي السماعة ليبدأ مكالمة لا يعلم غير الله متى تنتهي!

وقد كان، على حد علمي، على علاقة طيبة بجميع أدباء عصره، ولا أذكر أنه كان بينه وبين أحدهم ما يشبه الخصومة غير زكي مبارك، بسبب سلسلة طويلة من المقالات نشرها الأخير في مجلة «الرسالة» بعنوان: «جناية أحمد أمين على الأدب العربي»، يرد فيها على سلسلة أخرى طويلة من المقالات نشرها والدي في مجلة «الثقافة» بعنوان: «جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي». أما الأديب الأثير عنده فأشبههم به خلقًا وطباعًا، وهو محمود تيمور. وكثيرًا ما كان يجتمع بتوفيق الحكيم، سواء في مقهاهما المفضل على البحر بالإسكندرية في أشهر الصيف، أو في اجتماع كل خميس في مقر لجنة التأليف والترجمة والنشر، حيث كانت تلتقي نخبة من مفكري مصر وأدبائها وعلمائها ورجال التربية فيها. وقد كان والدي يأذن لي، وأنا بعدُ صبي في المرحلة الابتدائية من دراستي، بحضور تلك الندوات. وأذكر أني كنت كلما استفسرت من توفيق الحكيم عن كتب أقرأها، أو آداب ينصح بأن أغترف منها، أسر إليَّ بالنصيحة أن أركز كلية على الآداب الغربية دون الأدب العربي، «اللهم إلا إن شئت أن تتمكن من اللغة العربية، فلا بأس من النظر بين الفينة والفينة في «العقد الفريد» أو «الأغاني»»، طالبًا مني وهو يضحك أن أكتم أمر هذه النصيحة عن والدي حتى لا يغضب منه!

أما عن العلاقة بين أبي وطه حسين فأمرها خلاف أمر علاقته بهذا أو ذاك. كان كل منهما في شبابه يعشق صحبة الآخر عشقًا، ولا يجد الراحة إلا في حضرته. وكانت أفضال طه حسين على والدي كبيرة، ليس أقلها أنه هو الذي رتب نقل والدي من القضاء الشرعي إلى كلية الآداب عام ١٩٢٦، حيث وجد والدي في النهاية، وبعد طول تجارب، مجاله الطبيعي. غير أن فترة تولي والدي لمنصب عمادة كلية الآداب، أصابت صداقتهما بضربة لم يُفِق منها حتى مات. فقد أراد طه حسين، وهو المدرك تمامًا لأياديه السابقة على والدي، أن يسيطر على أمور الكلية أثناء عمادة والدي لها، بينما أبى والدي إلا أن يصرف هذه الأمور وفق ما يمليه عليه عقله وضميره. فكان أن اتهمه طه حسين بالجحود، وكان أن تنكر له وازورَّ بوجهه عنه، وكان أن ماتت صداقة يندر أن نجد في يومنا هذا مثيلًا لقوتها وخصوبتها.

إلا أن الاتصال بينهما عاد وديًّا قرب النهاية، حين أصيب والدي في عينيه ورقد طويلًا بالمستشفى. وكان لطه حسين مرة أخرى فضل البدء بالمصالحة، فقد أتاه يزوره في المستشفى، وكان اللقاء بينهما الذي حضرته مؤثرًا إلى أبعد حد. وإن أنسَ لن أنسى منظر طه حسين الضرير وهو يدخل حجرة المستشفى يقوده سكرتيره من ذراعه، وإذ يسمع أبي، وهو معصوب العينين، صوته، يمد يده في لهفة في اتجاه الصوت، فأُمسك أنا بيد والدي، ويمسك السكرتير بيد طه حسين، حتى تلتقي اليدان، فيتصافحان.

ثم صداقة قوية أخرى كانت تربطه بقانوني بارز آخر، وإنسان عظيم، هو عبد العزيز باشا فهمي. وكان والدي يكثر من زيارته وهو طريح الفراش في منزله بمصر الجديدة، ويصطحبني إليه. فعبد العزيز فهمي يحمل لوالدي مودة عميقة، ويكنُّ أعظم الاحترام لخلقه القوي، ويرتاح إلى طبعه الهادئ. وكنت أعجب أثناء استماعي إلى الحديث لتلك المرارة التي شعر بها عبد العزيز فهمي تجاه سعد زغلول، حتى بعد مرور نحو عشرين عامًا على وفاة الأخير. ولم يكن والدي يكنُّ إعجابًا ضخمًا لسعد زغلول يدفعه إلى معارضة فهمي وتخطئته. وأذكر يومًا زرنا الرجل فيه، فرأينا إلى جانب فراشه هرمًا عظيمًا من نحو سبعين من علب سجائر البستاني كتب على ظهرها عبد العزيز فهمي بخط مرتعش قصيدة طويلة صعبة من ثلاثمائة وستين بيتًا في ذم الحياة، وفي مختلف أوجه القصور في حياتنا المصرية (نشرتها لجنة التأليف والترجمة والنشر فيما بعد في كتيب مستقل). وأحب المضيف أن يسمع ضيفه القصيدة. وإذ كان كل منهما ضعيف البصر، فقد طلب المضيف إليَّ، وأنا بعدُ الطالب بالمدرسة الثانوية، أن أنشدها، مقدمًا إليَّ علبة على إثر علبة. وكان أن وجدت في القراءة صعوبة لم أجد صعوبة مثلها في شيء من قبل أو من بعد، وتكرر وقوعي في الخطأ وتلعثمي، ووالدي ينظر إليَّ بين الحين والحين نظرة غاضبة تكاد تلتهمني التهامًا. فلما تركنا منزل الرجل، ظل أبي في السيارة طوال رحلة العودة إلى منزلنا يكرر في حزن:

كان طويلًا عريضًا قوي البنية، ولا أذكر أنه عانى قبل الستين إلا من ضعف البصر ومرض السكر. وقد استعان على الأول بقارئ يقرأ له لعدة ساعات في اليوم، فإن انصرف قرأ له أحد أبنائه أو تولى القراءة بنفسه، لا يكاد يفصل بين الكتاب ونظارته السميكة للغاية غير ثلاثة سنتيمترات. كما استعان على مرض السكر بنظام في الأكل صارم، وحقن الأنسولين كل صباح ومساء. غير أنه أصيب في الستين بانفصال في شبكية العين، واضطر إلى الرقاد على ظهره في المستشفى ثلاثة أشهر معصوب العينين، لا يتحرك يمنة أو يسرة بأمر الطبيب. وقد خرج من هذه الرقدة إنسانًا غير الذي كان، ليس فقط لأن العملية لم تنجح وكادت البقية الباقية من بصره أن تذهب أدراج الريح، ولكن حالته الصحية والمعنوية بصفة عامة تدهورت هي الأخرى تدهورًا شديدًا سريعًا. فسرعان ما أصيب بالجلطة في ساقه وبشلل نصفي، وصادف ذلك المرض إحالته إلى المعاش لبلوغه الستين، وانفضاض جمع من حوله كان يظنهم من مريديه فإذا هم من مريدي الانتفاع من وراء صلتهم به حين كان في وسعه أن ينفع. وكان يحزن أشد الحزن حين كان يجد صندوق بريده في الأعياد خاليًا إلا من بطاقة تهنئة أو بطاقتين، في حين كان ساعي البريد منذ زمن غير بعيد يأتيه بالبطاقات والرسائل أكوامًا مكومة. بل إنه حتى بعض أصدقائه المخلصين قل اتصالهم به وسؤالهم عنه وزياراتهم له بعد مرضه، واكتفى البعض بمكالمة تلفونية بين الفينة والفينة. وكان هذا التنكر له منهم، من أكبر منغصات سنواته الأخيرة.

كان وقتها إذا دق جرس التلفون في البيت، هرع إليه في لهفة وهو يتحامل على ساقه المريضة عسى أن يكون المتحدث صديقًا له. فإن لم تكن المكالمة له، نادى على المطلوب منا وناوله السماعة وعاد إلى مقعده حزينًا يجر ساقه خلفه. ولا أزال أذكر يوم عيد لم يزُره فيه للتهنئة غير شاب مخلص من طلبته في الجامعة، هو الدكتور إحسان عباس، فزادت هذه الزيارة المفردة من إحساسه بالوحشة والمذلة، وأبى أن يستقبل ضيفه.

وفي مساء يوم ٢٩ رمضان، عام ١٩٥٤، كان قد أنهى استعداده للسفر إلى الإسكندرية في اليوم التالي لبدء إجازته الصيفية، وجلسنا معه في شرفة الطابق الأعلى من المنزل نتحادث إلى ساعة متأخرة من الليل. وكان في حالة نفسية مطمئنة منبسطة. وفي الصباح، أصابته الذبحة الصدرية. واستدعينا الطبيب، فلم يحضر إلا بعد أن كان قد مات.

على الرغم مما ذكرته من أنه لم يحاول قَطُّ فرض اهتماماته وآرائه ومنحى تفكيره علينا، وعلى الرغم من انشغاله ساعات طوالًا بالقراءة والكتابة، وبنشاطه في الحياة العامة، فقد ترك في نفوس أبنائه، وربما تلاميذه، أثرًا عميقًا لا يعرف حدًّا، وهو تأثير قائم فيمن ورث عنه منا عزوفه عن السياسة واهتمامه بالدراسات الإسلامية أو من لم يرثهما، وفيمن تدين أو لم يلعب الدين دورًا رئيسيًّا في حياته، وفيمن خلفه عند وفاته رجلًا أو صبيًّا. فموقفنا جميعًا من الحياة هو في جوهره نفس موقفه الأخلاقي الجاد، ومن السلطة - أي سلطة - هو نفس موقفه وتمسكه بحرية الرأي. وقد تأثرنا بمعاشرة هذا الإنسان العظيم عن قرب، حتى بات من الصعب علينا بعده أن نحترم في أيامنا هذه رئيسًا وقد رأينا رئاسته، أو كاتبًا وقد شهدنا موقفه الجاد من صنعة الكاتب، أو مسؤولًا في الحياة العامة وقد خبرنا إخلاصه وتفانيه في نهوضه بالمسؤولية. فالمثل الإنجليزي يقول: «إياك إياك أن تستأجر خادمًا خدم عند من كان يفضلك»... ولم يرَ أولاده بعده من يفضله. رحمه الله.

تذييل

سر الخلاف بين والدي وطه حسين

من بين الأوراق التي خلفها والدي عند وفاته، كراسة صغيرة من ست وعشرين صفحة، يحمل غلافها العنوان التالي: «قصة العمادة، أو حوادث سنة ١٩٤٢». والكراسة في حوزتي، قد سجل فيها والدي بخطه في نحو ألفَي وستمائة كلمة قصة وأسباب الخلاف الذي دب بينه وبين الدكتور طه حسين خلال الفترة التي تولى والدي فيها عمادة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (القاهرة).

ويتضح من دراسة هذه المخطوطة أمران:

الأول: أنه كتبها لنفسه لا للنشر، بدليل الطابع الشخصي الغالب، وضعف عنايته بأسلوبها ولغتها، وإشاراته دون إيضاح إلى شخصيات مجهولة عند الجمهور، كإشارته إلى زوج أختي في عبارة «وتحت إلحاح عبد العزيز...»، وإلى سكرتير لجنة التأليف والترجمة والنشر في عبارة «وفي ١٨ أكتوبر كلمني عبد المتعال أفندي في التلفون قائلًا...»، إلى آخره...

الثاني: أنه كتب نحو أربعة أخماسها دفعة واحدة (ربما في أوائل عام ١٩٤٣)، ثم ظل يضيف فقرات تتناول ما يجد بصدد علاقته بطه حسين حتى وقت انقطاع المخطوطة في نحو أواخر ١٩٤٣.

وفيما يلي نص المخطوطة، مع بعض إيضاحات أضفتها للضرورة ووضعتها بين أقواس، وتعليقات تبدأ بحرفَي «ح. أ». هذا ولم أحذف من النص غير اسم أستاذ سابق بكلية الآداب، اتهمه والدي بالدس بينه وبين طه حسين، مكتفيًا بالحرفين الأولين من اسمه.

قصة العمادة

> في ١ أبريل سنة ١٩٤٠، اختِرت عميدًا لكلية الآداب، عقب تعيين الأستاذ شفيق غربال وكيلًا مساعدًا لوزارة المعارف، وكان الترشيح بانتخاب أعضاء مجلس الكلية، فنلت ١٦ صوتًا، ونال مصطفى بك عامر ١٥ صوتًا، والدكتور [محمد] عوض والأستاذ [عبد الوهاب] عزام كل منهما ٨. وقد أيدني في هذا الترشيح الدكتور طه [حسين]، وعمل على تزكيتي في الخارج الدكتور [أحمد عبد الرزاق] السنهوري وكان وكيلًا لوزارة المعارف. وكان وزير المعارف إذ ذاك [محمود فهمي] النقراشي باشا، وكان له من الفضل عليَّ في هذا الموضوع أنه بمجرد أن أُبلغ بنتيجة الانتخاب، وافق على تعييني عميدًا بعد ساعتين من الانتخاب، وأَبلغ ذلك لإدارة الجامعة في يومها.

«ح. أ»: يقضي نظام الجامعة بأن يختار مجلس الكلية ثلاثة من بين أساتذتها، تُرفع أسماؤهم إلى وزير المعارف لاختيار أحدهم عميدًا للكلية، ومع فوز والدي بأغلبية الأصوات، وعلى الرغم من صلته الوثيقة بالنقراشي باشا، فقد كان في اختيار النقراشي له مفاجأة له. «فأنا رجل دخيل على

الجامعة بحكم تربيتي الأزهرية الأولى، وتربيتي شبه الأزهرية في مدرسة القضاء. وأنا رجل لم أتعلم في جامعة مصرية ولا أجنبية، وأنا رجل لم يتعلم لغة أجنبية إلا ما تعلمته من اللغة الإنجليزية بعناء وبقدر محدود. فكيف أُختار لهذا المنصب وأرأس الأساتذة الأجانب والأساتذة المصريين ممن تعلموا في الجامعات الأوروبية ونحو ذلك؟». («حياتي»، دار الكتاب العربي، بيروت، ص٢٤٨). وقد ورد في ذلك الكتاب أن تاريخ تعيينه عميدًا هو أبريل ١٩٣٩، والصحيح ما أثبته في المخطوطة.

> وقد حمدت الله على هذا لأنه جاء مكافأة حسنة لجدي في عملي. ولكن سرعان ما أحسست بهمٍّ يملؤني من تصور مسؤوليتي نحو الأساتذة والطلبة والطالبات، وما تتطلبه العمادة من انصراف لها عن المجهود العلمي الذي أبذله، وضعفي في اللغة الإنجليزية فيكون بعض العسر في التفاهم مع الأساتذة الأجانب.
>
> وسرت مستعينًا بالله، فأبديت حزمًا وعدلًا ونشاطًا في تسيير الأمور بما يمكنني. وانتظمت الأمور وسارت سيرًا حسنًا. وكان مركزي في مجلس الجامعة، وعلاقتي الشخصية بعبد الرحيم عثمان سكرتير الجامعة تساعد على سير كل ما أطلب من الإدارة، وعلاقتي بوكيل المعارف [السنهوري] تساعد على تسيير ما أطلب في وزارة المعارف.
>
> وجرت العلاقات بيني وبين الدكتور طه حسنة لما بيننا من صداقة قديمة، ولإقراري بجميله في مساعدتي في الانتخاب.

«ح. أ»: لم يقتصر فضل طه حسين على والدي على مساعدته في انتخابات العمادة. فهو الذي سعى حتى نقل والدي من القضاء الشرعي الذي لم يستسِغه قَطُّ إلى التدريس في كلية الآداب. كتب طه حسين عن هذا يقول: «... وهو في أثناء هذا كله (أي عمله في القضاء الشرعي) قلِق لا يعرف اطمئنانًا ولا استقرارًا، ويلتمس نفسه في كتب الفقه وفي علوم الدين كلها فلا يجدها، ولا يجدها في ذلك التعليم المحدود ذي الآفاق الضيقة الذي كان يلقى في مدرسة القضاء. وهو يحاول أن يخرج من حياته تلك التي أضل فيها نفسه، فيتصل ببيئات المطربشين، وينشئ معهم لجنة التأليف والترجمة والنشر، ويأخذ في تعلم اللغة الإنجليزية. ويخيل إليه أن الأمد بينه وبين نفسه قد أصبح قريبًا. ولكنه على ذلك يلتمسها فلا يظفر بها. وألقاه في يوم من أيام حيرته تلك، وإذا هو ضيق بعمله في القضاء أشد الضيق، وإذا هو طامح إلى شيء مجهول لا يحققه ولكن طموحه إليه شديد. كل ما يعنيه هو أن يخرج من حياته تلك التي لا يستطيع عليها صبرًا. ونفترق في ذلك اليوم وقد أزمعت في نفسي أمرًا، فإذا كان الغد تحدثت بما في نفسي إلى أستاذنا الجليل أحمد لطفي السيد، فإذا كان المساء دعوت أحمد إلى لقائي، وعرضت عليه التعليم في الجامعة، فيشك غير طويل، ثم يستجيب. ولا يكاد يستقر في كلية الآداب شهرًا وبعض شهر حتى يجد نفسه تلك التي طال البحث عنها وشقي بالتماسها أعوامًا طوالًا». (من مقال «أحمد أمين العالم» في كتاب «أحمد أمين بقلمه

وقلم أصدقائه»، لجنة التأليف، ١٩٥٥). وقد أكد أحمد أمين هذه القصة في «حياتي» ص١٩٩. وكان تعيينه مدرسًا بكلية الآداب عام ١٩٢٦، وكان وقتها قاضيًا بمحكمة الأزبكية بالقاهرة.

بدء الخلاف

ولكن سرعان ما بدأت العلاقات بيني وبينه تفتر. وسبب ذلك - على ما يظهر لي - أنه كان يتوقع أن أعمل في الكلية حسب إشارته وطوع أمره. ولكن هذا ليس من طبعي. فأنا متأثر بالقضاء، أتحرى العدل وأطالب به وأعمله مهما كانت النتائج. فلما خالفته في رأيه وعملت على تنفيذ ما أراه الحق، غضب وتغير، وبدأت الأمور تجري مجرى الخصومة.

وأذكر من هذه الحوادث الأولى أنه أراد أن يرقي [سليمان] حُزين أستاذًا مساعدًا للجغرافيا على الرغم من [إرادة] قسم الجغرافيا، وكتب بذلك تقريرًا مع أن هذا من اختصاص قسم الجغرافيا، وقسم الجغرافيا يرشح [عبد المنعم] الشرقاوي. وعرضت الأمر على مجلس الكلية، وأيدت ترشيح الشرقاوي، وخرجت الأغلبية له. فغضب طه وقال في المجلس بأعلى صوته: «إنكم تلعبون!»، فغضبت من ذلك، ورفعت الجلسة.

وكذلك من أوائل ذلك مسألة عبد الرحمن بدوي، إذ لم يقيد اسمه للماجستير، وأراد أن يدخل الامتحان من غير أن يقيد لمدة سنة كما هو نص اللائحة. فعرضت الأمر على مجلس الكلية، فأجله إلى سنة. ولم يكن الدكتور طه حاضرًا. وكان لبدوي هذا علاقة ببعض الوزراء، فرجوني فلم أقبل، فرجوا الدكتور طه، فطلب أن تعرض المسألة على مجلس الكلية من جديد، فوافقت، وأخذ الرأي على فتح باب المناقشة من جديد أولًا. وحضر الدكتور طه في هذه الجلسة ليظهر نفوذه، فكانت هناك ٨ أصوات بفتح باب المناقشة و٨ للرفض، فأيدت الرفض، وغضب طه.

وكانت له رجاءات في المجانية، قبلت بعضها ورفضت بعضها لعدم استحقاقهم، كل ذلك أغضب طه، فاتخذ شكل الخصومة، ووقف موقف المحارب.

ويمكن تلخيص أسباب هذه الخصومة فيما يلي:

(١) أنه يريد فرض إرادته على من يشتغل معه، فإذا خالفه في أمر ناصبه العداء. وهكذا مع شفيق غربال إذ رفض له قبول طالب مجانًا فثار عليه ولم ينقذ الموقف إلا نقله [أي نقل غربال إلى وزارة المعارف].

(٢) ترحيبه وتشجيعه لمن ينقل إليه كلامًا ولو مختلفًا. وقد قام بهذا الدور في حقي حبيب الذي كان سكرتيرًا، و«أ. أ»، فكانا ينقلان ويختلقان.

(٣) أظن أن الغيرة كانت تعمل عملها، فالنجاح في العمادة الذي وُفقت إليه أثار شيئًا من الغيرة، وهذا طبيعي.

بعد ذلك طلب الدكتور طه ترقية كامل حسين إلى [درجة] مدرس. فعرضت المسألة بكل

أمانة وإخلاص على مجلس الكلية فرفض المجلس ذلك لعدم كفايته. فثارت ثائرة الدكتور كيف يرشح شخصًا بصفته رئيسًا لقسم اللغة العربية ثم يرفض مجلس الكلية قوله وإشارته. فخاصم المجلس، واستقال من رياسة قسم اللغة العربية، وهاج لذلك هياجًا شديدًا.

وكان مثل هذا الدور تمامًا يمثل في وزارة المعارف، إذ كانت علاقته بالدكتور السنهوري كعلاقته معي، فأراد أن يملي إرادته في وزارة المعارف فأبى السنهوري، فكانت الخصومة. وقد أصلحت بينهما مرتين فدام الصلح أيامًا ثم عاد إلى ما كان. فأدركت أن السبب لا يمكن علاجه لأنه يرجع إلى الطبيعة لا إلى سبب ظاهري، فامتنعت عن السعي في الصلح، فكان هذا مما أخذه عليَّ أيضًا الدكتور طه.

وهكذا شأنه في المجمع اللغوي، عملت مراقبة الثقافة أعمالًا فاعترض رئيس المجمع على عملها من دون علمه، ورشح الدكتور طه عبد العزيز أحمد لعمل في المجمع فلم يوافق المجمع عليه، فآلى الدكتور طه أن يخاصم المجمع وألا يحضر جلساته. وهو لا يحضر المجلس إلى اليوم.

(٤) ومن الأسباب أن خُلُق الدكتور طه هو الحاجة إلى تدليل دائم، فهو يريد الشيء ويتظاهر بأنه لا يريده. وأقرب الناس إليه من يدلِّله فيرجوه في قبوله، وهكذا. وقد ضاق صدري من هذا لإفراطه فيه وعدم قدرتي على مجاراته. وقد جربت ذلك في مواقف عدة.

مزاجان مختلفان

وعلى الجملة فمزاجانا مختلفان.

هو يعمل للشهرة وأنا لا أحبها ولا أحب الظهور، وعندي نزعة صوفية تهزأ بكثير من مظاهر الدنيا.

وهو يقيس الأشياء ويحكم عليها بشخصه فلا يتحرج من أن يكيل للمقربين إليه ما يشاء ولو لم يستحقوا، ويحرم المبعدين منه ولو استحقوا. وعنده المحسوبية لا إلى حد. وطبيعتي طبيعة القضاة في العمل على ما أعتقده مبدأ وعدلًا وحقًّا، وكذا السنهوري. وهو يعمل حزبيًّا وأنا أعمل قوميًّا أو إنسانيًّا. وهو يتعالى ويترفع وأنا أتواضع في إباء. وهكذا اختلفت طبائعنا وأمزجتنا مما جعل العلاقة بيننا فاترة.

«ح. أ»: ناقض أحمد أمين نفسه بصدد هذه النقطة الأخيرة، إذ فسر في كتابه «حياتي» ص٢٥١، ٢٥٢، الصداقة والألفة بينه وبين طه حسين باختلاف مزاجيهما وطبيعتيهما. كتب يقول: «هو أقرب إلى المثالية، وأنا أقرب إلى الواقعية. وهو فنان يحكمه الفن، وأنا عالم يحكمه المنطق. وهو يحب المجد ويحب الدَّوي، وأنا أحب الاختفاء وأحب الهدوء. وهو مغالٍ في الحكم على

الأشخاص وعلى الأشياء، وأنا بطيء. وهو عنيف إذا صادق أو عادى، وأنا هادئ إذا صادقت أو عاديت. وهو واسع النفس أمام الأحداث، وأنا قلِق مضطرب غضوب ضيق النفس بها. وهو ماهر في الحديث إلى الناس فيجذب الكثير، وليست عندي هذه المقدرة فلا أجتذب إلا القليل. وهو في الحياة مقامر يكسب الكثير في لعبة ويخسره في لعبة، وأنا تاجر إن كسبت كسبت قليلًا في بطء وإن خسرت خسرت قليلًا في بطء. يحب السياسة لأنها ميدان المقامرة، وأنا لا أحبها إذ لا أحب المقامرة. ولعل هذا الخلاف بيننا في المزاج هو الذي ألَّف بيننا، فأشعره بأنه يكمل بي نقصه وأشعرني بأني أكمل به نقصي».

الضيق بالعمادة

بعد مضي سنة عليَّ في العمادة أحسست بضيق منها. وكانت وزارة المعارف للدكتور [محمد حسين] هيكل باشا، فرجوته أن يعفيني منها فأبى. وكان ذلك في أوائل الإجازة الصيفية. وكررت ذلك في أوائل السنة [الدراسية، أكتوبر - نوفمبر ١٩٤١]. وكان علي باشا إبراهيم مديرًا للجامعة جديدًا، وكتبت له الاستقالة فأبى بحجة أن هذا يُعد مظهرًا لعدم الرغبة في التعاون معه. فمضيت السنة الثانية. وفي آخرها كانت الوزارة الوفدية قد أتت، ووُلي وزارة المعارف نجيب الهلالي. فكررت عليه الاستقالة فأبى، وألححت فوعد بالنظر في ذلك بعد الإجازة، واعدًا لي بأنه سيعمل كل ما يريحني.

وكانت رغبتي في الاستقالة مبنية على أسباب:

(١) أني شعرت بتفاهة العمادة، فأوراق تُقرأ وتُمضى في أشياء تافهة، مما يصرف عن العمل الجدي.

(٢) كثرة الرجاءات من الطلبة في المجانية، ومن هيئة التدريس في العلاوات والترقيات وفي قبول الطلبة ونحو ذلك مما لا يُحصى. وأصبح صدري ضيقًا بهذا الرجاء، أنفر منه وأشمئز ولا أرتاح له، وقد أغضب الناس في صدهم، وكثيرًا ما حدث ذلك.

(٣) أسفي على حرماني من لذة القراءة والتأليف، وهي في نظري أجدى وأنفع.

«ح. أ»: في «حياتي» ص٢٤٩: «هأنذا في عمادة كلية الآداب، قد شُغل وقتي كله بأعمال إدارية أكثرها لا قيمة له. فكل الأوراق تُعرض عليَّ حتى شراء مكنسة، وكل أعمال الطلبة والأساتذة تُعرض عليَّ حتى الكلمة النابية يلفظها طالب، إلى شكاوى الطلبة وما أكثرها! وتزاحم المدرسين والأساتذة على العلاوات والدرجات وتسوية الحالات وما أصعبها! فكان هذا شغل وقتي حتى لا أستطيع أن أفرغ للعلم إلا قليلًا، ولا أن أفرغ للنظر في المسائل الأساسية كمناهج التعليم وطرق التربية إلا بقدر. وهذه عدوى من نظام الحكم في مصر حيث تتركز الأعمال كلها في يد رئيس المصلحة، وما كان أحرى بالجامعة أن تتخلى عن ذلك، وتوزع الاختصاص ويتفرغ العميد للمسائل المهمة. ولكن أنَّى لنا ذلك!».

كل هذا جعلني أتمنى الظرف الذي يتيح لي أن أخرج من العمادة في رفق وهدوء... والناس حولي وأهلي لا يفهمون ذلك، ويودون بقائي عميدًا، لما يتبعها من الوجاهة التي أراها تافهة، ولما يقضون من وراء ذلك من منافع شخصية تافهة في نظري، كالوساطة في قبول أولاد الناس بالمجان ونحو ذلك.

تدخل نجيب الهلالي في شؤون الجامعة

فلما جاءت حكومة الوفد [فبراير ١٩٤٢] شعرت بأن الجو لا يلائمني كثيرًا، وأنا طول حياتي لم أنتمِ إلى حزب ولم أعمل بحزب.

شعرت بأن نجيب الهلالي وزير المعارف يتدخل في شؤون الجامعة من غير طريقها المعتاد، فلا يعبأ بمجلس الجامعة ولا بإدارتها، ويتصل بمن شاء أن يتصل به فيما يريد.

وقد حدث أن قابلته مرتين لهذا الغرض، وشرحت له خطر ذلك على استقلال الجامعة، مرة على إثر تشريع تخفيض نسبة النجاح، فقلت له: «إني أشعر باستقلال الجامعة يُهدم بهذه الطرق». فأكد لي أنه حريص على استقلال الجامعة حرصي، وأن مجلس الجامعة كثيرًا ما يخطئ ولا يبني حكمه على دراسة صحيحة، فقلت: «إن كان يخطئ فالبرلمان يخطئ ولا من يقول بإهماله. ومعاليك رئيس الجامعة يمكنك أن تحضر في المجلس أو تنيب عنك من ترى عند نظر المسائل الهامة، وتشرح وجهة نظر الوزارة، وتسمع وجهة نظر المجلس، وبعد ذلك لك تمام الحرية القانونية في أن تعمل ما ترى». واعتذر بأنه يأخذ رأي مدير الجامعة في كل ما يعمل، فقلت: «إن مدير الجامعة غير مجلس الجامعة، وموافقة المدير لا تجزئ».

وأخيرًا، وبعد مناقشة طويلة وإظهار رغبتي في الاستقالة، كلمني كلامًا طريفًا في تقديره لي، وثقته بي، والعمل لخير الجامعة ووعدني من الآن ألا يعمل عملًا في المستقبل إلا بعد أخذ رأي مجلس الجامعة. فشكرت له ذلك وانصرفت.

ولكن حدث بعد ذلك بنحو أسبوعين أن اجتمع عنده بعض العمداء وشفيق غربال والدكتور طه، ونظروا في تعديل نظام الامتحان في كلية الحقوق. وأخذ الوزير رأيي في تعديل مثله بكلية الآداب بالتلفون، فأبديت اعتراضي على هذا النظام. ولكني علمت في المساء أنهم أجازوا هذا التعديل، وأرسلوه إلى وزارة المعارف. فلم أنَم هذه الليلة. وفي الصباح ذهبت إلى وزير المعارف، وانتظرته حتى حضر، فدخلت عليه محتجًّا على تشريعه لكلية الآداب من غير حضوري. فاعتذر بأن الاجتماع كان للنظر في تعديل الامتحان في كلية الحقوق ولم يكن من رأيه تعديل الامتحان في كلية الآداب، وأن الدكتور طه هو الذي ألح عليه في ذلك. وأراد أن يبرهن على أنه لم يشأ أن يتعدى على كلية الآداب بأن أعطاني المشروع وأعطاني تمام الحرية في قبوله أو رفضه، بشرط أن أتحمل مسؤولية رفضه إذا هاج

الطلبة. فأخذت المشروع، وعرضته على لجنة الامتحان بالكلية فاستحسنوه بعدما أدخلوا عليه تعديلات داخلية. وانتهى هذا الموقف أيضًا. وقد تبينت أن الأمور ستجري في غير مجراها الطبيعي، وأن الاحتكاك سيستمر في كل خطوة.

وكان أن حدث أن الدكتور طه عُين مستشارًا فنيًّا بوزارة المعارف. وكان الدكتور السنهوري قد تُفوهم معه على أن يُنقل مستشارًا ملكيًّا، فقبِل ولكن حدث أن أحيل فجأة إلى المعاش من غير سبب ظاهر، وعُين الدكتور طه مستشارًا على أن يأخذ ماهيته من درجة الوكيل. فرأيت أن هذا ظلم صارخ للدكتور السنهوري. ولم أبرئ الدكتور طه من هذا العمل الظالم، وإن كنت لم أحدد بالضبط مقدار مسؤوليته. ولكنه على كل حال مسؤول إلى درجة ما. فنفرت نفسي منه لهذا السبب أيضًا.

ولما عُين في الوزارة ظهرت أعراض هدم استقلال الجامعة أيضًا على يده، فهو ينظر كل شيء دون مجلس الجامعة، ويبت في كل شيء. وهذا ما لم أستطع احتماله.

وفي هذه الأثناء لمح لي بأنه يريد التعاون معي، فرفضت. فقد قال لي يومًا إننا سننظر معًا شؤون جامعة الإسكندرية. ورفضت أن أكون عضوًا في مجلس دار العلوم. وقلت له يومًا بالتلفون إنني أرفض كل لجنة وكل عضوية بالوزارة، فكان جوابه: «إني فاهم»، أي أنه فاهم أني رافض التعاون معه. وألح عليَّ بعدُ وزير المعارف أن أقبل عضوية مجلس دار العلوم، فاعتذرت.

وبهذا تَشكل الموقف شكل خصومة وعدم تعاون.

السبب المباشر للاستقالة

وحدث أن وزارة المعارف قطعت خطوات واسعة في إنشاء جامعة فاروق في الإسكندرية، وشاع أنها ترشح بعض [أعضاء] هيئة التدريس من كليات القاهرة لنقلهم إلى الإسكندرية، والشائعات تترامى هنا وهناك، وفيهم بعض المدرسين بكلية الآداب التي أنا عميدها ولا أعرف من ذلك الأمر شيئًا. ولم يخاطبني أحد في أمر من ينقلون إلى الإسكندرية، والمدرسون يذهبون إلى وزارة المعارف، ويرجو بعضهم في النقل، وبعضهم في عدم النقل، ويساوم من يريد النقل على ما يكافأ به، وهكذا. وتترامى إليَّ الشائعات ولا يخاطبني أحد رسميًّا في ذلك. ولكن لم أستطع أن أحتج على هذا لأنه لم يصدر شيء رسميًّا.

وأخيرًا قرأت في «الأهرام» أنه صدر الأمر بتعيين مصطفى بك عامر وكيلًا لجامعة فاروق. فتأثرت جدًّا إذ لم يؤخذ رأيي في هذا وهو أستاذ عندي، والواجب أن يؤخذ رأي رئيس المصلحة فيمن يُنقل من عنده، إن لم يكن قانونيًّا فأدبيًّا. فلم أُطِق الصبر على هذا، وكتبت بعد قليل من قراءتي هذا الخبر جواب استقالتي، وذكرت فيه أن هذه الاستقالة بناء

على إجراء حركة النقل من الكلية.
ومضى يومان أو ثلاثة ولم تُقبل الاستقالة ولم يخاطبني أحد بشأنها. وعلمت أن وزير المعارف كان قد طلب أن يُمرر تعيين مصطفى عامر على مجلس الجامعة، ولكن عبد الرحيم بك عثمان فسر مادة القانون التي تقول «بعد أخذ رأي الجامعة المختصة»، بأن المراد مدير الجامعة لا مجلس الجامعة. ورأيت أن هذا خطأ من جهتين: من جهة أن الجامعة ليس معناها مديرها وإنما معناها مجلسها ما لم يُنص على المدير، وثانيًا، وعلى فرض صحة هذا، فآداب اللياقة والعرف الجاري تقضي بأن يؤخذ رأي رئيس المصلحة [وهو عميد كلية الآداب]، فيمن يُنقل من عنده.
على كل حال صممت على الاستقالة، فلما استبطأتها اتصلت برئيس تحرير «الأهرام» أنطون بك الجميل، ورجوته في نشر خبر الاستقالة لأستحثهم على قبولها. فحدث اجتماع في وزارة المعارف بعد ذلك بيوم، وأُعلن في الجرائد قبول استقالتي؛ وأن مدير الجامعة قبِلها ورفعها إلى الوزير فقبلها، والدلائل واضحة أن عملًا كهذا لم يُعمل من غير أخذ رأي الدكتور طه وإشارته وإيعازه.
وبعد ذلك بأيام كلمني الأستاذ فريد أبو حديد، وأخبرني أنه يسعى لإزالة الخلاف بيني وبين الوزير والدكتور طه، ولرجوع الوزير عن قبول استقالتي، فأبنت له أن ذلك غير ممكن. وأتاني مرة وقال إن الدكتور طه وعده بأن يقيدني على الدرجة الأولى حرف أ، فقال له فريد: «بل أعطِها له فعلًا»، فقبل الدكتور طه بشرط عرض المسألة على الوزير وقبولي هذا الحل. وعرض فريد عليَّ ذلك فأبيت.
وعقب ذلك زارني الدكتور طه في البيت فلم يجدني. ورددت له الزيارة فوجدته. فكلمني في العدول عن الاستقالة، فأبديت له أني مصمم عليها. وكان كلامه كجس نبض، فلم يلح. ولعله كان ينتظر رأي الوزير فإذا وافق ألح. وعلى كل حال أخبرني فريد بعد ذلك أنه كلم الوزير، فقال الوزير لفريد: «وهل أحمد أمين يقبل؟»، فقال فريد: «لا»، فقال الوزير: «ففيمَ الكلام؟»، وأخبرت فريد بعنف أنني لا أقبل مثل هذا الكلام، لأنني صممت على الاستقالة بسبب وهو الاعتداء على الجامعة، فكيف يُحل هذا بإعطاء درجة أو وعد بدرجة؟ إن هذا يسقطني في عيني وأعين الناس.
وإلى هنا انقطع الكلام في هذا الموضوع، وانقطع ما بيني وبين الدكتور طه ثانية. وقاطعت الوزارة، فلم أشترك فيها في لجان ولا في وضع أسئلة ولا امتحان ولا حديث في راديو الوزارة ولا شيء من هذا.
وكتبت مقالًا في «الصداقة والصديق» في [مجلة] «الثقافة»، ذكرت فيها وصف صديق مخلص، وفيها بعض تلميح على الدكتور طه. فرد بطقطوقة في «الأهرام». من غير ذكر

اسمي، ولكن في وضوح، متهِمًا إياي بأني عطفت عليه في بؤسه وحسدته في نعيمه، وأن هذا ومن أنكره في بؤسه وعرَفه في نعيمه كحمارَي العبادي.

وانقطعت بعد هذا الصلة بيننا تمامًا.

«ح. أ»: كتب والدي في ترجمته الذاتية ص٢٥١، ٢٥٢ معلقًا على هذه الأحداث: «وكانت مأساة العمادة أني فقدت بها صداقة صديق من أعز الأصدقاء، وما أقل عددهم. كان يحبني وأحبه، ويقدرني وأقدره، ويطلعني على أخص أسراره وأطلعه، وأعرف حركاته وسكناته ويعرفها عني، ويشاركني في سروري وأحزاني وأشاركه، وكنت هواه وكان هواي، واستفدت من مصادقته كثيرًا من معارفه وفنه ووجهات نظره، سواء وافقته أو خالفته، فأصبح يُكون جزءًا من نفسي يملأ جانبًا من تفكيري ومشاعري. وجاءت العمادة مفسدة لهذه الصداقة لأنه - بحكم طبيعته - أراد أن يسيطر، وأنا بحكم طبيعتي أردت أن أعمل ما أرى لأني مسؤول عما أعمل. ثم ولي منصبًا أكبر من منصبي يستطيع منه أن يسيطر على عملي، فأراد السيطرة وأبيتها، وأراد أن يحقق نفسه بأن ينال من نفسي فأبيت إلا أن أحتفظ بنفسي. فكان من ذلك كله صراع أصيبت منه الصداقة، فحزن لما أصابها وحزنت، وبكى عليها وبكيت».

هذا ولم أعثر لا على مقال والدي «الصداقة والصديق» من بين مقالات المجلدات العشرة من «فيض الخاطر»، ولا على طقطوقة طه حسين في مجلدات أعماله الكاملة، طبعة بيروت.

بعد العمادة

«ح. أ»: بعد سنتين من العمادة لم يؤلف خلالهما والدي كتابًا أو يتمم بحثًا، عاد إلى كتبه ومكتبته ليبدأ في إعداد الجزء الأول من «ظهر الإسلام»، وتحقيق كتاب «الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيان التوحيدي، والاشتراك مع الدكتور زكي نجيب محمود في تأليف كتب «قصة الفلسفة اليونانية»، ثم «قصة الفلسفة الحديثة»، ثم «قصة الأدب في العالم». غير أن تغيرًا هامًّا كان قد طرأ على نمط حياته بعد هجره للعمادة. كتب يقول: «تركت العمادة وعدت أستاذًا، وخَلت يدي من كل سلطة إدارية. وأتت وزارة [الوفد] لا تعدُّني من رجالها، فلم يكن لي شأن في علاوات وترقيات، وليس لي قبول في شفاعات. وإذ ذاك سفَرتْ لي وجوه قبيحة من إنكار الجميل وقلة الوفاء. هذا كان صديقي يوم كنت أستطيع نفعه، فلما سُلبت مني هذه القدرة تَلَمس الوسائل ليكون عدوي، فإن لم يجد أسبابًا اختلقها. وهؤلاء الذين كانوا يتهافتون على إقامة حفلات تكريم لي يوم انتخبت عميدًا فأرفضها، لم يفكروا في إقامة حفلة وداع يوم تركت العمادة. وهذه التلفونات التي كانت تدق كل حين للسؤال عن صحتي، وطلب موعد لزيارتي لإظهار الشوق أولًا، والاطمئنان على صحتي ثانيًا، والرجاء في قضاء مسألة ثالثًا، لم تعد تدق إلا للأعمال الضرورية التي ليس منها سؤال عن صحة، ولا إعلان أشواق. وهذا صندوق البريد الذي كان يمتلئ بالخطابات المملوءة بالطلبات

والرجاوات أصبح فارغًا إلا من خطابات عائلية أو مسائل مصلحية. وهذه أيام الأعياد التي كان يموج فيها البيت بالزائرين من الصباح إلى المساء يهنئون بالعيد، أصبحت كسائر الأيام، أجلس فيها على المكتب فأقرأ وأكتب، ولا سائل ولا مجيب. وهذه صورة للناس لم تكن جديدة عليَّ، فقد قرأت مثلها في الكتب وسمعت عنها في الأحاديث. لكن لعل أسوأها أثرًا في نفسي ما شاهدته من قلة الوفاء في بعض طلبتي: فقد كنت أعتقد أن الرابطة العلمية فوق كل الروابط، وأن حق الأستاذية فوق كل الحقوق. أما أن طالبًا يخرج على أستاذه ويخاصمه، ويقدح فيه بالكذب والأباطيل، فشيء لم أكن رأيته، فلما رأيته استعظمته، وحز في نفسي وبلغ أثره أعماق قلبي، ولم أعد بعد ذلك أثق بالناس كما كنت أثق، ولا أركن إليهم كما كنت أركن». («حياتي»، ص٢٥٥ و٢٥٦).

ونعود الآن إلى ما تبقى من المخطوطة، وهي بضع فقرات واضح أن والدي كان يضيفها كلما جدَّ جديد على صلته بطه حسين، ثم انقطعت فجأة في حوالي ديسمبر ١٩٤٣.

* * *

رسمت لنفسي خطة في التدريس في الجامعة: وهي أن أقصر نفسي على التعليم وعلى أربع حصص أؤديها في يومين، وأذهب قبيل الحصة وأعود بعيدها، وأعتزل حضور مجلس الكلية، ولا أقبل عضوية مجلس الجامعة، وحجتي في ذلك أن وزارة المعارف والدكتور طه سيطرا على كل الأعمال الإدارية، فما شاءا نُفذ، وما لم يشاءا لم ينفذ، فلا معنى إذن لمجلس، ولا خدعة في نظام ديمقراطي الشكل استبدادي المعنى.

وسرت على هذا النظام طول سنة ١٩٤٢ وسنة ١٩٤٣، وأرحت نفسي وانقطعت لعملي العلمي، فعكفت على إنفاذ الجزء الأول من «قصة الأدب في العالم» وأتممته مع زكي نجيب محمود في عام.

* * *

وحدث يوم ٢٩ مايو ٤٣ أن دعتني الست قوت القلوب الدمرداشية للعشاء في بيتها، فأجبت ولم أعرف المدعوين. وذهبت فوجدت وأنا داخل الدكتور طه وأسرته واقفين على مدخل الباب الداخلي ومعهم سعيد بك لطفي [مدير الإذاعة المصرية الأسبق وشقيق أحمد لطفي السيد باشا] وفكري أباظة. فاحترت قليلًا ماذا أصنع. ووجدت الواجب يقضي عليَّ بالتسليم عليهم جميعًا، ففعلت. ولكن الدكتور طه تردد بضع ثوانٍ في مد يده إليَّ حتى اضطر سعيد بك لطفي أن يهتف باسمي لينبهه على الواجب، فمد يده في ارتخاء وبرود. وكنت أظن أن من حولي لم يدركوا هذا المنظر، ولكن علمت بعدها أنهم لاحظوا ذلك، وأن الست قوت القلوب شكت للدكتور مدكور إساءة الدكتور طه إليَّ في بيتها. ومن ذلك الحين صممت ألا أُقرئه سلامًا، ولا أضع يدي في يده.

في يوم ١٣ سبتمبر سنة ٤٣ شعرت بضيق من جو الجامعة، فقدمت طلبًا بالإحالة إلى

المعاش مع معاملتي معاملة بقية الموظفين من إعطائي درجة أستاذ أ، وضم سنتين إلى خدمتي، وإعطائي الفرق بين المعاش والمرتب مدة سنتين. وأقنعت علي باشا إبراهيم بهذا الطلب، فوعدني بمقابلة وزير المعارف سريعًا وإجابته. ولكن مضى زمن طويل ولم أسمع شيئًا. ثم قابلته، فأخبرني أن الوزير يرفض هذا، فقدمت طلبًا ثانيًا أتنازل فيه عن الدرجة، وأكتفي بضم سنتين.

وفي يوم الاثنين ١٨ أكتوبر سنة ٤٣ كلمني عبد المتعال أفندي [سكرتير لجنة التأليف والترجمة والنشر] في التلفون قائلًا إن الدكتور طه يريد أن يقابلني، وهو يسأل عني في اللجنة، ويسأل هل تحضر إلى اللجنة ليزورك. فقلت له: «سأحضر الساعة السابعة»، وفعلًا ذهبت في الساعة المحددة، وحضر الدكتور طه.

فما زال يقنعني بالعدول عن الاستقالة نحو ساعتين حتى عدلت نزولًا على رجائه وتذكيرًا بالصداقة القديمة. وفي هذه الجلسة تعاتبنا طويلًا وأبلغته ما في نفسي مما فعله معي أثناء عمادتي، وما فعله مع الدكتور السنهوري. وقد دافع عن نفسه في كل ذلك طويلًا، ثم انصرف... وفي أثناء الحديث أفهمني أنه اتفق مع الوزير على إعطائي الدرجة، فقلت له: «إن الدرجة ليست محل مساومة، وخير ألا تذكر في الموضع». وأخبرني أن الوزير سيكتب لي خطابًا ردًّا على طلبي يبلغني فيه أسفه لأنه لم يقبل استقالتي حرصًا على مصلحة الطلبة.

وانتهى فصل طلب الإحالة على هذا الوجه. وقد مررت على النقراشي باشا أستشيره فيما تم، فقال إنه لو أُخذ رأيه ما وافق على الاستقالة، فأما وقد تم على هذا الوجه فمن الخير، «ولا بأس إذا هم أعطوك الدرجة، فهذا حقك، ولا محل لتخوفك من أن يُظن بك أنك إنما قدمت الاستقالة رغبة في الدرجة». كما أشار [النقراشي] عليَّ بالتحفظ في العلاقة بالدكتور [طه]. لأنه قد تلون باللون السياسي الواضح.

بعد نحو أسبوعين زرت الدكتور طه ردًّا لزيارته ووجدته في بيته. فمكثت عنده نحو عشر دقائق. وكان الكلام عاديًّا والمقابلة فيها شيء من التحفظ.

بعد نحو ثلاثة أسابيع دعانا الدكتور [أحمد] زكي [المدير الأسبق لجامعة القاهرة] على عشاء أنا والدكتور طه و[عبد الواحد أو عبد الوهاب] خلاف وفريد [أبو حديد] و[الدكتور محمد] عوض. وكانت سهرة لطيفة خفيفة.

وتحت إلحاح ابني [محمد] و[زوج ابنتي] عبد العزيز أفندي رجوته [أي الدكتور طه] في التلفون أن ييسر سبيل البعثة لابني [إلى إنجلترا] ويعين عبد العزيز في المعهد [الثقافي] المصري في لندن، فوعد.

«ح. أ»: وقد أوفى الدكتور طه بوعده بصدد الاثنين.

* * *

إلى هنا تنتهي مخطوطة والدي «قصة العمادة». وقد ظلت العلاقة بين الرجلين طوال السنوات الخمس التالية يشوبها الفتور والتحفظ، حتى أُصيب والدي في عينيه عام ١٩٤٨، فأتاه طه حسين يزوره وهو راقد في المستشفى، وعادت الألفة بينهما إلى مجراها القديم، وأكثرا من التزاور واللقاء. فلما مات والدي كتب طه حسين في رثائه يقول:

«... كانت حياته كلها مغالبة، ولم تستقم له الأمور على ما أحَب في يوم من الأيام مذ كان صبيًّا. كان يريد أن يغير الدنيا من حوله. وليس تغيير الدنيا ميسرًا للناس، ولكنه كان يريد أن يحاول من ذلك ما يستطيع، فيستقيم له التغيير في بيئته الخاصة، وفي بيئته الجامعية بعض الشيء، ويستعصي عليه في بيئات كثيرة كل الاستعصاء، فيسعد قليلًا، ويشقى كثيرًا. فكنت تراه دائمًا قليل الرضا كثير السخط، موزع النفس بين سرور قليل متقطع وحزن كثير يوشك أن يكون متصلًا، حتى أنكر الناس منه كثيرًا من أمره، وحتى نظر إليه زملاؤه وأصدقاؤه نظرة فيها كثير من التحفظ والاحتياط، فكانوا يتحدثون إليه مشفقين من ثورته، أو متوقعين لثورته. وكانوا يتكلفون من الرفق به أكثر مما كانوا يتكلفون حين كانوا يتحدثون إلى غيره من الأصدقاء. وربما تندر به زملاؤه وأصدقاؤه وداعبوه في شيء كثير من الحب والرفق فسموه «العدل» ونادوه بهذا الاسم، وتحدثوا عنه بذلك فأكثروا الحديث، حتى كاد العدل يصبح له اسمًا ثانيًا. ولم يكن لهذا كله مصدر غير تحرجه المتصل، وتحفظه المقيم، وتعرضه لالتماس الصعب من الأمر، وتجنبه ما كان من الأمر يسيرًا قريبًا...».

(من كتاب «أحمد أمين بقلمه وقلم أصدقائه»).

* * *

رحم الله الرجلين رحمة واسعة.

ملحق

مقالات وخواطر

نجاح الأديب وشهرته، هل يفسران أدبه وشخصيته؟

تضاربت الآراء.

فمن قائل (كـ«هيمنجواي») إن النجاح ألد أعداء الأديب:

«فالكتاب الجيد يأتي له بالمال. وما يأتي المال حتى يرفع الكاتب به من مستوى معيشته. وما يرفع مستوى معيشته حتى يبدأ هو وزوجه وأولاده في اعتياده، فيحرص كل الحرص على ألا ينخفض. ويؤدي حرصه ذلك إلى السرعة والإفراط في الكتابة. والإفراط والسرعة في الكتابة يؤديان إلى الإسفاف وهبوط المستوى. وإذ يهبط مستوى كتاباته يخمد حماس النقاد والقراء. وبخمود هذا الحماس تهتز ثقة الأديب بنفسه».

ومن قائل (كـ«سومرست موم») إن النجاح لا يفسد الأديب وإنما يصلحه:

«وهو لا يؤدي به إلى الغرور وتعاظم الإحساس بذاته ورضائه عنها. بل هو يعزز من السمات الطيبة في خلقه، ويضفي عليه تواضعًا وتسامحًا واعتدال مزاج، في حين يميل به الفشل إلى أن يضحي قاسيًا شديد الإحساس بالمرارة، عظيم الحسد لغيره من الكُتَّاب الناجحين، دائم السخط على ما حوله ومن حوله».

* * *

وتضارب الآراء هذا راجع في حقيقته إلى اختلاف طبائع الناس اختلافًا يجعل من الأمر الواحد ضارًّا بهذا ومفيدًا لذاك. فمن المؤكد أن النجاح المبكر والشهرة لم يضرا بأدب تولستوي، أو دوستويفسكي، أو جوته، أو تشارلس ديكنز، أو كبلينج، أو توماس مان، أو آرثر ميلر. كما أنه من المؤكد أنه أفسد فرانسواز ساجان، وشولوخوف، وسكوت فيتزجيرالد، وتينيسي ويليامز، وجون أوزبورن، وكوين ويلسون... كذلك فقد يؤدي فشل أديب معين في إحراز النجاح والشهرة إلى إحساسه بالقهر، وفقدانه الثقة بنفسه، ثم إلى إحجامه كلية عن مواصلة الكتابة؛ وقد لا يؤثر هذا الفشل في إيمان أديب آخر بقدراته وقيمة ما يكتبه، فيكتب لنفسه أو لأجيال تالية هو على ثقة من أنها ستكون أقدر على تقييم أدبه تقييمًا عادلًا.

فالقاعدة في هذا الشأن إذن أنه لا قاعدة، وأن الأمر يتوقف على شخصية الأديب وطبيعة تكوينه. فإن كان قد قيل إن الفراق يقتل المودة السطحية ويزيد المودة الصادقة توهجًا، فكذلك النجاح والشهرة قد يقتلان المواهب الصغيرة والزائفة، ويصقلان الموهبة الحقيقية الضخمة.

المواهب الزائفة

فأما عن صاحب الموهبة الضعيفة أو الزائفة: فهو قد يخرج على الناس بكتاب يلقى بينهم رواجًا عظيمًا، ولا يكون لهذا الرواج والنجاح أدنى صلة بعبقرية أو نبوغ. فقد يكون حاويًا لأسرار

سياسية لا يعلمها غيره، أو وصف رحلة إلى أقطار بعيدة لم تطأها أقدام غالبية قرائه. وقد يكون كتابه جنسيًّا فاحشًا، أو فكاهيًّا رائقًا، أو بوليسيًّا شائقًا، أو عاطفيًّا رومانسيًّا يستهوي قلوب المراهقات والمراهقين، أو شديد التعاطف مع تيار سياسي أو ديني له شعبية كبيرة مؤقتة... حينئذ يلمع اسم الكاتب، وتزيد دور النشر من نسبة مكافآته، وتستجلبه الإذاعة للحديث فيها، والتلفزيون لكتابة التمثيليات المسلسلة له، وتستكتبه الجرائد والمجلات، ويُدعى للاشتراك في ندوات، وإلى إلقاء المحاضرات، وتُجرى معه المقابلات الصحفية، وتسند إليه كتابة عمود يومي أو مقال أسبوعي، ويؤخذ رأيه عند وقوع حدث، ويُمطَر بالأسئلة عن نمط حياته وأسلوب معيشته، وعن ألوان الطعام التي يهواها، والأغاني التي يفضلها، وعلة غرامه بالقطط، وسبب كراهته لارتداء رباط العنق.

وهو إذ يُقبل على كل هذا في نشاط وهمة، إنما يحفر قبره بنفسه... فالساعات التي كان يقضيها في الاطلاع والقراءة تتناقص، فتتضاءل، فتندثر. والمال الذي بات يُغدَق عليه قد نقله من الريف أو مدن الأقاليم إلى العاصمة، أو من وسط شعبي يفيض حياة وكان مصدر إلهام كتاباته الأولى إلى صالونات الأغنياء والأدباء من أمثاله. وقد تَعَرف بسبب نجاحه بعدد كبير من النقاد والكُتَّاب، وأنشأ معهم علاقات شخصية، فباتوا مضطرين اضطرارًا إلى امتداح كل كتاب جديد له، أو الإحجام، على الأقل، عن بيان نقائصه وعيوبه، فيزيده مديحهم الذي يحسبه مخلصًا غرورًا واطمئنانًا إلى استمرار موهبته.

وَعدَّ النَّاسُ ضَرطَتَه غِناءً

وقالوا إنْ فسا قد فاح طِيبُ!

وإذ إن المجلات والصحف ودور النشر وسائر سبل الإعلام يهمها شهرة الكاتب قبل جودة ما يكتبه، فإنها تظل على إلحافها في طلب المقالات والتمثيليات المسلسلة والكتب إلحافًا يوهمه بأنه لا سبب وراءه غير عبقريته. وعموده اليومي في الصحيفة يُملأ، ومقاله الأسبوعي في المجلة يُكتب، وإن لم يكن قد بقي في عقله أفكار جديدة، والبئر لا بد من استخراج الماء منها ولو كانت فارغة. وأصحاب الصالونات من الأغنياء يتهافتون على دعوته لإضفاء البريق على سهراتهم، فيتبدد وقته وتتشتت طاقته الذهنية والروحية بالتردد عليها لسماع الثناء على آخر ما كتب، وأحدث ما نشر. وثمة نساء وفتيات قاصرات العقل يراسلنه أو يستشرنه أو يتزاحمن عليه، ويرين فخرًا أن ينشئن معه علاقة جنسية... كل هذا وغيره أمور من شأنها أن تقتل الموهبة الصادقة بله الموهبة الزائفة، فإذا كل كتاب هو أضعف مما سبقه، وكل مقال أتفه من سلفه. حتى إذا ما صار كقشرة الليمونة قد اعتُصر منها كل ما في جوفها، تعجب وتأفف، وتألم وتذمر، إذ يرى الجمهور وقد تحول عنه فجأة إلى كاتب صاعد ونجم جديد، وإذا مكانه في صفيحة القمامة وهو الذي كان قد أوشك أن يصبح على ثقة من أنه في زمرة الخالدين.

متاع الغرور

لا شك في أن كل هذا كان وراء قولة أنتوني ترولوب الشهيرة إن النجاح هو بمثابة السم الذي ليس من المصلحة تناوله إلا في أواخر العمر؛ وحتى في أواخر العمر فإنه لا ينبغي تناوله إلا في جرعات صغيرة. فالكهل والشيخ أبصر من الشباب بالأمور على حقيقتها، وأصعب انبهارًا بالمتقلب الفاني، وأقل تعرضًا للإصابة بالزهو أو بالإفراط في تقييم متاع الغرور. فإن أخذنا في الاعتبار ذلك الميل المرضي لدى النقاد إلى أن يلعبوا دور يوحنا المعمدان الذي بشر بقدوم المسيح، والتهليل الأحمق ككاتب جديد شاب باعتباره «أمل المستقبل»، و«أعجوبة الزمان»، و«خليفة طه حسين وعباس العقاد»، أدركنا مدى خطورة خمر الثناء المفرط على عقول الشباب الغر. والكثيرون منا قد عاصروا الضجة المفتعلة التي صاحبت صدور رواية «مرحبًا أيها الحزن» لفرانسواز ساجان وهي في الثامنة عشرة، وتمثيل مسرحية «انظر إلى الماضي في غضب» لجون أوزبورن وهو في السابعة والعشرين، وظهور كتاب «الغريب» لكولين ويلسون وهو في الخامسة والعشرين، ثم لمسوا ذلك التدهور الغريب الذي طرأ على ثلاثتهم، وإفلاسهم الذهني الرهيب بعد أن صاروا من مشاهير العصر ونجوم الأدب. كذلك يمكننا تبين هذه الحقيقة من قراءة الروايات الست لجي دي موباسان، ومراقبة انحداره التدريجي من رواية رائعة (حياة)، إلى رواية جيدة (بيل آمي)، إلى ثالثة لا بأس بها (بيير وجان)، إلى رابعة متوسطة (مونت أوريول)، إلى خامسة سيئة (قوي كالموت)، إلى سادسة مشينة قبيحة بالغة السوء (قلوبنا)، وهو انحدار كان يزداد حدة بنمو شهرته، وتعاظم ثروته، وازدياد تزاحم النساء عليه.

مزايا تأخر الشهرة

وأما عن أصحاب المواهب الحقيقية، فما من أدنى شك في أن الشهرة ستكون من نصيبهم، وأنها ستلازمهم بالضرورة ملازمة الظل للإنسان. غير أنها كالظل، تسبق الإنسان أحيانًا وأحيانًا تتبعه. وقديمًا قيل إن معبدها يحوي أمواتًا لم يدخلوه حتى ماتوا، وأحياء سيطردون منه فور وفاتهم. فالكاتب المتميز الفحل، كالمتنبي وشوبنهاور، لا مفر من أن يستثير عند الكُتَّاب من أصحاب المواهب الزائفة مشاعر الحسد والغيرة والخوف والكراهية. فهو كالشمس إذا طلعت «لم يبدُ منهن كوكب» على حد تعبير النابغة الذبياني. وإذ تَصفر وجوههم وتنقبض صدورهم إزاء كل كتاب أو مقال ممتاز يصدر من قلمه، يرون السلامة في التحالف والتآزر من أجل هدمه، والتضافر على تحقيره وإخماد صيته. وقد يلجأون إلى سلاح الصمت للحيلولة دون نيله الشهرة التي ستودي بشهرتهم، فلا يذكرون كتبه بكلمة، ويحرصون على ألا يرِد ذكر اسمه على ألسنتهم، في الوقت الذي يشيدون فيه بكل مقال أو كتاب يصدر عن أمثالهم من أصحاب القرائح العقيمة الجربة، ويمسح بعضهم جوخ بعض كما تتهارش الحمير، مطمئنين إلى أنه لا خطر على شهرتهم من شهرة التافهين الأراذل.

على أن تأخر شهرة المجيد الموهوب هو في الغالب خير له وإن كرهه وتألم له. فهو بتأخرها قد تجنب لسنوات طويلة ما تحدثنا عنه من أخطار الثروة والغرور، والصالونات والنساء، وهجره لمصدر إلهامه وبيئته الطبيعية... لا زال وقته ملك يده، وقراءاته وساعات تفكيره وتأملاته لم يُنتقص منها شيء. كذلك فإنه ما من شيء ذي قيمة حقيقية إلا استغرق نموه زمنًا طويلًا. أو كما قال ابن حزم: «أسرع الأشياء نموًّا أسرعها فناء، وأبطأها حدوثًا أبطأها نفادًا، وما دخل عسيرًا لم يخرج يسيرًا». إن تأخرت شهرة الكاتب في حياته فالأرجح أنها ستدوم مدة أطول بعد وفاته:

يَموتُ رَديءِ الشِّعرِ مِن قبلِ أهلِهِ

وجَيِّدُهُ يَبقى وإن مات قائلُهُ

(دعبل)

فهو إن تأنى فإنما ليتقن. «قال بعض الشعراء لبعض: أنا أقول كل ساعة قصيدة وأنت تقرضها في كل شهر. قال: لأني لا أقبل من شيطاني مثل الذي تقبله من شيطانك»! وإن كتب فإنما يكتب للأجيال كافة والأمم كافة، لا لجيله وحده وأمته وحدها. أما من جاءت شهرته الزائفة نتيجة تناوله لموضوعات الساعة، أو لإرضاء ميول عارضة واتجاهات سياسية أو دينية مؤقتة، فإنما شهرته أشبه شيء بالأعشاب والنباتات الصحراوية التي تنمو سريعًا وتذوي سريعًا ويسهل على الطفل الرضيع اقتلاعها، أو بالورقة الخفيفة ليس بوسع أقوى ذراع لناقد أو ناشر أن يطيرها مسافة بعيدة.

أضف إلى ذلك أن تأخر الشهرة والنجاح سبب في ألا يتعجل الكاتب الإنجاز، إذ ليس هناك ما يستحثه ويدفعه إلى أن يمسك بالقلم ما لم تجُل بخاطره فكرة جديدة ذات قيمة. وهو في العادة إنما يكتب لإرضاء حافز داخلي قوي يحفزه إلى التعبير عن ذاته، لا لإرضاء جمهور قرائه:

عَلَيَّ نَحْتُ القَوافي مِن مَقاطِعِها

وما عَلَيَّ لَهُم أنْ تَفهَمَ البَقَرُ

(البحتري)

وهو يدرك أن النائحة الثكلى ليست كالنائحة المستأجَرة، وأن الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان. لذلك فهو حريص كل الحرص على كمال الأداء، وإتقان الصنعة. ليس ثمة أمامه عمود يومي عليه أن يملأ سطوره بأي كلام، ولا وراءه رئيس تحرير مجلة يستحثه الإنجاز كي يلحق بالعدد الأسبوعي، أو مدير إذاعة يستعجل حلقات التمثيلية لتسجيلها قبل ظهور هلال رمضان. وقد قضى جوته في كتاب «فاوست» اثنين وستين عامًا. ولو أنه كان ينشرها في حلقات في مجلة، أو استعجله مدير الإذاعة لتسجيل المسلسل، لكان من المؤكد أن يحرم الأدب العالمي من إحدى روائعه.

حلاوة النجاح

غير أن للشهرة والنجاح في حياة الكاتب - على الرغم من كل ما قلنا - آثارهما الطيبة الحميدة. صحيح أن قيمة الكاتب الحقيقية ليست في إنتاجه الفعلي بقدر ما هي في قوة القريحة ورهافة الحس اللتين مكنتاه من كتابة ما كتب، وإنتاج ما أنتج، هي في نفسه وملكاته لا في المظهر الخارجي لهذه الملكات. غير أن الشهرة ونجاح كتبه من شأنهما أن يطمئناه على أنه يمتلك موهبة حقيقية يجدر به استغلالها وإنماؤها وتعهدها بالرعاية، في حين قد يزعزع الفشل من ثقته في وجود تلك الموهبة فيتوقف عن ممارستها. فالثقة بالنفس هي عماد المهارة وشرط المقدرة. والأديب عادة يفتقر إلى القدرة على أن يحكم بنفسه على مدى جودة ما يكتب ما لم يلمس رد الفعل الإيجابي أو السلبي لدى جمهور قرائه ونقاده. والعين، كما قيل، لا ترى نفسها إلا بمرآة. وإذ إن العالم زاخر بالأناس العاديين غير المتميزين، فإن الشهرة العظيمة لا يمكن أن تعني إلا أن صاحبها فرد متميز خارق للعادة، وأنه من بين الآلاف التي يصادفها في الطريق، أو الملايين التي يسمع بوجودها، ذو قيمة فذة ترفعه فوقها، وتفرقه عنها. ولا بد أن إدراكه لهذه الحقيقة سيجلب إلى نفسه الرضا والسعادة، خاصة إن كان العمر قد تقدم به فأفقده القدرة على الاستمتاع بأمور كثيرة مما يستمتع به الشباب. حينئذ تضحي الشهرة عنده إحدى متعه المحدودة، وتعويضًا لا بأس به عما بدأ يعتور شيخوخته من آفات، ومصدر رزق حين تضعف قواه الجسمانية عن تحصيل الرزق.

هذا إلى أن الناس عادة إنما تحكم على الأشخاص وأفعالهم على ضوء النتيجة وقدر النجاح. وعندها أن الفاشل لا بد سيئ، والناجح لا بد جيد. فالحظ السعيد كثيرًا ما يكون لازمًا للإعلاء من شأن المناقب والفضائل. وها هو كل من يوليوس قيصر وكاتيلين قد اعتزم نفس الأمر، وبيَّت نفس الخطة والمؤامرة ضد الدولة، وكان لدى كل منهما نفس القدر من الموهبة والشجاعة. غير أن نجاح قيصر في إنجازه خُططه قد صيره بطلًا تسير بذكره الركبان، في حين أدى فشل مؤامرة كاتيلين إلى الحديث عنه في كتب التاريخ باعتباره خائنًا غبيًّا... كذلك فقد ثار البحارة على كريستوفر كولومبس إبان رحلته البحرية، ورفعوا راية العصيان وطالبوه بالعودة إلى إسبانيا، فاستمهلهم متوسلًا ثلاثة أيام يقفل بعدها عائدًا إن لم تبدُ خلالها أرض فلا أفق. ثم إذا بهم في مساء اليوم الثالث وقد لاحت لأعينهم أرض العالم الجديد. ولو أن البحارة أبوا إمهاله غير يومين، وعادت السفن إلى إسبانيا وقد خابت الآمال المعقودة عليها، لذكر الناس كولومبوس باعتباره حالمًا واهمًا، قد خدع الملك فرديناند وغرر به، وبدد الأموال الطائلة وخاطر بأرواح بحارته، في حين يذكرونه الآن بفضل نجاحه على أنه المكتشف الأعظم، والبطل الفرد.

فالدنيا إذن إذا أقبلت على أحد أعارته محاسن غيره، وإن أدبرت سلبته محاسن نفسه. فإن كانت جودة إنتاج الكاتب هي في بعض الأحيان سبب شهرته، فإن شهرته هي في كل الأحيان سبب الاعتراف بجودة إنتاجه. ولو كان الفشل نصيبه لتصيد الناس لنفس هذه الكتب العيوب، وبرروا بها فشله وخمول ذكره:

سعة العيش

فإن كان النجاح قد وفر للكاتب سعة في العيش، ونقله بذلك من حيه الشعبي أو الريف وسكانهما إلى حي أنيق في العاصمة، وتحول عن استخدام الحافلات العامة المزدحمة إلى ركوب سيارة خاصة به، وتضاءلت صِلاته بطبقات الشعب المختلفة وكادت تقتصر على الأثرياء والفنانين. فلا شك أيضًا في أن الضيق في جانب يصاحبه انفراج في جانب، وانغلاق باب هنا يواكبه انفتاح باب هناك. فهو الآن قد أضحى بفضل الشهرة والنجاح يخالط أناسًا من طبقة الأدباء والمثقفين ذوي الأفكار والأحاديث والمساجلات التي من شأنها أن تغذي فكره وإن لم تغذِّ مشاعره إلا لمامًا. وهو يقابل في أمسية واحدة يقضيها في أحد صالونات الأغنياء، مجموعة من المشاهير من نجوم السينما والمسرح والشعر والموسيقى والرسم والنحت والسياسة والدبلوماسية والاقتصاد، فتنمو بلقياهم معارفه، ويتسع بمحاورتهم نطاق اهتماماته، وينفتح أمامه بالاستماع إليهم باب من الخبرات الجديدة التي لم يكن له عهد بها. وها هم المعجبون به يكتبون إليه أو يحادثونه في لقاءاتهم به عن أخص خصائص حياتهم وأسرار قلوبهم مما لا يفضون به إلى أقرب المقربين إليهم من أصدقائهم وذويهم. ثم ها هو يُدعى إلى مؤتمر للكُتَّاب في هذه الدولة الأجنبية أو تلك، أو إلى إلقاء محاضرات في جامعة أوروبية أو أمريكية، وقد يسعى حاكم آسيوي أو أفريقي إلى الاجتماع به، أو أمير عربي إلى استشارته والائتناس برأيه. فإذا هو وهو ابن الحاج عبد المقصود عمدة إحدى قرى الصعيد، وقد نزل ضيفًا على كاسترو، وتداول ساعة مع شو إن لاي، وجال بين الآثار الإسلامية في سمرقند وطشقند، ودخل في نقاش مع أساتذة جامعة أكسفورد وطلبتها، وتناول العشاء هو وزوجته على مائدة يفتوشنكو أو مكسيم رودينسون، وأدلى بحديث لإريك رولو في صحيفة «لوموند».

فإن كان كل هذا قد استغرق الكثير من وقته، وأثر في قدر قراءاته، فهو بالتأكيد قد أثرى حصيلة تجاربه، ووسع من أفقه ومفاهيمه عن الحياة والعالم حوله، وقضى على خطر أن يتحول إلى دودة كتب، أو راهب في صومعة. كذلك فلا بد أن يؤدي اطلاعه الجديد على عوالم النحت والرسم والسينما والاقتصاد والسياسة وغيرها، واختلاطه بأقطابها، إلى تغذية أدبه وتنمية جوانبه وأطرافه، فيضحي بذلك أدسم مضمونًا وأعم نطاقًا. أو كما قال ابن قتيبة: «من أراد أن يكون عالمًا فليطلب فنًّا واحدًا، ومن أراد أن يكون أديبًا فليتسع في العلوم». فإن كانت الحياة الاجتماعية والمحاضرات والمؤتمرات والأحاديث الإذاعية والتلفزيونية قد التهمت الكثير من وقته، فالمؤكد أن ثمة ساعات أخرى كثيرة قد وفرتها له الشهرة والنجاح، وما جاءت به الشهرة والنجاح من ثراء، وما هيأه له الثراء من قدرة على الاستعانة بالغير في السعي وراء إنجاز شتى احتياجاته. وسيكون بوسعه عندئذ باتصال تلفوني قصير أن يطلب من وزير معجب به إنهاء مهمة له، أو من رئيس مجلس

إدارة بنك قابله في إحدى سهراته أن ييسر له تحقيق رغبة. وقد يحدث أن يكون مفتش الجمارك في المطار قد شاهده في التلفزيون فيرحب به مبتسمًا ولا يفتح حقائبه، أو ناظر مدرسة مبهورًا بكتاب له فيقبل على الفور إلحاق ابنه بها، أو تاجر أثاث قد تابع مسلسلته الإذاعية فيُجري له خصمًا عظيمًا على مشترياته!

مستوى الإنتاج

فإن كان صحيحًا أن الشهرة والنجاح يواكبهما في العادة إكثار من الإنتاج وإسراع في الكتابة، فليست السرعة بالضرورة مدعاة إلى الحط من قيمة الإنتاج ما دام العقل خصبًا زاخرًا بالأفكار. وإنما تمثل السرعة خطورة حين تتحول إلى عَجلة، ويكون الإكثار من الكتابة ضارًّا حين يتخذ صورة تجريف للعقل المنهك. وبوسعنا أن نذكر عشرات الأمثلة لأدباء عظام كانوا شديدي السرعة في الكتابة (دوستويفسكي، بلزاك، ترولوب، تشارلس ديكنز)، وكانت السرعة عندهم ناجمة عن الرغبة في رفع مستواهم المعيشي، وأنتجوا مع ذلك كتبًا خالدة لم يعتورها خلل أو نقص. فإن كان النجاح كثيرًا ما يؤدي بالأديب إلى الاتجاه للكتابة للصحافة، إما لزيادة دخله، أو للإبقاء على تداول اسمه، فهناك عشرات من الأدباء المشاهير ممن أتقنوا حرفة الأدب بفضل كتابتهم للصحف (صامويل جونسون، أديسون، هازليت، ثاكري، برنارد شو، جورج أورويل، بريستلي، جراهام جرين). والكتابة من أجل المال ليست عيبًا في حد ذاتها كما يزعم تولستوي، اللهم إلا إن كان الاشتغال بالقضاء أو الدبلوماسية أو الجندية أو الزراعة أو غير ذلك لقاء أجر عيبًا. وثمة عدد من الأدباء ممن قضى الفقر على مواهبهم أكبر من عدد أولئك الذين قضى عليهم الإفراط في الخمر، أو أودى بهم الغرور، أو أضر بهم الثراء الفاحش.

هذا وقد يكون تأخر الشهرة والنجاح مدعاة للاسترخاء، وسببًا في الركون إلى الكسل. إذ ليس لدى الكاتب المغمور حافز يدفعه إلى المواصلة والإنتاج المتدفق، ما دام لا يرى جمهورًا ينتظر إنتاجًا جديدًا له، أو ناشرًا يستحثه، أو رئيس تحرير يقف وراءه بالمرصاد. وما من أحد بوسعه أن ينكر أن المثابرة والعمل المتواصل يساعدان على صقل المواهب وإتقان الصنعة، وأنهما لازمان للأديب لزوم التدريب المستمر للرياضي والرسام وراقصي الباليه والمغنين والموسيقيين.

غير أن أبرز النقاط الإيجابية في الشهرة والنجاح في رأيي هي حرص الكاتب بسببهما على ألا يهبط مستواه، وخشيته الدائمة، والمؤلمة المأساوية أحيانًا، من أن يأتي إنتاجه الجديد دون إنتاجه السابق. فهو دائمًا في خوف على موهبته من أن يعتريها نقصان، وفي شك من قدرته على أن يجعل كتابه الجديد في مستوى كتابه الأخير الممتاز. وهو يعلم أن النقاد والجمهور بصفة عامة لديهم ميل خبيث إلى أن يحكموا بضعف الإنتاج الحديث بالمقارنة بالإنتاج القديم الذي هللوا له وأشادوا به. وقد كانت جل معاناة جوستاف فلوبير في حياته هي من قول الناس له إن روايته

الجديدة، وإن كانت طيبة، لا يمكن مقارنتها بروايته الأولى «مدام بوفاري». والكاتب يدرك أن الجمهور متقلب هوائي، وأنه وقد كان بمقدوره أن يرفعه إلى السماء، على استعداد دائمًا، وفي أية لحظة، لأن يخسف به الأرض وأن ينقل إعجابه وتهليله إلى غيره... فالنجاح إذن هو خير ضمان لمحاولة الكاتب أن يبقي أدبه على مستواه الرفيع، وأن يشل يده عن الإسفاف، وعن الاستهانة بقارئه والاستخفاف. وهو أمر قد يكون مدمرًا في بعض الأحيان، بدليل قولة شتاينبك إنه ما من كاتب حصل على جائزة نوبل في الأدب إلا كف عن الكتابة بعد الفوز بها من جراء خشيته من أن ينتج عملًا جديدًا يقال عنه: أهذا عمل يليق بحائز على جائزة نوبل؟! قال هذا عام ١٩٥٦ مبررًا به عدم طمعه في أن ينال الجائزة. فلما نالها عام ١٩٦٢، ظل حتى وفاته سنة ١٩٦٨ لا يخط قلمه حرفًا!

خاتمة

في عام ١٩٠١، سأل ليو تولستوي أنطون تشيخوف عمن يظنه من بين الكُتَّاب الروس صاحب أعظم الكتب رواجًا لدى الجمهور في تلك الحقبة. أجاب تشيخوف بقوله:

- أنت؟

قال:

- لا.

قال:

- فتورجينيف؟

قال:

- لا.

قال:

- دوستويفسكي؟ بوشكين؟ جوجول؟

قال:

- لا.

- فمن إذن؟

فذكر له تولستوي اسمًا لا نجده اليوم مذكورًا في أي كتاب عن تاريخ الأدب الروسي.

فهل بوسعنا أن نعتبر مثل هذا الشخص الشهير في حياته، النكرة بعد وفاته، أسعد حظًّا من فرانتز كافكا الذي لم تسمع الجماهير باسمه أو بأدبه إلا بعد انقضاء الأعوام على موته، ثم بات منذ أن عرفه الناس إحدى القمم الشامخة في الأدب العالمي؟

إن الشهرة التي كثيرًا ما ينالها أصحاب المواهب المتوسطة أو الزائفة، هي كالثروة التي يغتصبها امرؤ لنفسه بناء على وصية مزورة. أو هي كالعملة الزائفة، يظل صاحبها في قلق مستمر من أن يُكتشف أمره ويسقط قناعه فيفتضح، وهو ما لا بد واقع. أما صاحب الموهبة الحقيقية، فهو حتى إن لم ينَل الشهرة في حياته، سيظل أسعد حظًّا من الآخر، سعيدًا بقدراته ونبوغه ورهافة حسه، سعيدًا بثقته من أنه في يوم ما، في بلد ما، سيمر ناقد جليل الشأن، مسموع الكلمة، برصيف أمام إحدى المكتبات، قد ألقيت عليه أكوام من الكتب القديمة تباع بقروش زهيدة. وسيلتقط الناقد كتابه وينظر فيه، ثم إذا به وقد راعه جمال فقرة، أو عظمة فكرة، فيقرر شراءه لينظر فيه على مهل، ثم إذا هو بعد أيام يكتب عنه في صحيفة ويشيد به، وإذا بالكاتب المجهول وقد أضحى حديث الناس أجمعين...

وهو بالضبط ما حدث حين التقط ناقد شهير من بين كتب قديمة على الرصيف في أحد شوارع لندن، ترجمة إدوارد فيتزجيرالد الإنجليزية الخالدة لرباعيات الخيام.

الفنان:
هل هو بالضرورة إنسان مريض؟

صدرت منذ أشهر عن جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس، دراسة أعدتها العالمة النفسية كاي جاميسون عن الصلة بين الأمراض العصبية والمشكلات النفسية وبين العبقرية الخلاقة. وقد استندت العالمة في دراستها إلى تحقيق أجرته خلال عام ١٩٨٣ في كل من أكسفورد ولندن حيث درست حالات سبعة وأربعين من الأدباء والفنانين البريطانيين، كلهم إما من الفائزين بجوائز كبرى أو الأعضاء في أكاديمية الفنون الملكية البريطانية، فاتضح لها أن ثمانية عشر شخصًا منهم أُدخلوا في وقت من الأوقات مصحات نفسية للعلاج من أمراض عصبية، إما بالصدمات الكهربائية أو بكربونات الليثيوم. وإذ كانت نسبة المرضى بين هؤلاء الفنانين، وهي ٣٨٪، تزيد على ستة أضعاف نسبة المرضى بين مجموع الأفراد العاديين، فقد انتهت الباحثة إلى نتيجة خالتها قاطعة: وهي أن ثمة صلة وثيقة بين المرض النفسي وبين الموهبة الفنية والقدرة على الخَلق، وأن هذا المرض قد لا يكون «خللًا في الموتور» كما وصفه الشاعر روبرت لويل، بل قد يكون هو الموتور ذاته!

صور الفنان لدى العامة

مثل هذه النتيجة «العلمية» لن تضيف جديدًا إلى المفهوم الشائع لدى العامة عن الفنان وإن أضافت «سندًا» و«إثباتًا». فعند الناس اعتقاد بأن الفنان إنسان غير طبيعي، وأن اختلاله النفسي، أو مرضه، شرط لقدرته على النفاذ إلى حقيقة الأمر والتعبير عن هذه الحقيقة تعبيرًا فنيًّا. وكثيرًا ما نراهم يلتمسون العذر ويغتفرون للفنان شذوذه، وغرابة عاداته وملبسه، واضطراب نمط معيشته وحياته العائلية، وشرود ذهنه ومسلكه غير المألوف، واستخفافه بما تعارف عليه الناس من قيم، وبالقوانين الأخلاقية، ويرددون فيما بينهم كلما صدمهم مسلك له أو استفظعوا منه مقولة: «معلهش؛ أصله فنان!».

ولا شك أنه مما ساعد على تكوين هذه الصورة للفنان حقائق ثابتة وشائعة، معروفة لدى الكافة، عن مشاهير من الموسيقيين والمصورين والأدباء والممثلين وغيرهم، بل وما يلاحظ من مسلك المجاهيل العاملين في الوسط الفني، كأفراد الكورس وموسيقيي التخت، وما تنشره الصحف والمجلات يوميًّا عن فضائح المغنيات والراقصات والممثلين. ومن منا لم يُحِط علمًا بقصة قطع فان جوخ لأذنه وإرساله إياها في علبة إلى حبيبته، أو بقصة سيد درويش مع الكوكايين، أو بالعلاقة الشاذة بين الشاعرين فيرلين ورامبو، وبين لورد بايرون وأخته، أو بنبأ الأيام الأخيرة في حياة هيمنجواي وانتحاره، أو بما كان ينتاب دوستويفسكي من نوبات الصرع... إلى آخره؟ أو كيف يمكن للعامة أن تتجنب هذا الاعتقاد في الفنانين وهم يرون أحدهم وقد دأب على السير في شوارع باريس يجر وراءه فأرًا قد ربطه بخيط، ويسمعون شاعرًا يفخر بأنه نظم أجمل قصائده وهو تحت

تأثير ما يتعاطاه من مخدرات، ويقرأون في الصحف عن راقصة تصفع شرطيًّا إذ يعترض على تركها لسيارتها في غير موقف السيارات؟

فكرة الأسلاف عن الفنان

هذه الفكرة عن الصلة بين الفن والآفات العقلية ليست بالفكرة القديمة، ولا هي بالتي كانت شائعة قبل القرن التاسع عشر. صحيح أن العرب الجاهليين نسبوا الشعر إلى الهواتف وإلى الجن القاطنة في وادي عبقر، وأن القرآن الكريم وصف الشعراء بأنهم يتبعهم الغاوون، وبأنهم في كل وادٍ يهيمون، وأن حديثًا منسوبًا إلى النبي عليه الصلاة والسلام يذكر أن مأواهم جهنم. غير أننا جميعًا نعلم المكانة الرفيعة التي كانت للشاعر الجاهلي في قبيلته، وللشاعر الإسلامي عند الملوك والأمراء، ولأمثال ابن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت عند الرسول ذاته.

أما في الغرب، فإن كانت العامة في العصرين القديم والوسيط كثيرًا ما نعتت الشعراء وغيرهم من الفنانين بأنهم مجانين، فإنما كانت تقصد بذلك في واقع الأمر أن عقل الشاعر أو الفنان يعمل بأسلوب مخالف للأسلوب الذي يعمل به عقل الرجل العادي، أو حتى عقل المفكر الفيلسوف. وهناك وفرة من الدلائل التاريخية التي تشير إلى أن أهل العصر الوسيط كانوا يرون في نظم الشعر والموسيقى وحمل السلاح أرقى أوجه النشاط البشري مما يحق للمشتغلين بها أن يتيهوا بها على الناس. ولا حاجة بنا إلى التدليل على مدى الحظوة لدى الأمراء، أو التوقير لدى العامة، مما كان يتمتع به الفنانون من أمثال ليوناردو ومايكل أنجلو ورافائيل في عصر النهضة. فإن كان أهل القرن الثامن عشر يزدرون الشاعر المحترف، فالواقع أنهم كانوا يزدرون الاحتراف في حد ذاته، ومحترفي أية مهنة من المهن لا الشعر فحسب. بل إن ازدراءهم لاحتراف الشعر بالذات كان من قبيل التوقير العميق للشعر الذي رأوا احترافه واتخاذه تجارة للتكسب امتهانًا لقدسيته.

الفنان والمجتمع الصناعي

ثم طرأ على صورة الفنان تغير جوهري في القرن التاسع عشر، وأضيف إليها من الملامح ما لا يزال قائمًا في أذهان العامة إلى اليوم. والسبب الرئيسي في تغير الصورة في اعتقادي مرتبط بغلبة النظام الرأسمالي، وازدهار الصناعة، ونمو الطبقة البرجوازية، واتساع نطاق نفوذها، وتفشي أخلاقياتها وقيمها. فقد ارتأت هذه الطبقة أنه في حين كان من واجب الفنان التجاوب والتعاطف مع هذه التطورات الجسيمة، والإشادة بالعصر الصناعي، والثناء على القيم الجديدة، اتخذت غالبية الفنانين موقفًا معاديًا من هذه التطورات والقيم والأخلاقيات، وكان الإزراء بها، والتندر عليها، والتحذير من أخطارها، من الموضوعات الأثيرة لديهم.

أضف إلى ذلك أن المجتمع الصناعي هو في حاجة إلى غرس عادات ومفاهيم وأسلوب عيش معين لدى أفراده من أجل ضمان حسن سير العمل فيه. وقد كان هذا المجتمع على استعداد لاحتمال

لفيف هامشي من الفنانين، والتغاضي عن غرابة مسلكهم، وتحررهم من القيود الأخلاقية، وضعف احترامهم للمواعيد وتقيدهم بالوقت، وعدم التأكد مما سيكون عليه تصرفهم ورد فعلهم، لولا اقتناع البورجوازية بأن من الخطر كل الخطر على كل مقومات المجتمع الجديد أن يعم تأثير هؤلاء الفنانين، وأن تنتشر العدوى، فيضيع الاحترام للرؤساء، ويشيع الاستخفاف بقيود الوظيفة، ويتزعزع الالتزام بالمواعيد المحددة، وتضعف شهوة استهلاك السلع الجديدة، ويصعب صب الإنسان في القالب الواحد اللازم لازدهار ذلك المجتمع.

لذلك رأت تلك الطبقة الجديدة من الرأسماليين والبرجوازيين لزامًا عليها أن تتصدى لهذا التأثير بالمقاومة عن طريق إثارة الشك فيما إذا كان الفنان إنسانًا طبيعيًّا سليم العقل، وغرس الاعتقاد بأنه في جوهره شخص منحل منحرف مريض، إن كان لا بد من أن تحتمل الجماهير وجوده بين ظهرانيها من أجل المتعة التي توفرها أعماله، فلا ينبغي أن تؤخذ فحوى تلك الأعمال على محمل الجد، وإن كان لا مفر من الإقرار له ببعض الامتيازات وحرية التصرف، فهي امتيازات أشبه بتلك التي تُعطى لعبيط القرية، أو مضحك الملوك.

قد أشهر الفنان إذن حربًا على قيم المجتمع الجديد، فأشهر أرباب هذا المجتمع حربًا عليه من أجل الحد من فاعلية تأثيره، وذلك عن طريق تشويه معالم صورته. ولم يكن غريبًا أن ينبري عدد من الفنانين أنفسهم، من أمثال برنارد شو وآرثر كوسلر وتوماس مان للإقرار بصلة الفن بانحلال الفرد والمجتمع والحضارة، حتى كان هذا الموضوع محور عدد كبير من قصص توماس مان ورواياته. وقد أراد الروائي إميل زولا، وهو الحريص دائمًا على أن يكون في خدمة التقدم العلمي، أن يتحقق من صحة هذا الاتهام للفنانين، فعرض نفسه على خمسة عشر طبيبًا نفسيًّا، انتهوا إلى أن عبقريته تنبثق بصفة أساسية عن عناصر مرضية في جهازه العصبي ومزاجه، فصدقهم زولا، وأقر الاتهام. ثم تبعه إدموند ويلسون فشبه الفنان بفيلوكتيتس في الأسطورة التي تتحدث عن محارب إغريقي اضطر إلى أن يعزل نفسه عن سائر الناس بسبب الرائحة الخبيثة المنبعثة عن جرح أصابه أثناء الحرب، غير أن الناس ظلوا يقصدونه مع ذلك دومًا لحاجتهم إلى الاستعانة بقوسه السحري الذي كان لا يخطئ هدفًا. وهي أسطورة لم تذكر أن خبث رائحة الجرح كان ثمنًا للقوس الذي يمتلكه فيلوكتيتس، واعتقد ويلسون مع ذلك أن عظمة القوس تتوقف على بشاعة الجرح ورائحته.

أسباب أخرى

وثمة أسباب أخرى لشيوع هذه الصورة الجديدة للفنان غير السبب المتصل بحضارة المجتمع الصناعي البورجوازي.

فهناك اعتقاد قديم، خاصة في الفكر المسيحي والفكر الصوفي الإسلامي، بأن العذاب والآلام

طريق إلى المزيد من القوة، أو على حد تعبير إسخيلوس: إن الآلام هي سبيل الإنسان إلى معرفة الآلهة. ثم نجم عن هذا قول بأن القوى الكامنة في الفرد يتم تصريفها عن طريق أعضاء جسمه أو ملكاته، وأنه إن تعطل عمل أحد هذه الأعضاء أو الملكات، تم التصريف في عضو آخر أو ملكة أخرى فتزداد بذلك قوة هذا العضو أو الملكة. وبعبارة أخرى: إن ثمة آلية في إعادة توزيع القوى، بحيث تنمو رهافة السمع واللمس مثلًا عند الأعمى، وبحيث يضحي كل ذي عاهة جبارًا. وقد كانوا في الماضي يُخصون الكهنة حتى تنصرف الطاقة الجنسية المعطلة لديهم إلى القدرة على كشف حجاب الغيب والتنبؤ بما سيجيء. وإذ إن الفنان يضحي بالضرورة بأشياء ثمينة وملذات وقدرات كبيرة الشأن، فلا بد أن تزدهر لديه في مقابل ذلك قدرات خارقة أخرى، وأن يستمتع بملذات وأشياء مغايرة لا يعرفها غيره. كذلك يمكن القول بأن أي تركيز على وجه واحد من أوجه النشاط، حتى عند الناس العاديين، لا بد من التضحية معه بأمور كثيرة، كتضحية الطبيب المشغول بعمله بعلاقاته الأسرية والاجتماعية. فلا غرابة في أن يؤدي استغراق الفنان في فنه إلى اختلال توازنه الروحي وما يسمى بالصحة النفسية.

والفنان عادة يرى في التصرفات «العاقلة» للأفراد العاديين حوله جنونًا، ويرى «صحتهم النفسية» مرضًا، في حين يرى في اختلال جهازه العصبي صحة روحية وأخلاقية، ويشير إلى أنه قد كان بوسع كاساندرا المجنونة في الأسطورة الإغريقية أن تدرك من الأمور الهامة وأسرار الغيب ما عجز غيرها عن إدراكه بفضل رهافة حسها الناجمة عن توتر أعصابها وآفاتها العقلية. وقد أبى الكثيرون منهم، ومن بينهم هيمنجواي، الانصياع لرغبة ذويهم وأصدقائهم وقبول العلاج، خشية أن يؤدي زوال مرضهم إلى زوال موهبتهم معه.

كذلك رأى بعض الفنانين، شأن بعض الصوفية، أنه من الحماقة محاربة شهوات النفس، وأن الانغماس في هذه الشهوات قد يكون خير سبيل لإدراك كذب الشهوة واقتلاعها، وأن ارتكاب الذنوب والموبقات هو في بعض الأحايين واجب، إذ من شأنه إذلال النفس وسحق الكبرياء وإثبات القدرة على الاستهانة بالرأي العام وحكم البشر. ولا شك في أن البعض، مثل لورد بايرون، استغل فكرة العامة عن الفنانين والنظر إليهم على أنهم ليسوا كغيرهم، وبالتالي فإنه لا ينبغي أن تُطَبق عليهم نفس المعايير الخلقية المطبقة على الأفراد العاديين، فأقدم على الإتيان في حياته الخاصة بتصرفات لا يجرؤ غيره على الإقدام عليها. كما أنه لا شك في أن شيوع هذا النمط من السلوك في الأوساط الفنية ظل إلى يومنا هذا مسؤولًا عن كراهة العائلات «المحترمة» في مجتمعنا الشرقي، لاشتغال أبنائها وبناتها ببعض الفنون، واعتباره كارثة وعارًا، إذ يرون من شِبه المؤكد أن يؤدي ذلك إلى الانخراط في جو من الفساد والشذوذ.

لقد وصف فرويد الفنان بأنه إنسان مريض يسعى إلى الهرب من الحقيقة والواقع بإيجاده بديلًا من الوهم يشبع رغباته عن طريقه. غير أنه عاد فذكر في موضع آخر أنه مدين للأدباء والشعراء، خاصة دوستويفسكي، بفضل اكتشافه لعالم اللاشعور. فكيف يمكن إذن أن ينجم عن المرض والانحلال أنقى الحقائق، أو أن تؤتي التربة العفنة أجمل الثمار؟

في اعتقادي أن القول بأن الفنان هو بالضرورة إنسان مريض، وأن اختلاله النفسي شرط لموهبته، قول غير سليم. فما من أحد قَطُّ أشار إلى اضطراب نفسي لدى ليونارد دافينشي مثلًا أو شيكسبير وجوته وتولستوي وتشيخوف وموليير، ومئات غيرهم، ولا أعمالهم بالتي تفصح عن مثل هذا الاضطراب. فإن قال قائل إنَّ صرع دوستويفسكي واختلال جهازه العصبي هما مصدر روعة إنتاجه وثقب نظراته النفسية، كان من حقنا أن نسأله: وما أدراك أن هذا الصرع وهذا الاختلال لم يضعفا من قدرات كان يمكن أن تكون أكبر وأروع، أو أنهما لم يكونا مسؤولين عن عيوب معينة في أدب دوستويفسكي، مثل عجزه عن تصوير غير الشخصيات المريضة من الناس، أو عن أن يفهم من الحب غير الرغبة الجنسية العارمة، أو الخضوع الماسوكي، أو الحب الناجم عن الشفقة؟

قد نجد لدى المصابين بفصام الشخصية من الأفراد العاديين قدرة على التعبير عن أنفسهم تأخذ أحيانًا مظهرًا خلاقًا، غير أن هذا التعبير ليس فنًّا. فإن كان فان جوخ مصابًا هو الآخر بفصام الشخصية، فقد كان فنانًا بالإضافة إلى مرضه، ولم يكن فنانًا بسبب مرضه. والخلل العقلي قد يؤدي إلى الفشل، أو إلى الافتقار إلى النبوغ، فإن صحبه نبوغ أو عبقرية فإن من الخطل القول بأنه مصدر هذا النبوغ أو هذه العبقرية.

إن الضعف لا ينفي القوة ولا القوة تنفي الضعف. وجميع الناس هم بمعنى أو آخر، وبدرجات شتى، مرضى يعانون من خلل عصبي ما. والفنان إنسان مريض بهذا المفهوم وحده، ومثل غيره. غير أن الجانب السليم من روحه هو المسؤول عن كفاءة مخيلته، وقدرته على التصور والتخطيط لعمله الفني وعن إنجازه إياه. فإن كان سيد درويش فنانًا يتعاطى الكوكايين، فهو فنان غير أنه يتعاطى الكوكايين، لا فنان لأنه يتعاطى الكوكايين. وشذوذ فيرلين ورامبو وبايرون، أو فظاعة تصرف الراقصة مع الشرطي، مواكب لفنهم لا مصدر له. قد تساعدنا معرفتنا لطبيعة الخلل عند الفنان على فهمنا لطبيعة المادة التي ينتقيها ويختارها موضوعًا لفنه، بل وقد تساعدنا على فهم بواعثه على الاشتغال بالفن، غير أنها لن تعرفنا سر نبوغه ومصدر قوته.

كل ما هناك هو أن النشوة التي يخبرها الرجل العادي حين يقرأ شعرًا أو يستمع إلى سيمفونية أو يشاهد لوحة فنية أو رقصًا، نادرًا ما يخبر مثلها في حياته اليومية إلا في حالة الأحلام، أو الحمى، أو تحت تأثير أحد المخدرات. وهو بالتالي يميل إلى أنه ينسب نشوة الفنان نفسه إلى حالة مرضية أو شاذة كحالة الأحلام أو الحمى أو تأثير المخدرات.

كذلك فإنه لا ينبغي أن ننسى أن الفنانين أناس قد سلطت عليهم الأضواء، وأن ما يُكتب عن

حياتهم الخاصة ومسلكهم وتصرفاتهم يفوق بكثير ما يُكتب عن غيرهم. كما أن الأدباء هم أكثر الناس إقبالًا على الحديث الصريح عن أنفسهم، وبدقة عن لاشعورهم وعما يجول في خاطرهم، سواء في خطاباتهم الخاصة أو يومياتهم أو سيرهم الذاتية. والمعروف أن السير الذاتية للأدباء هي أفضل السير، كما أنهم أكثر الناس اعتناء بقول الصدق، وأقلهم اكتراثًا بصدم مشاعر الغير. فلو أن غيرهم من المشتغلين بالمهن الأخرى، كالعلماء والأطباء ورجال البنوك والأعمال، أوتوا من القدرة على التعبير عن ذواتهم ودفين مشاعرهم ما أوتي الأدباء، وتركوا لنا سيرًا ذاتية في مثل صراحة السير الأولى، فلربما وضح لنا أنهم ليسوا أقل عرضة من الفنانين للإصابة بالخلل النفسي والاضطرابات العصبية.

لقد أورد تولستوي في روايته «الحرب والسلام» ملاحظة شائقة، هي أن المرأة فائقة الجمال إن شاب حسنها عيب ضئيل الشأن، خيل إلى الناظرين أن هذا العيب بالذات هو مصدر جمالها كله! وهو حكم يسري على الفنان سريانه على المرأة الحسناء.

... قد مضى قولنا في اجتماع الخميس الماضي في بيان أوجه الضعف في النظام الراهن في مصر. وهو ما أوجزه الآن في ثلاث نقاط، كلها مما يمكن لشركائنا وللجماعات الإسلامية التي نمولها أن تستغله لصالحها، وأن تفيد منه:

أولًا: إدراك فريق قوي داخل السلطة أن قوة الحركة الإسلامية المتطرفة في مصر راجعة في المقام الأول إلى مظالم اجتماعية واقتصادية لا يتسنى حلها وتداركها إلا على مدى سنوات طوال، وأنه من الظلم بالتالي أن تلجأ السلطة إلى العنف في مواجهة المتطرفين الإرهابيين، إلا في حالات الضرورة القصوى، بل ولا بأس من بعض التنازلات لهم، حتى لا يجتمع على هؤلاء «البؤساء» هَم الضائقة الاقتصادية والاجتماعية، وهَم اضطهاد الحكومة لهم. وقد هيأ لنا ذلك فرصة أن نستغل استمرار الضائقة، ويد المصالحة التي تمدها السلطة للإسلاميين، وإذعانها المتكرر لمطالبهم، في المطالبة بالمزيد من التنازلات، والتوسع في تجنيد الشباب في صفوف الجماعات التابعة لنا، وخلق الاعتقاد لدى الصحافيين والكُتَّاب والقضاة وكبار رجال الدولة والمسؤولين بأن وصول الإسلاميين إلى السلطة عن قريب أمر مفروغ منه، وبالتالي فإن من مصلحتهم أن يركبوا الموجة من الآن، وأن يحجزوا لأنفسهم المقاعد في ظل النظام الجديد، وهو ما سيزيد قطعًا من خلخلة دعائم النظام القائم.

ثانيًا: ذلك العجز المضحك من جانب الحزب الوطني عن أن يطرح في الساحة الأيديولوجية فكرًا متكاملًا قادرًا على منافسة أيديولوجيا الأقلام التي جندناها، وعن إلهاب مخيلة الجماهير واجتذاب قطاعات واسعة منها. فالواضح للجميع أن برنامج ذلك الحزب خالٍ من أي فكر متبلور، أو طابع مميز، أو حلول عملية للمشكلات المتفاقمة بمجتمعنا، وهو ما عزوته في حديثي إلى طبيعة الظروف التي نشأ فيها الحزب أثناء حكم السادات. وقد ذكرت أن نقطة البداية في نشأة أي حزب سياسي هي أن يتجه أفراد يجمعهم فكر واحد إلى إقامة تنظيم له برنامج يعكس هذا الفكر. وهو بالضبط ما لم يحدث في حالة تأسيس الحزب الوطني الذي جاء بناء على تعليمات من أنور السادات، واختير أعضاؤه بصورة عفوية وتحكمية (بل انتقى بعضهم من أحزاب المعارضة ذاتها!)، ثم أقبل على الانضمام إليه عدد هائل من الانتهازيين الذين ما كانوا لينضموا إليه أصلًا لولا أنه في السلطة. (وقد أعددت في هذا الموضوع ورقة مفصلة ستوزع على حضراتكم في نهاية هذا الاجتماع).

ثالثًا: عزوف مستمر من جانب الأحزاب القائمة عن توحيد صفوفها من أجل التصدي لمد الإسلاميين المتطرفين، واعتقاد اليسار واليمين معًا أن استمرار الإرهاب من شأنه أن يهدم هيبة النظام وسلطانه، وأنهم المستفيدون من ضياع هذه الهيبة وزوال هذا السلطان. وبالتالي فقد شُغلت

الأحزاب جميعًا، حاكمة ومعارضة، بالتناحر فيما بينها عن الخطر الذي سيبتلعهم جميعًا في المستقبل القريب جدًّا بإذن الله... فإن تركنا جانبًا حزب العمل الذي وقع طواعية في الشَّرك الذي نصبناه له عام ١٩٨٧ بفضل جهود عادل حسين، وجدنا حزب الوفد يعمل من منطلق جد غريب، لا هو بالكافي ولا بالمقنع ولا بالفعَّال، ألا وهو الحنين إلى سنوات ما قبل الثورة، سنوات عزه ومجده، ويتردد زمنًا بين التمسك بعلمانيته التقليدية التي جلبت له في الماضي تأييد غالبية الناخبين الأقباط، وبين التزلف للتيار الديني ومراضاته، ثم يستقر رأيه على أن مثل هذا التزلف من شأنه أن يفيده في المعارك الانتخابية أكثر مما يفيده التمسك بالعلمانية. أما حزب التجمع فإن هويته الأصلية تضيع شيئًا فشيئًا بمرور الأيام، منذ أن أدار ظهره لوصية لينين الشهيرة للحزب الشيوعي السوفيتي بالحرص فوق كل اعتبار آخر على النقاء الأيديولوجي للحزب، والتضحية في سبيله بكثرة أعضائه، رائيًا أن مائة صابرة صادقة أكثر فعالية من ألف من ذوي الاتجاهات المائعة والمواقف الانتهازية. وقد أدرك الشعب في يسر ما طرأ على موقف التجمع من ضعف اضطره إلى التسول والاستجداء، حين سعى إلى التقرب من بعض جماعاتنا الإسلامية التي رآها أقل تطرفًا ورجعية من أجل زعزعة الحكم، في حين أدرك الشيوعيون القدامى أن النقاء الفكري للحزب قد ضاع، وأن موقفه الأيديولوجي قد ماع، فتركوا صفوفه عن احتقار لصورته الجديدة، ولم تُفِد هذه التنازلات حتى في اجتذاب العمال والفلاحين...

كان هذا هو محور حديثنا في الأسبوع الفائت. ونحن قائلون اليوم إن شاء الله في مهام الدعاة الإسلاميين ووسائلهم في نشر الدعوة إلى نظامنا وفي تجنيد الشباب.

مشاعر الإحباط هي عماد دعوتنا

وأبدأ فأقول، إن جميع الحركات الجماهيرية الثورية، دينية كانت أو اجتماعية أو قومية، تشترك في عدة خصائص جوهرية، كالاستعداد للتضحية بالنفس، والميل إلى العمل الجماعي، والحماس والتعصب الأعمى، والكراهية وضيق الصدر بالآراء المخالفة، والأمل العظيم فيما سيأتي به الغد. وجميعها من المشاعر التي بوسعها أن تطلق من عقاله فيضًا هائلًا من النشاط، وتتطلب من أصحابها إيمانًا أعمى وولاء مطلقًا.

وجميع هذه الحركات الجماهيرية تستهوي نفس الصنف من الناس، ومن العقليات. إذ مهما اختلفت الأهداف والمبادئ التي يبدي أفرادها استعدادًا للموت في سبيلها، فإنها - في الأساس والجوهر - تحمل نفس الطابع، وتربط بينها وجوه شبه عظيمة، لا تكاد العين المجردة معها أن تفرِّق بين حركة وأخرى.

أهم وجوه الشبه هذه هو أن المقبلين على الانضمام إلى أي من هذه الحركات هم في الغالب من الشبان المحبطين المقهورين الفاشلين، الذين يرون حياتهم قد فسدت وتبدد معناها، والذين يقبلون

عادة على الانضمام إلى حركات كحركتنا من تلقاء أنفسهم دون ما حاجة إلى جهد كبير من جانبنا لتجنيدهم، ودون حاجة مسبقة إلى اقتناع عقلي كامل بالمبدأ الذي تمثله الحركة. فالإحساس بالقهر والإحباط كفيل وحده بأن ينبثق عنه معظم الخصائص التي حدثتكم لتوي عنها. لذلك فإن أنجح وسائل الإقناع التي يمكنكم انتهاجها في تجنيد الأتباع والأنصار هي استغلال إحساس الأفراد بالإحباط، والتركيز عليه، وترسيخه وإلهابه والحيلولة دون تبدده أو تضاؤله إلى حين استيلائنا على السلطة بإذن الله، باعتباره خير ما يخدم مصالحنا، ويحقق مطامحنا، ويضمن نجاح دعوتنا وحركتنا.

والفرد عادة - كما لا شك قد لاحظتم أثناء اضطلاعكم بمهام الدعوة لحركتنا - يميل إلى إلقاء المسؤولية عن فشله على الظروف المحيطة به، والأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية القائمة، حتى لا يفقد احترامه لذاته. ولذا فإننا غالبًا ما نرى أولئك الذين نجحوا في حياتهم، وحققوا معظم ما كانوا يصبُون إليه من آمال، راضين عن العالم حولهم، حريصين على أن تبقى الظروف المحيطة بهم والأنظمة التي يعيشون في ظلها على ما هي عليه، في حين نرى المخفقين المحبطين شديدي التطلع إلى حدوث تغييرات جذرية في تلك الظروف والأنظمة. فالفاشلون إذن يصرون دائمًا على البحث خارج أنفسهم عن أسباب فشلهم وخيبتهم، حتى إن حاول البعض أن يشير لهم إلى أهمية بعض الاعتبارات الشخصية كالمواهب والمقدرات الذاتية والشخصية والصحة والمظهر الخارجي إلى آخره. أو كما يقول حكيم من حكماء الغرب: «ما يصيب الإنسان من آفة تعوقه عن أداء مهامه، حتى إن كانت هذه الآفة مجرد ألم في أمعائه، حتى يثور وينبري لإصلاح الكون!».

وهذا الميل لدى الفاشلين إلى إلقاء تبعة الفشل على النظام القائم والظروف المحيطة، هو ما ينبغي عليكم في المقام الأول أن تغذوه وتقووه وتدعموه بجميع الوسائل.

مفاتيح الغد المشرق

بيد أن السخط في حد ذاته لا يثير دائمًا الرغبة في التغيير، إذ لا بد من أن تتوفر معه عوامل أخرى قبل أن يتحول إلى تمرد أو ثورة: فأولئك الذين طحنتهم الظروف المحيطة طحنًا، والفقراء المعدمون الذين أذل الفقر أعناقهم، لا يتطلعون إلى تغيير مهما بلغ بهم سوء الحال، ولا يرحبون بثورة أو بتحول جذري، إلى درجة أننا قد نجد بينهم من المحافظين مثلما نجد بين الأثرياء المحظوظين. والنظام الاجتماعي يدين باستقراره لأولئك قدر دَينه لهؤلاء. وإذ إن شرط إقدام الفرد على محاولة تغيير الأوضاع هو ألا يرتبط السخط الشديد عنده بالإملاق الشديد، فإني أنصحكم بألا تضيعوا الوقت والجهد في الدعوة إلى حركتنا في أوساط الفقراء المعدمين.

إن الفارق بين المحافظ والثوري ينبع أساسًا من موقفهما حيال المستقبل. فخوفنا من المستقبل يجعلنا نتشبث بمعالم الحاضر، في حين تدفعنا الثقة في المستقبل إلى الرغبة في التغيير...

والراضون عن الحاضر ممن حققوا إنجازات كبيرة، أو يعيشون حياة خصبة سعيدة، يميلون إلى التجهم في وجه كل تغيير جذري، ويرون في كل تغيير تدهورًا، ولا يريدون إلا أن تستمر الأحوال على ما هي عليه. هؤلاء إذن يخرجون عن نطاق محاولاتنا من أجل التجنيد والاستقطاب. أما من ينبغي أن نسعى إلى تجنيدهم فالشباب الذي يحدوه الأمل في تغير هائل وجذري ومفاجئ في أحوال معيشته، المؤمن بأنه بالوسع أن تتغير الأمور بلمسة واحدة من عصا سحرية، أو بتمتمة عبارة «افتح يا سمسم». مثل هذا الأمل هو الكفيل بإثارة الحماس اللازم لإحداث الثورة. وإنما فشل بطرس الأكبر في روسيا على الرغم من ثورية مطامحه وبرامجه، إما لأنه لم يرَ ضرورة لإثارة حماس الجماهير لخططه، أو لأنه عجز عن أن يجعل من هذه الخطط قضية مقدسة. في حين أنه من المهم للغاية في أية حركة - حتى إن كانت حركة إلحادية - أن تضفي على نفسها طابعًا دينيًّا، وأن تدفع الجماهير إلى النظر إلى أغراضها العملية باعتبارها قضايا مقدسة. هذا هو ما صنعه الفاشيون والشيوعيون بالأمس، وهذا هو ما نصنعه نحن اليوم.

إنه لمن المحتم علينا، نحن قادة الحركة، من أجل ضمان النجاح في الوصول إلى السلطة، أن نخلق الاعتقاد لدى هؤلاء الشباب بأن في حوزتنا مفاتيح الغد المشرق، وأن نبعث في قلوبهم الآمال العريضة، والثقة في قدرتنا على تحقيقها، وفيما يخبئه هذا الغد لهم من كنوز؛ سواء تمثلت هذه الكنوز في جنات الآخرة وملكوت السماوات، أو في بناء المدينة الفاضلة، أرض اللبن والعسل، أو في الهيمنة الدولية وفتوح للبلدان على نهج فتوحات عهدَي أبي بكر وعمر.

ولا يسعني هنا إلا أن أهنئكم على نجاحكم في خلق هذا الاعتقاد لدى قطاعات عريضة من الجماهير، وهو نجاح لا يدانيه في الأهمية غير نجاحنا فيما فشل فيه بطرس الأكبر من قبل، وأعني إضفاء الطابع الديني على حركتنا، وخلع سمة القدسية على أغراضنا، بحيث بات أنصارنا يرون في خدمة أهدافنا خدمة لله وشريعته، وموتهم في سبيلها استشهادًا، وإطاعتنا من إطاعة الله والرسول، والعمل على تنفيذ مخططاتنا عبادة، والتخلص من أعدائنا بالاغتيال والإرهاب قربة إلى الله وزلفى.

وقد وصلت وأصحابي إلى اقتناع بضرورة هذا الأمر حين لمسنا من خلال قراءتنا في التاريخ الإسلامي أن من أبرز سمات هذا التاريخ أن الحركات الثورية التي أثارتها في دار الإسلام اعتبارات اجتماعية أو مظالم اقتصادية وسياسية، إنما ارتبط كل منها منذ بدايته ارتباطًا وثيقًا بفكر ديني، وما كان ليدور بخلد أتباعها أن احتجاجهم على السلطة نابع عن غير العقيدة الدينية، ولا أن لهم من الأهداف غير تخليص الأمة من حكم لا يرضاه الله، والعودة بها إلى الشريعة وطريق الدين القويم.

فتعبير المسلمين إذن، وطوال تاريخهم، عن مناهضتهم أو مناصرتهم لهذا النظام القائم أو ذاك، كان دائمًا تعبيرًا دينيًّا بصورة أساسية. ولنا في طائفة الخوارج دومًا أسوة حسنة، فهم قوم ولوعون

بالحرية البدوية المطلقة، ولوعون بشن الغارات على القوافل والقبائل من أجل الغنيمة، والبغض لحياة المدن وتنظيمها الدقيق الذي لم يألفوه. غير أنهم وجدوا حاجة إلى إيجاد أساس ديني لرغباتهم، وإلى أن يوهموا أنفسهم أنهم في سعيهم إلى إشباعها إنما يحرصون على الالتزام بأحكام الدين. فكان أن خرجوا على السلطة شديدة الوطأة واتهموها بالكفر، وكان أن هجروا المدن البغيضة إلى قلوبهم وأسموها دار حرب، وكان أن استأنفوا الغارات الجاهلية بغرض السلب والغنيمة وخالوا أنها جهاد، وكان أن ربطت أوثق الوشائج بين أفراد جماعتهم الصغيرة وقالوا إنهم أهل الجنة!

لست مبالغًا إذن حين أقول إن اتخاذنا الدين قناعًا لمطامحنا، وغلافًا لمصالحنا، هو من جميع الوجوه أعظم إنجاز لشركائنا. ذلك أن ربط أهدافنا بالإسلام جعل من العسير للغاية على الحكومة أن تفرض طاعتها وطاعة قوانينها على أعضاء الجماعات التابعة لنا. فمن خال أنه إنما يطيع الله بأعماله من المؤكد أنه لن يطيع غيره، ومن ظن أنه يتلقى الوحي مباشرة من السماء ليس في حاجة إلى أن ينصت لحديث من في الأرض. فأي نجاح إذن يمكن أن يعدل نجاحنا في إيهام الشباب بأن غاياتنا غايات إلهية، وصالح جيوبنا مما تقضي به الشريعة الإسلامية، وتطلعنا إلى الحكم هو إرادة الله من فوق سبع سماوات. وإنما فشلَ العلمانيون وغيرهم في استثارة حماس الجماهير، لإحجامهم عن الحديث باسم الله. وكثيرًا ما كنت في شبابي أقول لمعارفي من الماركسيين إنهم لو كانوا ملمين بطبيعة تكوين شعبنا، وبتاريخه واحتياجاته النفسية، لأقبلوا عن طيب خاطر على تغليف مبادئهم الماركسية بالدين، وربط شعاراتهم بالإسلام، ونسبة أحاديث إلى النبي مثل: «من تملك وسائل الإنتاج عامدًا متعمدًا جيء به يوم القيامة وفي عنقه حبل من مسد»، أو «من قال بأن قيمة السلعة يحددها اعتبار غير جهد العامل في إنتاجها، فليتبوأ مقعده في النار»، أو كما قال.

إنه لشرط أساسي لإقدام أناس على محاولة تغيير الأوضاع، وقلب نظام الحكم، أن يتوفر لديهم اليقين بأن في جعبتهم عقيدة لا يتطرق إليها الشك، وعلى رأسهم زعامة لا تخطئ، وفي صفوف جماعتهم قوة لا ترد، وفي انتظارهم مستقبل مشرق جم الوعود. كذلك فإنه شرط أساسي لإقدامهم وحماسهم أن يتمتعوا بجهل مطبق بالعقبات العملية التي تعترض تنفيذ مخططاتهم، وتحقيق آمالهم، وتنفيذ الإصلاحات المنشودة. فالخبرة الواسعة والتجارب العريضة عادة ما تعرقل مسيرة الحركة الثورية، وتثبط من العزم، وتضعف من الأمل. وهذا هو بالضبط سر عزوف الشعب الإنجليزي، بخبراته السياسية عريقة القِدم، عن مباركة الحركات الجماهيرية وتأييد الثورات، وسر كراهيتهم للتعصب. فهم يعلمون أن عقلية المتعصب كحدقة العين، تزداد تقلصًا بازدياد قوة الضوء. ويعلمون أنه إن كان المحافظ سياسيًّا مغرمًا بالشرور القائمة، فإن الثوري إنسان يسعى إلى أن يحل محل هذه الشرور شرورًا من صنف آخر! غير أننا نقول لهم إنه ما دام العاقل هو من كيَّف نفسه وفق أحوال الدنيا، والأحمق هو من يسعى إلى تغيير أحوال الدنيا وفق أحلامه، فإن كل تقدم أو تغيير

يحدث في أحوال الدنيا هو من صنع الحمقى!

التخلص من الذات بميلاد جديد

ثم يهمني أن أغرس في أذهان حضراتكم فكرة بالغة الأهمية؛ وهي أنه لا يقبل على الانضمام إلى حركة كحركتنا إنسان يحب ذاته ويحترمها ويسعى إلى إنمائها ورعاية مصالحها. وإنما يقدم على الانضمام إليها كل من ينشد التخلص من ذاته التي يكرهها ولا يريدها... فحركة كحركتنا لا تجتذب الأتباع بسبب قدرتها على إشباع حاجتهم إلى تحقيق الذات ودفعها إلى الأمام، وإنما بسبب قدرتها على إشباع رغبتهم العارمة في اطِّراح الذات والتخلص منها. فهنا شوق إلى ذات أخرى، وحياة مخالفة، وميلاد جديد... إلى اعتزاز بالنفس يقتلع كراهتها، وثقة تعوض عن الاضطراب والحيرة، وأمل يحل مكان اليأس، وإحساس بالهدف يبدد الإحساس بالضياع، وإيمان الفرد بأهميته وقيمته وجدواه متى اقترن بغيره في تبني قضية مقدسة. وحركتنا تتيح لهم فرصة تحقيق كل ذلك؛ هي بديل عن الذات البغيضة، توحي إلى من انضم إليها أنه قد ولد من جديد ليبدأ حياة جديدة، مع مجموعة كبيرة من أمثاله ممن تعزز كثرتهم من ثقة الفرد منهم بنفسه وباختياره.

فلتحرصوا إذن أثناء دعوتكم وتصيدكم للأنصار على مراعاة هذا الاعتبار. وقد سبق للمفكر الفرنسي باسكال أن عرض لهذه الفكرة حين قال: «يود الإنسان لو أنه عظيم، بيد أنه ينظر فإذا هو ضئيل. ويود لو أنه سعيد، بيد أنه ينظر فإذا هو شقي. ويود لو أنه كامل، بيد أنه ينظر فإذا هو مفعم بالنقائص. ويود لو أنه موضع حب الناس وتقديرهم، بيد أنه ينظر فإذا عيوبه ليست أهلًا إلا لبغضهم واحتقارهم. فإذا الحيرة والارتباك وقد تَمَلكاه يثيران فيه أشد المشاعر إجرامًا وأبعدها عن العدل والحق. ذلك أنه قد أضحى وقد غلبت عليه الكراهية القاتلة تجاه الحقيقة التي تدينه وتريه عيوبه ونقائصه في جلاء».

عن الانتهازيين والأتقياء المخلصين

صحيح أن كل حركة جماهيرية تجتذب بالضرورة عددًا لا يستهان به من الانتهازيين - خاصة من بين الكُتَّاب والصحافيين ومحترفي السياسة - ممن ينضم إليها على أمل أن تصل يومًا إلى الحكم فيفيد منها على قدر مناصرته إياها وهي في المعارضة. هذا أمر حتمي، بل ومرغوب فيه إلى حدٍّ ما. بل أقولها صراحة إنه من المفيد للحركة أن تلوح من بعيد لضعيفي النفوس والخلق بالنفع الشخصي الذي سيعود عليهم، والثمار التي سيجنونها متى نجحت الحركة. غير أني أسارع فأقول أيضًا إن قوة الحركة إنما تعتمد أساسًا وفي المقام الأول على المخلصين الأتقياء لا على الانتهازيين، وعلى من هم على استعداد للتضحية بالنفس في سبيل القضية لا على مَن مِن المؤكد أنه سيهجر القضية فور أن يتبين عقبات ضخامًا تعترض سبيل نجاحها، أو يلمس أن مصالحه الشخصية قد باتت مهددة.

فالإيمان إذن هو المطلب الأول. وإيمان الفرد بقضية مقدسة - كما ذكرت لتوي - هو إلى حدٍّ بعيد بديل عن إيمانه المفقود بذاته. ومن المؤكد أنكم لاحظتم أنه كلما تضاءلت مبررات ثقة المرء بنفسه ومناقبه، عظم استعداده لأن يضفي المناقب والفضل على أمته، وعلى دينه، وعلى جنسه، وعلى قضيته.

كذلك لا بد قد لاحظتم أنه كلما فقد الإنسان إيمانه بجدوى شؤونه الخاصة، تحول إلى الاهتمام بشؤون الآخرين، وإلى الاعتقاد بأن من واجبه المقدس أن يتدخل في أمورهم الشخصية، في لهوهم وجدهم، في مأكلهم ومشربهم، في طول لحاهم أو طول جلابيبهم. وهو في إقدامه على إفساد حفل بإحدى الجامعات، أو تكسير آلات موسيقية، أو الحيلولة دون عرض مسرحي، أو الاعتداء على متاجر يمتلكها أقباط، يخال أنه إنما يخدم الصالح العام، وهو لا يخدم إلا ذاته. ويخال أنه إنما يمد يد المساعدة إلى غريق، وما الغريق إلا هو. ويخال أنه بعلمه إنما يثبت تواضعه وإنكاره لذاته واستعداده للتضحية بها. والحقيقة أن زهوه بذاته الجديدة لا يدانيه زهو الطاووس، وأنه لو نفد البحر لما نفدت كبرياؤه وخيلاؤه. قد حسبوا أن الله لا يرحمهم حتى يعذبوا أنفسهم ويأخذوها بالقسوة، وأظهروا التواضع في سلوكهم وحديثهم، وأكنُّوا الكِبر في قلوبهم، وإن أحدهم لأشد عُجبًا بكسائه المرقع من صاحب الحُلة الثمينة بحُلته!

طبيعة التطرف

ثم أمضي فأحدثكم في طبيعة التطرف. قد قلت إن فشل المرء في تحقيق آماله ومطامحه، ووصوله بسبب الإحباط إلى اقتناع بأن حياته قد غدت خالية من المعنى، يخلقان لديه حاجة ماسة إلى الانتقال إلى خدمة قضية خارج ذاته. وما كل أشكال الحماس الزائد والتطرف وإنكار الذات والولاء المطلق، إلا من قبيل تعلق المحبط بشيء يضفي المعنى على حياته، ويجدد لديه الثقة والأمل. وإذ إن هذه الحاجة هي الأولى من بين احتياجات الإنسان، وإن إثبات الذات قد يفوق في ضرورته ضرورة الطعام والماء، فإن التعلق بهذا البديل لا بد أن يتخذ سمة التفاني والتعصب والتطرف، وأن يصبح الأمر مسألة حياة أو موت. وهذا الاستعداد لدى الفرد للموت في سبيل القضية التي جددت لحياته معناها، هو نفسه أقوى دليل في نظره على أن هذه القضية هي أعظم القضايا قدسية وأنصعها حجة.

قد يتساءل أحدكم: ولكن، أية قضية؟ وإجابتي هي: أية قضية، المطرقة والسندان، الصليب، الهلال، الصليب المعقوف، راية مصر الخضراء بهلالها ونجومها الثلاثة... كلها قضايا لها سمة الدين، وطقوس الدين، ولها عقيدتها وقديسوها وشهداؤها ومحرابها ونبيها الملهم أو الموحى إليه. وكلها مما يمكنه أن يشبع حاجة الشباب القلق الضائع إلى شيء يؤمن به. وحيث إن كل هذه القضايا وغيرها تجتذب إليها نفس النوع من الشباب، فجميعها متنافسة فيما بينها في مجال تصيد

الأنصار، في مكاسب هذه خسارة لتلك، كما يصبح من المنطقي ومن الممكن بالتالي أن ينتقل هذا الشاب، وبكل يسر، من الولاء لقضية إلى الولاء لأخرى، وأن يتحمس للثانية تحمسه للأولى، ويضحي على استعداد للموت هنا كما كان على استعداد للموت هناك. وقد رأينا في التاريخ كيف تحول شاول بطبيعته النارية من اضطهاد المسيحيين ليصبح القديس بولس أحد أعمدة المسيحية، وكيف تحول عمر بن الخطاب بطبيعته النارية من اضطهاد المسلمين ليصبح أحد أعمدة الإسلام. قال هتلر في «كفاحي»: «إنه لمن المستحيل أن يصبح البورجوازي الصغير نازيًّا، غير أنه من أسهل الأمور أن يتحول الشيوعي المتحمس إلى النازية». كذلك فقد كان كارل راديك الزعيم البلشفي يرى في الشباب النازي جنود المستقبل في صفوف الشيوعية!

ونحن نحمد الله على أن الحزب الوطني في مصر ليس ذا قضية يمكن للشباب المصري أن يتبناها ليموت في سبيلها! كما نحمد الله على أن قضايا الأحزاب الأخرى قد ضلت وماعت، ولم يعد في الساحة غير حركتنا الإسلامية مما بوسعه أن يجتذب المحبطين، وأن يبعث الأمل في غد مشرق في قلوب الفاشلين واليائسين.

في ألمانيا، رأى كبار الرأسماليين من رجال الصناعة في رعاية نمو النازية أنجح وسيلة لضرب الديمقراطيين الاشتراكيين. وفي إيطاليا رأى ساستها في دعم التعصب الكاثوليكي أفضل سبيل لصد الزحف الشيوعي. غير أننا في مصر، ولله الحمد، لا نرى ساسة ولا مفكرين ولا غيرهم يخططون لطرح فكر بديل عن فكرنا في الساحة الأيديولوجية، يمكنه أن يلهب مخيلة الشباب، ويصد الأنصار عن الانخراط في صفوفنا.

الهجرة والجريمة

وأود الآن أن أذكر ملاحظة طريفة: إن الهجرة إلى خارج الوطن تهيئ للفاشلين المحبطين نفس الآمال التي يهيئها انضمامهم إلى جماعاتنا الدينية؛ الأمل في التغيير، والأمل في بدء حياة جديدة في أرض الميعاد. ولذا فإن كلًّا من المهاجرين وأفراد جماعاتنا هم، في الجوهر، نفس الصنف من الناس. وليس من الغريب أن يتخذ التطرف الديني هو أيضًا شكل الهجرة حتى مع بقاء أصحابه داخل حدود الوطن. هي هجرة «داخلية» إذن. والمهاجر عن مصر يتبع تحقيره لمجتمعه بالرحيل عنه، في حين يتبع المتطرف تكفيره لمجتمعه بالهجرة الداخلية. فهنا «تحقير وهجرة»، وهناك «تكفير وهجرة». وليس من المصادفة على الإطلاق أن يشهد مجتمعنا في توقيت واحد اتساع نطاق الهجرة واتساع نطاق الانضمام إلى الحركات الدينية.

والأطرف من ذلك ما يتصل بالجريمة. ففي نفس الفترة التي زادت فيها جرائم القتل والسرقة والنصب وانتهاك العرض وغيرها في مصر زيادة كبيرة مفاجئة، زاد لجوء أفراد الجماعات الدينية إلى أعمال العنف والإرهاب والاغتيال وإحراق الكنائس. هذه باسم الشيطان، وتلك باسم

الرحمن. وهنا أيضًا نجد الاقتران الزمني ليس من قبيل المصادفة. فالأوضاع الاجتماعية السائدة قد أسهمت في زيادة عدد العناصر الإجرامية. والكثيرون من هؤلاء المجرمين، بانضمامهم إلى الجماعات الدينية، قد أخفوا عن أنفسهم تلك النزعات الإجرامية الكامنة فيهم بإلباسها ثوب الدين والتقوى ومخالفة الله وطاعته، فأمكن لهم بذلك الاحتفاظ بالنزعة الإجرامية وبسكينة الروح في آنٍ واحد. وهو دافع بوسعنا أن نستغله أعظم استغلال في التخلص من بعض أعدائنا، وإرهاب البعض الآخر، وذلك باستدراجنا للمجرم الذي هو على استعداد لقتل امرأة عجوز من أجل حليها، لتنفيذ اغتيال الشيخ الذهبي أو محاولة اغتيال حسن أبو باشا ومكرم محمد أحمد، و«للفتوة» ذي النزوع العارم إلى إثارة الشجارات أو الدخول فيها، وتحطيم المتاجر وتكسير الفوانيس بالشوارع، لتنفيذ تفريق الفرق التمثيلية، وتحطيم الآلات الموسيقية، وإشعال النار في نوادي الفيديو.

أعواننا

المجرمون إذن، والفاشلون المحبطون، والعاطلون والمراهقون، وكل من ألفى صعوبة في التكيف أو النجاح في مجتمعه، هم أعواننا الحاليون والقادمون. قد جمعت بينهم الكراهية لهذا المجتمع، فصاروا على أتم الاستعداد لهدمه وإشاعة الفوضى فيه، والتكاتف فيما بينهم لتخريبه، ظانين أن يد الله فوق أيديهم، وما فوق أيديهم إلا أيدينا. وبذا يضحي الحجر المرفوض ركن الزاوية، لمجرد إيحائنا إليهم أن جميع آمالهم المحبطة ستتحقق فور وصولنا إلى الحكم.

لا تضيعوا إذن وقتكم في محاولة استمالة العامل المثابر، أو الفلاح القانع، أو الموظف الجاد، أو أي امرئ أعفاه جده ومثابرته - مهما بلغ به الفقر - من الإحساس بالضياع. ولتركزوا بالأخص على أفراد الطبقة البورجوازية التي باتت اليوم في رعب من أن تتحول إلى بروليتاريا بسبب الأحوال الاقتصادية الراهنة.

وثمة صنف آخر من الناس - من جميع الطبقات - لا بد من أن تولُوهم اهتمامكم، وأعني أولئك الذين يخشون نعمة حرية الاختيار، بل يمقتونها. وهم بحمد الله أكثر مما تظنون. فالحرية عبء على من لا موهبة لديه في أن يصنع من نفسه شيئًا، ومن شأنها أن تلقي بتبعة الفشل على عاتق الفاشل لا على الظروف المحيطة به. وقد وصلت إلى إيمان بأن غالبية الناس إنما تنضم إلى جماعاتنا الدينية ليتحرروا من حريتهم، وفرارًا من المسؤولية الشخصية. هم يخشون الحرية أكثر مما يخشون اضطهاد السلطة وسجونها، وأخوف ما يخافونه هو تلك المنافسة الحرة المعروفة في كل مجتمع حر، والتي من شأنها أن تفضح عجزهم وافتقارهم إلى القدرات. وبالتالي يصبح جماع همهم أن يتحولوا إلى تروس بلا هوية في جماعة تسودها المساواة، أو إلى خيوط بين خيوط جمة في ثوب أو قماش، لا يمكن التمييز بين هذا الخيط فيه وغيره.

كذلك ينبغي التركيز على أولئك الطلبة والعمال الوافدين من الريف إلى المدن الكبيرة للدراسة أو

العمل، مخلفين وراءهم دفء الحياة العائلية الآمنة التي هي ألد أعداء حركة كحركتنا. وقد علمنا التاريخ أن جل الحركات الثورية كان يقف من العائلة موقف الخصومة والعداء، وأن رجالها كانوا دائمًا يعملون جاهدين من أجل الوقيعة بين المرء وأخيه، وأمه وأبيه، وزوجه وبنيه، حتى يضحي في النهاية بمفرده، وحيدًا في محيط لا يأمن له أو فيه، فيسهل بذلك على الدعاة اصطياده. وما من شك في أنه من أقوى الاعتبارات التي ساهمت في نجاحنا، ما شاهده المجتمع في عهد ثورة يوليو من انهيار الولاءات القديمة، وحظر قيام الأحزاب، وتحلل الروابط الأسرية والاجتماعية التقليدية، وكثرة النازحين من الريف إلى المدن ممن اضطربت نفوسهم، وضاع إحساسهم بالأمن نتيجة لهذا النزوح. وهو نفس الحال مع الجنود المُسرَّحين من الجيش.

أهمية تحقير الحاضر وتمجيد الماضي والمستقبل

أشد ما تخشاه السلطة من حركتنا ويقلق بالها، ذلك الاستعداد الرائع لدى أفراد الحركة للتضحية بالنفس، بل وللموت في سبيل القضية، وذلك التنظيم الوثيق الذي يربط بينهم، والذي لولاه لما نما الاستعداد للتضحية بالنفس. فتدريب الأفراد على العمل الجماعي تدريب على إنكار الذات، والتنكر لحياته الخاصة، ولِحقه في التفكير الحر واستقلال الرأي، وتدريب على احتقار الموت. واحتقار الموت له شرطان: احتقار الحاضر، وتوهم المرء بأنه جزء من حركة تاريخية بالغة الأهمية، أو من تمثيلية رائعة الفخامة، وحلقة صلة بين ماضٍ مجيد، ومستقبل مجيد، في حاضر تافه بغيض. وكل هذا يتطلب عدة أمور: محو شخصية العضو وإحساسه بالتفرد والتميز، وضمان ألا يستشعر الفرح والأسى، أو الفخر والثقة، إلا من خلال جماعته وقدراتها ومقدراتها، وأن يشعر دومًا بأن أعين رؤسائه ورفاقه تراقبه.

تحقير الحاضر ووصمه بالبؤس، وتسفيه المجتمع ورميه بالكفر، لازمان لاستثارة شجاعة أنصارنا وتوهمهم أنهم لا يخسرون كثيرًا بفقد حياتهم. غير أننا لن نكتفي بالقول وتكراره في هذا المجال. وإنما ينبغي على القادة أيضًا أن يضمنوا أن تكون حياة أتباعهم خشنة غليظة، قاتمة مملة، لا لهو فيها ولا متعة ولا راحة. علينا أن نصور لهم التسلية على أنها تافهة لا تليق بجلال قدرهم، والسعي وراء السعادة الشخصية على أنه من وساوس الشيطان، وأن نخترع الأحاديث في تحريم الموسيقى والغناء والرقص والعروض المسرحية وكل ما من شأنه أن يروح عن النفس، ويخفف من عبء الحياة. ولتسهيل كل هذا فلنوجه أنظارهم دومًا للتطلع إلى روعة المستقبل الذي ينتظرهم، وأمجاد الماضي التي سيحيونها. وبوسعي أن أؤكد لكم أنه من السهل جدًّا إقناع هؤلاء بأن في مقدورهم أن يقوموا بما قام به أبو بكر وعمر بن الخطاب، ويحققوا ما حققه صلاح الدين أو خالد بن الوليد. ذلك أنه ما من صعوبة في أن نخدع من أقدم سلفًا على خداع نفسه، بل يطالبنا يوميًّا بأن نخدعه ونستمر في خداعه، حتى يطمئن ويستريح، وحتى يلقي مسؤولية الفشل حين يفشل على قوة

الجاهلين وبطش أعوان الشياطين، ويرجعه إلى هول أبعاد المهمة الجسيمة الملقاة على عاتقه، في حين يؤدي فشله في مهام الحياة العادية؛ في الدراسة أو الوظيفة أو التجارة، إلى افتضاح قصوره الذاتي وضحالة قدراته.

قد كان إقناعه سهلًا لأنه كان مقتنعًا سلفًا من قبل أن نحاول أن نقنعه. وسيكون خداعه سهلًا لأنه متهيئ لذلك سلفًا من قبل أن نحاول خداعه.

أهمية إذكاء الكراهية

قد لا ترى بعض الحركات الثورية الجماهيرية - كالشيوعية والفاشية والنازية - حاجة إلى الله. غير أنه ما من حركة ثورية في التاريخ كله كانت في غنى عن الشيطان. وإنما تقاس قوة الحركة بقوة كراهية أعضائها لعدو جُسد لهم تجسيدًا، يرون فيه مصدر بلائهم وأصل دائهم. دليل ذلك أننا حين نحب لا نتلفت حولنا بحثًا عن حلفاء، بل ننظر إلى من يشاركنا في هوى المحبوب باعتباره غريمًا ومنافسًا. أما حين نكره، فنحن دومًا في حاجة إلى من يشترك معنا في مشاعر الكراهية، وإلى أكبر عدد ممكن من هؤلاء حتى تقوى ثقتنا في أننا في كراهيتنا قد أصبنا عين الحق.

وأفراد جماعاتنا بما دربوا عليه من إنكار الذات، والتضحية بالمتع والملذات، وبشظف حياتهم وخشونة معيشتهم، يسهل عليهم أن يكونوا شديدي القسوة والمرارة في حقدهم وكراهيتهم للآخرين، خاصة إن خالوا أنهم أسعد منهم، وأرضى نفسًا، وأوفر حظًّا من النجاح في الحياة وفي تحقيق ذواتهم. وقد قيل عن الثوار إبان الثورة الفرنسية إنهم كانوا كلما أمعنوا في كراهيتهم لأعدائهم، وفي قطع الرقاب وسفك الدماء، زاد إيمانهم بصحة مبادئهم. وهو ما يثبت ضرورة الكراهية والعنف ليس فقط في إرهاب الأعداء وقمع الخصوم، وإنما أيضًا في تعزيز إيمان الإرهابي بعدالة قضيته، كما تعززه كثرة الأعضاء في جماعته. أو كما قال مونتني في أحد مقالاته: «بوسع الحماس الزائد أن يصنع المعجزات، ولكن شريطة أن يستند إلى ما جُبِلْنا عليه من القسوة ومشاعر الكراهية».

السلطة والتطرف

أيها السادة، تساءل بعضكم في اجتماع الأسبوع الماضي عما إذا كان من المحتمل أن تلجأ السلطات الحاكمة في يوم من الأيام إلى موجة عارمة من إجراءات العنف والقمع تجاه حركتنا الجماهيرية، وعن احتمالات نجاح هذه الإجراءات. وأجيب الآن صراحة أن أية حركة جماهيرية من الممكن قمعها واستئصالها بالعنف مهما بلغت قوتها وشعبيتها، ولكن بشرط أساسي، هو أن يتوفر لهذا الحزم الثبات والدوام والقوة، بالإضافة إلى إيمان قوي لدى رجال السلطة (يعادل في قوته إيمان أفراد جماعاتنا) بأن الحق في جانبهم، وأنهم إنما يقاومون خطرًا رهيبًا يهدد مستقبل البلاد.

ونحن نحمد الله أن هذا الشرط لم يتحقق إلى وقتنا هذا، وأن عنف السلطة وحزمها تجاه التطرف

لا يزالان على تذبذبهما وترددهما وتقطعهما وضعف الإيمان وراءهما، وهو ما يضمن لنا أنهما لن يحققا طائلًا، ولن يدوما طويلًا. وقد علمتني الحياة أنه متى تذبذبت السلطة بين العنف والتساهل، والمكافحة والمصالحة، والتشدد والتنازل، فسيكون من المقدر للحركة أن تفيق دومًا بعد كل كبوة، وأن تسترد قوتها بعد كل هزيمة، بل ستزيد هذه القوة بعد كل مواجهة عنيفة معها، بالنظر إلى اكتسابها خبرات جديدة، واكتساب ضحاياها هالة الشهداء الأبرار نتيجة كل صدام.

* * *

أيها السادة، أشكر لحضراتكم صبركم وحسن استماعكم. وسيُفتح باب المناقشة بعد استراحة قصيرة تقدم خلالها المرطبات.

وفقكم الله...

عند القنصل المصري في بون... دخل علينا أثناء حديثنا شاب ألماني غاضب، يسجل شكواه من أمر وقع له أثناء جولته السياحية بمصر.

قال إنه في يوم ٣ مارس توجه إلى مكتب للتلغراف بالقاهرة، كي يرسل إلى أبيه في ميونيخ برقية يهنئه فيها بعيد ميلاده السبعين. وقد تسلم منه البرقية موظف يدعى صالح، كان بالغ الظرف والأدب معه، وطمأنه إلى أن البرقية ستصل والده يوم عيد ميلاده الموافق ٤ مارس، ثم تقاضى منه مبلغ ثمانية جنيهات وعشرة قروش أجرًا لها، مقابل إيصال مختوم أرانا الشاب إياه.

عاد الشاب إلى ألمانيا فإذا والده يوبخه توبيخًا عنيفًا إذ قد نسي أن يبعث إليه بالتهنئة في عيد ميلاده. فالبرقية إذن لم ترسَل. والغالب أن يكون الموظف، على الرغم من ظرفه وأدبه، قد احتفظ بالمبلغ لنفسه. وهو يطالب الآن القنصلية المصرية برد قيمة ما دفعه بالمارك الألماني، وإلا فقد احترامه للشعب المصري، وعاهد نفسه ألا تطأ قدماه مصر مرة أخرى.

لم أملك نفسي من الابتسام بعد الاستماع إلى القصة. إذ أين يمكن أن نجد مثالًا أصدق من هذا لعجز أبناء البيئات الحضارية المختلفة عن فهم بعضهم البعض؟ فهنا موظف مصري بائس مطحون، ليس واسع الذمة بالضرورة. ولو أن البرقية كانت خاصة بحادث وقع، أو أزمة مالية يطلب الشاب من والده إنقاذه منها، لكان من المؤكد أن يرسلها الموظف. غير أنها مجرد تهنئة بعيد ميلاد رجل عجوز. وهو أمر لا يمكن للموظف أن يتخيل إنفاق ثمانية جنيهات من أجله. ثمانية جنيهات يمكنه أن يشتري بها لنفسه وزوجه وأولاده من اللحم ما لا يأكله إلا مرة كل أسبوع أو أسبوعين. والغالب أن الشاب الألماني سيرحل عن مصر عن قريب، ولن يعلم أن البرقية لم ترسل إلا بعد عودته إلى ألمانيا. كما أن المؤكد أنه لن يثير ضجة بسبب ثمانية جنيهات، وهو مبلغ لا شك تافه في نظر مواطن من دولة غنية كألمانيا. أما عن الألماني فهو يراه أمرًا هامًّا أن يبعث إلى أبيه بتهنئة في عيد ميلاده، وأمرًا مستفظعًا أن يدفع مبلغًا مقابل خدمة لن تؤدى. وهو يعتبر الموظف مجرمًا في حق دولته، ينبغي أن يُفصل أو يُسجن. والغالب أنه يحسب أن موظف البريد والبرق في مصر يتقاضى ما يتقاضاه زميله الألماني من أجر، أو أن موضوع المرتب لم يخطر بذهنه. وهو واثق من أن القنصلية المصرية ستتعاطف مع شكواه، وستنزعج إزاء تأثير مثل هذه التصرفات في حجم السياحة إلى مصر.

تسلم منه القنصل الإيصال، ووعده بالكتابة فورًا إلى السلطات في مصر لاتخاذ اللازم، والتكرم بالإفادة.

* * *

دلفت وزوجتي - بعد انتهاء الحفل الموسيقي بصالة بيتهوفن - إلى مطعمها المطل على نهر

الراين لتناول العشاء. كانت أصوات كورال سيمفونية بيتهوفن التاسعة لا تزال ترن في أذنَي، ونشوة أقرب إلى النشوة الدينية تملأ كياني كله... وساءلت نفسي عما إذا كانت هناك طرق إلى الله أقصر من مثل هذا الطريق. ثم قفزت إلى ذهني صورة أفراد الجماعات «الدينية» المتطرفة في أسيوط وهم يحطمون الآلات الموسيقية بالجامعة، معلنين تحريم الموسيقى والغناء: أحمد عدوية وموتزارت على سواء.

جاءت الجرسونة الألمانية إلى مائدتنا تسألنا مبتسمة عن طلبنا. ثم قطعت تدوين الطلبات في دفترها لتسأل زوجتي:

- أعندكِ برد يا سيدتي؟

فما إن أجابتها زوجتي بالإيجاب حتى اختفت لتعود بعد بضع لحظات بصينية فضية صغيرة عليها كأس من النبيذ الأحمر الدافئ، وطبق صغير به قرصان من الأسبرين، وفازة نحيلة قصيرة بيضاء بها أزهار الزنبق.

في أي بلد آخر، يمكن أن تأتي هذه اللفتة الظريفة من جرسونة في مطعم؟ وابتسمت إذ تذكرت سائق السفارة المصرية (وهو حديث العهد بالوصول إلى ألمانيا من مصر)، وحديثه إليَّ ظهر اليوم وهو يوصلني بالسيارة إلى فندقي بوسط المدينة، قال وهو يتلفت حوله إلى الزهور والأشجار والأرصفة بالشارع الواسع:

- حسين بك!

- نعم.

- هم مش كانوا بيقولولنا زمان إن مصر أم الدنيا؟

- صحيح.

- أمال ألمانيا تبقى أم مين؟

* * *

غير أن تفكيري - تحت تأثير بيتهوفن - سرعان ما عاد إلى حكاية أسيوط، وبالأخص إلى مقالات استنكار الفعلة في الصحافة المصرية... وجدت غضبي على المتخلفين الذين حطموا الآلات الموسيقية أخف حدة من غضبي على «المستنيرين» الذين أدانوا هذا التحطيم مستندين إلى سندين لا ثالث لهما: أن الأحاديث التي تحرم الموسيقى والغناء أحاديث ضعيفة أو موضوعة، وأن ثمة أحاديث «صحيحة» تحلل الموسيقى والغناء، وقصصًا في السيرة النبوية تثبت أن محمدًا، أو إحدى زوجاته، أو أحد العشرة المبشرين بالجنة، كان يستمع إلى الموسيقى والغناء ويستمتع بهما.

إلى هذا الحد من التخلف إذن قد بلغنا! إثبات قضية من القضايا قد بات عندنا محصورًا في إثبات ورود حديث بصددها أو نفي ورود حديث. قد أفهم عداء قوم متخلفين للغناء والموسيقى بسبب ما يخالونه حديثًا صحيحًا. غير أني لا أفهم أن يأتي دفاع «المستنيرين» عن الموسيقى والغناء مستندًا

إلى حديث أو سيرة لا إلى اعتبارات العقل والمنطق.

هل بوسعنا أن نتخيل شابًّا ألمانيًّا يتحدث عن الموسيقى على النحو التالي: «إنني شديد الولع بالموسيقى لأني قرأت أن مارتن لوثر - قدس الله روحه - مر يومًا هو وزوجته بقوم في قرية قرب فيتنبرج يعزفون ويغنون، فشرعت زوجته تغني مع القوم، بينما وقف لوثر أمامها وهو يهز رأسه استحسانًا. وفي قول آخر، ظل يدق الأرض بمقدمة قدمه مسايرًا للنغم. أما عن ثقتي من أن الموسيقى هي من أهم الفنون طرًّا وأجداها على البشرية، فنابعة عن القصة التي أوردها إدموند لودلو، عن هنري لوتريل، عن أوين فليتهام، من أن بعض رفاق لوثر سألوه يومًا: «ما قولك يا مارتن في بابا روما الذي يكره الموسيقى؟»، فأجاب لوثر: «دعوكم منه، فهو لا يفقه شيئًا». (وهو حديث متفق عليه)».

هل يمكن أن نصادف ألمانيًّا يتحدث على هذا النحو؟ المعرفة عند الفرنجة هي استخدام المعروف في إماطة اللثام عن المجهول. والمعرفة عندنا معشر المسلمين قائمة جاهزة كاملة بين أغلفة الكتب، وكلما كانت الكتب أقدم كانت المعارف أصح. هذا هو موقف متخلفينا ومستنيرينا على سواء. قد لا أعبأ كثيرًا بالقرار المتخذ بشأن تحريم الموسيقى أو تحليلها، غير أن الكارثة الحقيقية في رأيي هي في المنهاج، صحته أو فساده. وقد بدأت الحضارة الغربية الحديثة حين شرع فرانسيس بيكون في مستهل القرن السابع عشر يتشكك في النتائج التي وصل إليها أرسطو (وكانت من المسَلمات في القرون المظلمة)، فأصر على رفض المسَلمات، وإخضاع كل شيء للتجربة ولإعمال العقل والتفكير. فإن كان موقف مستنيرينا في القرن العشرين على ما هو عليه، فمن ذا الذي سيعد أمتنا يا ترى لاستقبال القرن الحادي والعشرين؟

يا مَعشَرَ العُلَماءِ يا مِلحَ البَلَد ما يُصلِحُ المِلح إذا المِلحُ فَسَد

* * *

على الشاي مع المستشرقة الألمانية أنَّا ماري شيميل، سألتني عن خلاصة رأيي في الجماعات الإسلامية المتطرفة، فأجبت:

- حين يفقد المرء احترام الغير، يوحي لنفسه بأنه يتمتع برضا الآلهة!

- فسِّر؟

- إن كان من شأن تطوير الدين أن يخفف من حدة الصراع بين أهله وبين الظروف والأحوال المعيشية والقيم المستجدة، فإن هناك من العوائق ما لا يسمح باستمرار هذا التطوير إلى ما لا نهاية. من هذه العوائق:

- أن ثمة حدودًا للتطوير والتأويل تكاد الكافة أن تجمع على أن تجاوزها يمثل خروجًا على الدين.
- لجوء الفقهاء لظروف معينة إلى قفل باب الاجتهاد.
- ظروف تسمح بغلبة علماء الدين المتزمتين ضيقي الأفق، وبسيطرتهم على الحياة الفكرية في مجتمع معين.
- جمود وانغلاق وعزلة طويلة الأمد تسمح باستمرار العقيدة دون تطوير، ودون احتمالات صراع. وقد تنتهي هذه العزلة فجأة (نتيجة غزو عسكري وحضاري قوي مثلًا، كذلك الذي تعرض له العالم الإسلامي في أواخر القرن الثامن عشر وخلال التاسع عشر) فتتدفق على ذلك المجتمع قيم ومفاهيم شديدة الاختلاف، ودون تدرج أو رفق، بحيث لا يسهل هضمها واستيعابها وتبنيها. أما السبب في شدة التباين في القيم فهو انعدام أو ضعف الاتصال والتأثير المتبادل التدريجي بين المجتمعين لقرون طويلة.

وقد تكون الصدمة الحضارية هنا من القوة والقسوة، والفجوة بين المفاهيم من الاتساع، بحيث يعجز الكثيرون عن مواجهة هذه وعبور تلك دون التعرض لخطر فصام الشخصية، فيفضلون التمسك بما ألفوه على محاولة التكيف والتأقلم وملاءمة الفكر للأحوال الجديدة. وبالتالي، وبسبب هذا الموقف الذهني، تبدو عقيدة هؤلاء عاجزة عن مسايرة العصر، وتبدو لغيرهم عقبة في سبيل التطور والتقدم والمعاصرة والتكيف وفق تطورات حتمية. وهنا ينشأ عادة صراع مرير بين الرجعيين والمستنيرين، بين رافضي التطوير وقابليه، تكون ثمرته مرارة شديدة لدى جماعتيهما، وشكًا عميقًا من جانب كل طرف في نوايا الآخر، ورد فعل عنيفًا من جانب البعض يتمثل في هجر الدين بأسره باعتباره من الأوهام البالية، ودعوة إلى تشييد صرح فكري جديد على أنقاض العقيدة الدينية. وغالبًا ما يُكتب النجاح لهؤلاء الأخيرين، بحيث يتحول أنصار التشبث بالقديم إلى جماعة من المتخلفين عن ركب الحضارة. غير أن جماعتهم لا تستسلم بسهولة للمصير الذي تدرك لاشعوريًا بأنها آيلة إليه. وهي في نفس الوقت لا تملك الإمكانات العقلية والروحية التي تؤهلها لتجنب هذا المصير بانتهاج سبيل غير السبيل الذي اختارته مضطرة بسبب ضعف هذه الإمكانات. وهنا يحدث لها ما يمكن تشبيهه بصحوة الموت، ويتحول أفرادها من الاعتدال والجدال المهذب الواثق من نفسه، ومحاولة التوصل الهادئ إلى حقيقة الأمور، إلى العنف وأعمال الإرهاب والاغتيال والبطش بالمخالفين، وتكفير المجتمع، والتجمع في إطار جماعات دينية متطرفة، كمحاولة أخيرة يائسة لإثبات الحق في البقاء.

* * *

تمشية طويلة على ضفة نهر الراين. ليس ثمة أجمل من المناظر إلى يمينك غير المناظر إلى يسارك. الأزهار والورد في أحواضها لا يعبث بها عابث، ولا تمتد إليها يد إلا بالرعاية. فالأزهار تُترك حتى تذبل على أغصانها ويستقبل الثرى أوراقها. فيا ألف حسرة على الأزهار في الشرق، وعلى الإنسان في الشرق... أب وأم قد خرجا بطفلهما الرضيع لاستقبال أشعة الشمس، وكلبهم على مقربة منهم يعدو ويلهث جيئة وذهابًا في ابتهاج... لفيف من السيدات في السبعين أو الثمانين في ثياب ربيعية الألوان، وقبعات أنيقة، يسترحن على المقاعد من سيرهن، وإذ أقترب منهن أسمعهن يتحادثن في أشعار هايني. شاب وفتاة على دراجتيهما يتحادثان مبتسمين وقد أمسك كل منهما بعجلة القيادة بيد، ويد رفيقه باليد الأخرى. قد عشت فيما مضى سنوات بين ظهراني هذا الشعب، فما رأيت من بين شعوب الأرض من هو أطهر وأعف منه عشقًا، ولا رأيت رجلًا أحرص من الرجل الألماني على النظر إلى المرأة باعتبارها بشرًا، ورفيق حياة، وأختًا في الحياة الإنسانية، لا موضع شهوة، ولا رمزًا جنسيًا، ومحل تحكم واستعباد... ومع ذلك فإن بعض السائحين العرب ممن يقدمون إلى هنا بحثًا عن المتع الجنسية، وعيونهم تكاد تقفز من محاجرها كلما لمحوا فستانًا في الطريق، لديهم من القحة ما يجعلهم عند عودتهم يتحدثون عن انحلال الأخلاق الجنسية هنا بالمقارنة بأخلاقيات مجتمعنا الطاهر.

وأعود من الجولة إلى فندقي فأدير التلفزيون للاستماع إلى نشرة الأخبار. القوم مشغولون بإجراءات الاستعداد للوحدة الأوروبية عام ١٩٩٢، واجتماعات وزراء مالية واقتصاد وزراعة وصناعة وتجارة دول المجموعة. غير أن الأولوية في أنباء الساعة هي كالعادة للشرق الأوسط والعالم العربي! مناظر مرعبة لضحايا الأسلحة الكيميائية في شمال العراق، أفراد عائلة كردية أموات حول مائدة طعامهم، أم ميتة تحتضن طفلتها الرضيعة الميتة على أسفلت الطريق، شيخ جاحظ العينين قد أسند ظهره إلى حائط البدروم الذي آوى إليه متوهمًا أنه سيعصمه من الموت، ثم أنباء قصف المدن في حرب الخليج: المباني الأثرية في عروس الدنيا شيراز التي ألهمت أشعار حافظ وسعدي في خراب، وكذا آثار أصفهان، والأحياء السكنية في بغداد وطهران والبصرة وغيرها، وحول المباني المتهدمة فيها يقف ساكنوها السابقون حيارى يلطمون، ثم أنباء الطائرة الكويتية المختطفة والخاطفون يلقون منها في مطار لارناكا بجثة إنسان في كيس قمامة إلى أرض

المطار، ثم أنباء الصدامات بين حزب الله ومنظمة أمل في لبنان، وأنباء عن تدفق الصبية السودانيين اللاجئين من حرب الجنوب في السودان إلى إثيوبيا والصومال، ثم مناظر عن استعدادات الصحراويين في تندوف لشن هجمات جديدة على المغاربة...

وتقفز إلى ذهني قولة رسول الله للأوس والخزرج يوم تنادوا بالمدينة لقتال بعضهم البعض: «يا معشر المسلمين أبِدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وألَّف بينكم، فترجعون إلى ما كنتم عليه كفارًا؟! الله الله!». ولكن هيهات! فزغاريد النصر التي سمعناها بالأمس في طهران إنما تسجل إبادة جيش من المسلمين لجيش من المسلمين، وزغاريد النصر التي نسمعها اليوم في بغداد إنما تعبر عن فرح إذ يقوم مسلمون بتدمير ثروات المسلمين. وكل من هؤلاء وأولئك إنما يستعينون على هذه الإبادة وهذا التدمير بأسلحة يزودهم بها فرنجة لا يريدون لأولئك أو هؤلاء الخير، ولا يهمهم في شيء أيُّ الفريقين على حق في غضبه وفي حربه، وإنما يهمهم إنهاك قوى الفريقين، وتبديد ثرواتهما، وإنهاك قوى الإسلام، وتبديد قدراته وإمكاناته.

وأهرع إلى كتاب المنقري «وقعة صفين» لأعيد قراءة هذه الكلمات لأحد المسلمين الذين حضروا الحرب بين عليٍّ ومعاوية منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا، ولأنظر فيما إذا كان فيها حرف واحد لا ينطبق على حالة الأمة الإسلامية اليوم. قال:

> «كانت حياتنا ورقًا لا شوك فيه فأضحت شوكًا لا ورق فيه. خيار الناس يقتلون خيار الناس، دعوتهم واحدة، ورسولهم واحد، وصلاتهم واحدة، وحجهم واحد. وكل فريق يرى أنه على الحق فيما يطلب، وأنه إنما يغضب لله ويقاتل في سبيل الله! ألا والله لقد هلكت العرب! سبعون ألف مسلم في القتلى! فمن لقتال المشركين إن فني الناس؟ من لحماية الشام بعد أهل الشام، وحماية العراق بعد أهل العراق؟ لوددت أنهم قتلوا في سبيل الله في حرب الروم، وما أرى غير أنه سيجيء الفرقاء يوم القيامة تتضح أوداجهم دمًا، كلهم يستعدي الله فيما أريق دمه. يقول عليٌّ إن العراق لن يستقيم أمره إلا بهلاك الشام. ويقول معاوية إن الشام لن يستقيم أمره إلا بهلاك العراق. وما خيرنا بعد ضياع الشام والعراق؟ الله الله في الإسلام يا رجال! الله الله في الثغور! أكلتنا الحرب وقُتلت الرجال، وسبحتم في الدماء وما أضجركم القتال؟ ألا أيْتَمَ منكم أولادكم كما أيتمتم أولاد المسلمين! سيوف المسلمين قد أرصدت لقتال العدو لا لقتال الصَّديق. ولكن لا رأي لمن لا يطاع! لا رأي لمن لا يطاع! لا رأي لمن لا يطاع!».

* * *

في جريدة الصباح «دي فيلت» تصريح للحكومة الألمانية تعترف فيه بأنها هي التي زودت العراق وإيران بالمواد التي صُنعت منها الأسلحة الكيميائية وإن كانت قد زودتهما بها لصناعة المبيدات الحشرية لا الأسلحة! لا بأس! ما عليكم! هي لا تزال مبيدات حشرية، كما أن أكياس

القمامة الملقاة من الطائرة المختطفة لا تزال أكياس قمامة.

* * *

برنامج ديني في إذاعة كولن العربية. سؤال من مستمع يمني يجيب عنه أحد شيوخ المركز الإسلامي بمدينة كولن:

السؤال: استخدام التلفون، حلال هو أم حرام؟

الإجابة: استخدام التلفون حلال إذا ما استخدم فيما أحله الله، كتهنئة قريب، أو تعزية صديق، وحرام إذا استخدم فيما حرمه الله، كاتفاق على منكر، أو تهديد بمكروه... قال تعالى...

لا بأس! ما عليكم! وما ضر الألمان أن يذيعوا في إذاعتهم العربية الإجابات السخيفة على أسئلة سخيفة ما دامت هذه الأسئلة هي كل ما يشغل أذهان شعوبنا المتخلفة.

* * *

في مقهى «بونار كافي هاوس» مع صديق مصري يعمل بالسفارة، شكا لي من آلام رهيبة في المعدة تنتابه كل بضعة أشهر منذ حلوله بألمانيا ولا يعلم لها سببًا. أجبته على الفور:

- أشاهدت فيلم «المهاجر» للمخرج الألماني فاسبيندر؟

- لا. لماذا؟

- حاول أن تشاهده، فهو معروض الآن بإحدى دور السينما في باد جودزبرج. إنه عن عامل جزائري مهاجر إلى ألمانيا. وإذ يصاب بآلام رهيبة في المعدة بعد قدومه بأشهر، يهرع إلى طبيب ألماني، فإذا بالطبيب يخبره أن تسعة أعشار المهاجرين إلى ألمانيا من الدول المتخلفة يصابون بمثل هذه الآلام كل ستة أشهر، وأنه قد تبين أنه لا سبب لهم غير الصدمة الحضارية التي تنتابهم نتيجة العيش في دول متقدمة.

قال صديقي في ضيق:

- ماذا تعني؟ لقد عشت سنوات طوالًا في كندا وإنجلترا والاتحاد السوفيتي والأرجنتين، وما أنا ممن يمكن أن يُنعتوا بالتخلف، أو يصعب عليهم التأقلم والتكيف، أو يجدوا الحياة في ألمانيا غريبة عليهم.

أجبته بقولي:

- ولو...

ثم غيرت الموضوع.

* * *

في مبنى إدارة جامعة بون مع ابنتي نسرين لتقييد اسمها طالبة بالجامعة. قلبي وقلب أمها يكادان ينفطران لفكرة افتراقنا عنها مدة أربع سنوات كاملة، غير أني إذ أمسكت بالقلم لإمضاء التعهد بالإنفاق عليها طوال سنِي الدراسة، أحسست وكأنما أركبها سفينة نوح، أعود بعدها مع أمها إلى اليم.

* * *

في قديم الزمان، كان البحارة متى أحدقت بسفينتهم المتاعب، وأُسقط في يد الربان إذ يرى

اضطراب البحر وصخب الأمواج والريح، هتفوا صائحين: «لا بد أن ثمة جثة قد أخفيت في أحد صناديق البضائع المشحونة على ظهر السفينة»! ثم إذا بهم يشرعون في البحث عنها للتخلص منها، مؤمنين بأنها سبب محنتهم، وبأن التخلص منها بإلقائها في البحر كفيل بأن يرفع عنهم ما حل بهم من بلاء ولعنة.

هل أحذو حذو هؤلاء - وقد عصفت بأقطار العالم الإسلامي الرياح واضطربت الأمور واختلت الأوضاع - فأبحث عن الجثة المسؤولة في حمولة السفينة؟ لا شك في أن البحث سيكشف عن عدة جثث لا جثة واحدة... غير أني واثق من أني سأجد إحداها وقد بلغت من الضخامة والعفن درجة لن تدع مجالًا للشك في أنها المسؤولة الأولى عما أصاب سفينة العالم الإسلامي من نقمة: ألا وهي استعداد أبناء الأمة لتمكين يد الماضي الميتة من أن تقبض على أعناقهم، وتمسك بخناقهم، وأن تتحكم قيم هذا الماضي ومعتقداته في حاضرهم ومستقبلهم.

* * *

الفجوة بيننا وبينهم في اتساع، ما في ذلك ريبة، وبسرعة مخيفة، وعلى الرغم من كل ما تبذله حكوماتنا من جهود من أجل ما أسماه أخي جلال «تحديث الفقر» في كتابه بهذا العنوان. وبوسعنا أن نلتمس للأمر آلاف الأسباب، غير أن منظرًا واحدًا في الصباح في شارع بسمارك الذي قصدناه لنقل أمتعة ابنتي نسرين إلى شقة فيه، وضع يدي على سبب جوهري قد يفسر الفجوة: سيارة مكشوفة يركبها أربعة من الشباب الألماني وقد أداروا المذياع فيها، فجاء صوت الموسيقى منه أعلى مما ينبغي. وإذ تقف السيارة عند إشارة مرور حمراء، يتقدم من الشباب شيخ ألماني غاضب، يعنفهم على صخب مذياعهم الذي قد يزعج المارة والسكان، فلا يعبأون بتوبيخه، ولا يخفضون الصوت، بل يشيح أحدهم بذراعه في وجه الشيخ هازئًا. فما يكون من الشيخ إلا أن يخرج ورقة من جيبه، وقلمًا من جيب آخر، يسجل رقم السيارة من أجل إبلاغ الشرطة. فإذا بالأربعة يقفزون من سيارتهم على الفور بعد إغلاق المذياع، ليحيطوا بالشيخ على الرصيف، متوسلين إليه أن يغتفر زلتهم.

أثمة ما هو أصدق دلالة من هذا الحادث على الفارق بيننا وبينهم؟ هذا الإحساس المدني، هذا الشعور لدى الفرد بالمسؤولية عن المجتمع بأسره، هذا الالتزام الصارم بالقاعدة الإسلامية التي هجرناها نحن وتبنوها هم والتي تقضي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذه المبالاة، هذا الاكتراث، هذه الجدية في تقييم الحياة، أي شيء من كل هذا قد بقي لنا ونحن نردد في كل مناسبة مماثلة: «يا عم صلِّ على النبي! هو إحنا حنصلح الكون؟!»، أو «خلِّيهم، دي غرقانة غرقانة!».

* * *

«ى ىٍ ىِ ئج ئح ئم ئى ئي بج بخ بم بى بي تج تخ تم تى تي ثج ثم ثى ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ».

لقد التقى الجمعان في زمننا هذا، فأصابت العالم الإسلامي مصيبة هي من عند نفسه، وأصبح اليوم أشبه شيء بخلية النحل التي فقدت ملكتها. قد نرى النحل مستمرًّا في مجيئه وذهابه، وقد تحسب هذه الحركة حياة. غير أننا متى اقتربنا من الخلية لتأملها بعناية، هالتنا مظاهر الفوضى التي ضربت أطنابها فيها بعد رحيل الملكة، والتي جعلت من الأجدى التخلص من الخلية بإلقائها طعمة للنيران.

* * *

أخبار فيضان نهر الراين تشغل صفحات كاملة من الصحف هنا. تليها أخبار قصيرة عن الجفاف والقحط في أفريقيا السوداء وولايات عديدة من البرازيل. وفي المساء، حديث طبي في التلفزيون عن كيف أن أحد الأسباب الرئيسية للموت لدى الألمان عامَي ١٩٤٥ و١٩٤٦ كان فقر التغذية، فأضحت البِطنة اليوم والإفراط في تناول الأطعمة الدسمة أبرز أسباب الوفاة.

فيا سبحان الله! فيضان مدمر هنا وجفاف مدمر هناك. وبطنة مدمرة هنا ومجاعة مدمرة هناك. أفما هناك وسط عدل؟

* * *

زيارة للمنزل الذي وُلد فيه كارل ماركس بمدينة تريو. لقد تنبأ الرجل في القرن الماضي بأنه من شأن النظام الرأسمالي أن يزيد الفجوة بين مستوى معيشة الأغنياء ومستوى معيشة الفقراء، وأن من شأن تزايد اتساع الفجوة بين الطبقات أن يعجل بثورة الكادحين. غير أن الواضح كالشمس أن الكثير من النظم الرأسمالية (ومنها النظام الرأسمالي في ألمانيا الغربية) قد أمكنه في القرن العشرين أن يحبط نبوءة ماركس عن طريق العمل على تضييق هذه الفجوة بشتى الوسائل ورفع مستوى معيشة أفراد الطبقة العاملة فيها، وتحقيق قدر معقول من العدالة الاجتماعية ينفي شبح الثورة ويبعد أسباب التوتر والسخط.

ومع ذلك، فإن نبوءة ماركس بدأ يظهر صدقها واحتمال تحققها في مجال آخر ما كان هو نفسه ليتوقعه أو يحلم به، ألا وهو اتساع الفجوة بين مستوى المعيشة في الدول الغنية والدول الفقيرة، مما ينذر الآن بأوخم العواقب في ميدان العلاقات الدولية. لقد تمكن عدد من الدول من تحقيق رفاهية في عيش شعوبها تصل أحيانًا إلى حد البذخ، في الوقت الذي تتفاقم فيه المشكلات الاجتماعية والضائقة الاقتصادية في دول أخرى. وقد كان الفقراء في الماضي أقل إحساسًا بفقرهم، وأقل تبرمًا به، وثورة عليه من فقراء يومنا هذا الذين باتوا يدركون جيدًا - بفضل الإذاعة والصحافة والسينما - كيف يعيش غيرهم في الدول الغنية المتقدمة، وما يتقلبون فيه من نعيم وترف. فالفجوة قد صارت واضحة لكل عين ترى وأذن تسمع. ومع وضوحها زاد إحساس الفقراء بفقرهم، وضيقهم بوضعهم، وثورتهم على واقعهم، إذ يحرمون مما يرون غيرهم يستمتعون به. وقد نما عندهم من التطلعات والمطامح ما لم يعرفه أجدادهم، وما ليس بوسع اقتصاد دولهم الفقيرة أن يحققه لهم أو

يشبعه.

وبالتالي فقد غلب عليهم الشعور بالقهر والإحباط والسخط والمذلة، وهي مشاعر كثيرًا ما باتت تجد متنفسًا لها في حروب أهلية، أو حروب بين الدول المتخلفة ذاتها، أو في أعمال عنف وتخريب، أو في عمليات إرهابية تُنفذ ضد مصالح الدول الغنية في الخارج، أو في أراضيها ذاتها وضد رعاياها.

وقد بدأت الدول الغنية تستشعر القلق إزاء هذه التطورات، وتدرك أن أمنها ورغد عيشها لا يمكن الاطمئنان إلى استمرارهما ما دامت هناك شعوب ودول خارج حدودها تغلب عليها مشاعر الحسد والإحباط والإحساس بالظلم والقهر. وقد يحسب رؤساؤها والسلطات فيها أن الخطر منحسر إن هي اتخذت الإجراءات القوية لمحاربة الإرهاب، أو لمنع اختطاف الطائرات، أو عززت من حراسة مصالحها في الخارج، أو حدت من دخول رعايا الدول الفقيرة إليها أو أبعدتهم عنها، أو وحدت جهودها مع جهود غيرها من الدول الغنية لوضع حدٍّ لهذا الخطر المستفحل. غير أن الخطر - في اعتقادي - سيظل ماثلًا وقائمًا ما دامت المظالم ماثلة، والفجوة بين الشعوب قائمة، وما دام السعي إلى تحقيق العدالة الاجتماعية في نطاق الأفراد والطبقات في الدولة الواحدة لم يتبعه السعي إلى تحقيقها بين الدول كافة.

كان المسيح يقول: «لكي تكون كاملًا، بِع ما تملك وأعطِ للفقراء». لم يقل إن هذا التصدق واجب لصالح الفقراء، وإنما ذكر أنه لصالحك أنت، ولكي تكون كاملًا. وهو بالضبط ما ينطبق اليوم حيال الدول الغنية لكي يكتمل نعيمها.

* * *

في القطار من بون إلى فرانكفورت أقرأ في مقال بالصفحة الأولى من «الهيرالد تريبيون» عن مشكلة العمال الأجانب في ألمانيا، من أتراك ويوغوسلاف وعرب. يذهب المقال إلى أن حماس الألمان المشهور للعمل قد خبا بعض الشيء، وأنهم قد باتوا يفضلون ممارسة هواياتهم الخاصة، وينصرفون عن الأعمال الوضيعة كجمع القمامة، وكنس الشوارع، والأعمال اليدوية، وبيع الصحف والفاكهة والخضراوات، وهي أعمال صار الأتراك والعرب واليوغوسلاف يقومون بها، إلى النشاطات القيادية في المصانع والمؤسسات. ثلاثة أرباع العمال في صناعة السيارات الألمانية مثلًا هم الآن من المهاجرين الأجانب، والربع الألماني متفرغ فيها للإدارة والرقابة والاختراع.

أليس من المحتمل أن يكون هذا الوضع نذيرًا بما ستكون عليه الحال في المستقبل غير البعيد بصدد الدول المتقدمة جمعاء والدول المتخلفة جمعاء؟ أن يتخصص رعايا المتخلفة بعد انقضاء أجل الصراعات الدموية فيما بينها، وحين تكف في النهاية عن اختطاف الطائرات وإلقاء المتفجرات في مطارَي روما وفيينا، في الأعمال الوضيعة التي يعزف رعايا الدول الغنية عن القيام بها، ويتفرغ الآخرون للفنون والرياضة والاختراع والتكنولوجيا الرفيعة، وإحكام الرقابة على

المتخلفين؟

كل الدلائل الراهنة تشير إلى هذا الاتجاه.

* * *

في مطار فرانكفورت لاستقلال الطائرة الجزائرية عائدًا إلى الجزائر، الغالبية العظمى من الركاب في انتظارها من العرب، كل يحمل أحمالًا من البضائع الألمانية، وإذ تعلن المضيفة في الميكروفون عن بدء استقبال الطائرة لركابها، إذا بهم فجأة يهبون من مقاعدهم ويهرعون إلى الباب رقم ٣٢، يدفع بعضهم بعضًا دفعًا غليظًا، ولو كانوا أطفالًا أو نسوة، حتى يكون لهم السبق في الصعود إلى الطائرة، وتحاول المضيفة الألمانية في البداية إقناعهم بالتريث والثبات، شارحة لهم أن المقاعد محجوزة لكل منهم، وعلى بطاقات الصعود أرقامها، فلا داعي إذن للتزاحم والتدافع. غير أنها إذ تفشل في إقناعهم تلجأ إلى النهر والتقريع. وإذ تفشل في هذا أيضًا، تلوح بذراعها يائسة وعلى وجهها تعبير من الازدراء الجم. وأحاول أنا وزوجتي أن نلفت نظرها إلى أننا لسنا من المزاحمين المدافعين، وإلى خطواتنا الهادئة البطيئة، عساها أن تظننا من جنسية أخرى. غير أننا رأيناها مع الأسف تشيح بوجهها عن الجميع، وتدير لنا ظهرها، وهو ظهر احتك بمؤخرته أحد المسافرين العرب، وكأنما عن غير قصد...

لقاء مع المحقق الكبير
الأستاذ محمود شاكر

١٢ ديسمبر ١٩٨٣

كنت اليوم في «دار الشروق» حين أخبرني صاحبها الأستاذ محمد المعلم أنه ينوي القيام في الثامنة مساء بزيارة لمحمود شاكر في منزله لتهنئته بفوزه بجائزة الملك فيصل في الأدب، وسألني عما إذا كنت على استعداد لمرافقته. وإذ كنت شديد التطلع إلى مقابلة محمود شاكر منذ قراءتي لكتابه الغريب «أباطيل وأسمار» والمقدمة الشائقة لكتابه عن المتنبي، ولما أحمله من تقدير لجهوده الفذة في تحقيق كتب التراث، وما أسمعه عن شخصيته القوية، وآرائه الفريدة، وضخامة تأثيره في دائرة المعجبين به، على الرغم من حدة طبعه، وسلاطة لسانه، فقد رحبت بمرافقة المعلم إليه، وإن خالط سروري شيء من الوجل والرهبة، والخشية من الاصطدام به إن كان قد قرأ بعضًا من مقالاتي في مجلة «المصور» أو كتابي «دليل المسلم الحزين».

وتذكرت ونحن في الطريق إليه حديثًا كان قد دار منذ نحو عام بيني وبين صاحب مكتبة «وهبة» بعابدين: قصدت المكتبة لشراء الطبعة الجديدة المنقحة من كتاب ابن سلام «طبقات فحول الشعراء» الذي حققه شاكر. وإذ دخلت مع وهبة في حديث عبرت خلاله عن إعجابي بشاكر كمحقق، سألني عما إذا كنت أعرف الرجل شخصيًّا، فأجبت بالنفي. فإذا به يتمتم وهو يبتسم:

- أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه.

وسألته مندهشًا:

- كيف؟ أتعرفه شخصيًّا؟

- قضينا فترة في السجن في زنزانة واحدة خلال حكم جمال عبد الناصر وكنت شديد الإعجاب به قبلها، فلما عاشرته إذا هو أثقل الناس وطأة، وأقلهم أدبًا ومراعاة لمشاعر الآخرين. كنت على استعداد بسبب تقديري العظيم له لأن أكون خادمه في الزنزانة. غير أنه تقبل خدمتي له كأمر طبيعي، وعاملني معاملة الخادم الأجير.

- أي نوع من الشخصيات هو؟

- فظٌّ، فظٌّ، فظٌّ! وفي ظني أن مفتاح شخصيته يكمن في إحساسه العميق بالفشل على الرغم من ثقافته الأصيلة، ومواهبه الجمة، وشعوره بأن حياته قد ضاعت سدى في حين كان مؤهلًا لأن يكون أكبر كاتب في العالم العربي. هذا الإنسان الضخم الذي حصَّل من الثقافة الإسلامية ما لم يحصِّله غيره ولن يحصِّله غيره، ماذا أنتج؟ كتاب عادي عن المتنبي كتبه في صباه، وديوان شعر هزيل ضحل، وكتاب ضخم في هجاء لويس عوض، ثم تحقيق لبعض كتب التراث. أهذا إنتاج خليق برجل مثله؟ أهو إنتاج يؤهله لأن يشغل مكانة رفيعة في حياتنا الأدبية؟ لقد كان مؤهلًا لأن يعطي الكثير، غير أنه لم يفعل. وإحساسه بقدراته مع عجزه عن ممارستها جعلا منه إنسانًا حقودًا مرًّا فظًا لا يطيق أن يرى غيره ينتج ويحرز الشهرة كطه حسين مثلًا الذي لم يحصِّل جزءًا من المائة من ثقافة محمود شاكر. وكانت النتيجة أنه راح يدور كالثور الهائج يهاجم ويطعن، ويسب ويلعن، وينسب المسؤولية عن فشله وقلة إنتاجه إلى آخرين، وعلى رأسهم طه حسين. إنه، بكل تأكيد، المثل الكلاسيكي لمرارة الفشل.

- أهي حالة شبيهة بحالة زكي مبارك؟

- لا يا سيدي، مرارة الفشل تجمع بين الرجلين، كما تجمع بينهما كراهية طه حسين والميل إلى إلقاء المسؤولية عليه. غير أن الفشل في حالة زكي مبارك كان فشلًا في نيل الجاه والثروة والمنصب الرفيع، وهو في حالة محمود شاكر فشل في الإنتاج. وهو الآن وقد جاوز السبعين وبدأت قواه تضعف ونظره يذهب، كلما لمس من الناس إعجابًا وتقديرًا زاده ذلك التقدير ثورة ومرارة وهياجًا إذ يزيد من إحساسه بأنه أضاع حياته هدرًا ولم ينتج ما كان بوسعه إنتاجه من مؤلفات تهز الحياة الفكرية عندنا هزًّا... إنني لا أحب لويس عوض، وأشارك محمود شاكر رأيه فيه، ولكن قارن بالله عليك بين حجم إنتاج لويس وحجم إنتاج شاكر، بين نشاط لويس وتوهجه وكسل شاكر وقعود همته، بين تأثير هذا في حياتنا الثقافية وتأثير ذاك...

* * *

وصلنا إلى الشقة ففتح لنا بابها شاب دميم شديد الأدمة، يرتدي جلبابًا، حسبته الخادم حتى حياه محمد المعلم تحية حارة وناداه باسمه «فهر»، فأدركت أنه ابن رب الدار. ودلفنا مباشرة إلى

الصالة، فإذا بمحمود شاكر وأم فهر وابنته وزوج ابنته وقد اجتمعوا حول جهاز التلفزيون يتابعون إحدى حلقات تمثيلية مسلسلة. وقد كانت صدمة لي أن أرى هذا العملاق المخيف جالسًا أمام التلفزيون يضيع وقته بمراقبة تمثيلية غثة. غير أنه ترك مقعده أمام الجهاز عن طيب خاطر، واصطحبنا إلى صالون صغير ملحق بالصالة. وإذا اعتذرنا له عن قدومنا في وقت غير مناسب ودعوناه إلى إكمال مشاهدة التمثيلية، تظاهر ضاحكًا بعدم المبالاة بتفاهات التلفزيون.

هنأه المعلم بجائزة الملك فيصل، وكان واضح السرور بها. وعندما عرفته بنفسي لم ألحظ في وجهه أي رد فعل، فأيقنت أنه لم يقرأ شيئًا من كتاباتي، كما رجحت - بسبب فتور ترحيبه بي - أنه لم يكن على علاقة طيبة بأبي... ثم بدأنا نتحدث عن الجائزة، فقال شاكر في مرارة إنه على الرغم من أهميتها العظمى، وعلى الرغم من أنه شرف عظيم لمصر أن تُعطى الجائزة لأحد أبنائها، لم تتحدث أي من الصحف أو المجلات المصرية ولو في سطر واحد عن فوزه بها، وهو ما ارتآه دليلًا قاطعًا على أن ثمة مؤامرة حكومية ضده. غير أن محمد المعلم نفى أن يكون الإغفال مقصودًا، ونسبه إلى قصور من صحافتنا في تغطية الأخبار. ثم قال:

- سأتصل الليلة بأحمد بهجت في «الأهرام» وأطلب منه أن يكتب مقالًا في الموضوع في الصفحة الأدبية.

قالها بلهجة الواثق من أن أحمد بهجت لا بد ممتثل للأمر، وكأنه موظف عنده في «دار الشروق». غير أن هذا لم يكن مفاجأة لي. فأنا أعلم أنه هو الذي طلب من بهجت أن يكتب مقالين في «الأهرام» في الإشادة بكتابي «دليل المسلم الحزين» وقت صدوره عن الدار، وأن إبراهيم المعلم هو الذي طلب من بهجت أن يكتب مقالات يهاجم فيها سياسة الحكومة حيال تصدير الكتاب المصري، وسياسة مدير الجمارك بصدد استيراد مستلزمات الطباعة، مما يسبب ضيقًا شديدًا لـ«دار الشروق».

- هيهات يا سيدي، هيهات! أليس جميع موظفي «الأهرام» من تلاميذ حسنين هيكل، ذلك الذنَب الأكبر للاستعمار الغربي؟ وعلى أي حال فإن رسالة «الأهرام» هي هي لم تتغير منذ كان يرأس تحريرها تقلا الذي بصق في وجه أحمد عرابي. هي عميلة الاستعمار منذ عهد تقلا إلى عهد إبراهيم نافع.

ثم شرع يتحدث عن كيف أن لويس عوض، بعد صدور «أباطيل وأسمار»، شعر بأن من واجبه إزاء فداحة الاتهامات التي وجهها شاكر إليه، وعجزه عن الرد عليها، أن يتقدم باستقالته من «الأهرام» إلى حسنين هيكل، غير أن هيكل رفض قبولها، وأصر على أن يواصل لويس عمله وكتاباته في الصحيفة.

ثم قال موجهًا الحديث إلى المعلم:

- أتحسب أن أحدًا من زملائي الأفاضل أعضاء المجمع اللغوي خطر في ذهنه أن يهنئني على فوزي بالجائزة؟ لا يا سيدي، بل إن منهم من بلغت به القحة حد الاستهزاء أمامي بقيمتها الأدبية. غير أني لم أعبأ بالرد أو المعاتبة، إذ ماذا عساي أن أتوقع من أناس كهؤلاء؟

ولاحظ المعلم أن شاكرًا لم يوجه إليَّ كلمة منذ أن استقر بنا المجلس، ولا يكاد يلتفت إليَّ بوجهه أثناء حديثه، فحسب أنه لم يسمع اسمي واضحًا حين عرَّفته بنفسي. فانبرى يقول:

- الأستاذ حسين أمين هو ابن أستاذنا المرحوم أحمد أمين.

قال شاكر:

- أعرف ذلك.

- وقد نشرنا له مؤخرًا كتابًا بعنوان «دليل المسلم الحزين» أحرز نجاحًا عظيمًا. سأرسل إلى سيادتك في الصباح نسخة منه.

فإذا بمحمود شاكر يشير بذراعه إلى الباب المفتوح لغرفة مكتبه (إشارة إلى أن الكتاب موجود بها)، ويتمتم قائلًا:

- قرأته!

قلت في دهشة:

- قرأت سيادتك «دليل المسلم الحزين»؟

- أيوه يا سيدي!

- وما رأيك فيه؟

- فَوِّت!

أي لا داعي للحديث عنه.

- اسمح لي بأن أصر على سماع رأيك مهما كان.

اعتدل في مجلسه ليواجهني، ثم قال:

- أتحسبني غافلًا يا سيد حسين عما تفعله؟ أتحسبني غافلًا عن نواياك وخططك من وراء مقالاتك في «المصور» أو كتابك هذا؟ لا يا سيد حسين! لا أنا بالغافل ولا أنا بالأبله حتى أسميك كما أسماك عبد العظيم أنيس منذ أسبوع في «الأهالي» بالكاتب الإسلامي المستنير. ما معنى «الإسلام المستنير» بالله عليك؟ أهناك إسلام مستنير وإسلام غير مستنير، أم أن الإسلام كله نور ومن لم يستنر به لا يجوز وصفه بأنه مسلم؟ الكاتب الإسلامي المستنير حسين أمين! محمد عمارة! فهمي هويدي! حسن حنفي! دعني أقل لك إن كل ما تكتبونه هو عبث أطفال. نعم، مجرد لعب عيال! كلكم أطفال! يقرأ أحدكم كتابين أو ثلاثة فيحسب نفسه مجتهدًا ومؤهلا للكتابة عن الإسلام والإصلاح والاستنارة! محمد عمارة هذا تبلغ به الصفاقة والادعاء والجهل مبلغًا يجعله يصف كتاب محمد عبده «رسالة التوحيد» بأنه من أهم ما كتب في التراث الإسلامي في علم الكلام! لا يا شيخ؟! هل قرأت يا سيد عمارة كل ما كتب في التراث الإسلامي في علم الكلام ثم وصلت إلى اقتناع بأن هذا الكتاب الهزيل الحقير الغث لمؤلفه ضحل الثقافة، من أهم الكتب في الموضوع؟! ما هذا العبث وهذا الاستغلال لجهل الناس؟! لا، الأمر أخطر من ذلك! إنها مؤامرة!

- مؤامرة؟!

- مؤامرة تستهدف تمجيد رجلين من أخطر عملاء الاستعمار في تاريخ أمة الإسلام: جمال الدين الأفغاني الماسوني، ومحمد عبده الصديق الصدوق لكرومر.

ودخلت زوجته السمينة، بعد انتهاء التمثيلية، تدور علينا بأكواب الشاي. فرشف شاكر من كوبه رشفة بصوت هائل، ثم عاد يتمتم:

- نعم. تبدو مندهشًا. غير أني قائل لك إن المسؤولية عن معظم ما يعاني منه الإسلام اليوم تقع على عاتق هذين الخبيثين، خاصة الأفغاني الذي هو أس الفساد كله. وقد تعجبان إن قلت لكما إنني متفق مع لويس عوض في الرأي بأن الأفغاني كان مجرد متآمر وأنه لم يكن صحيح الإسلام. وعلى أي حال فإن رأي لويس ليس جديدًا، وكل هذه الأمور كانت معروفة عن الأفغاني حتى أثناء حياته.

وبدا محمد المعلم نفسه مذهولًا، على الرغم من صلته الوثيقة القديمة بشاكر. فكان أن خيم علينا الوجوم، وساد المجلس سكون لم يقطعه غير صوت احتساء رب الدار لشايه وقد بدا غير عابئ بما أصابنا.

- ألف حسرة على العالم الإسلامي وأمة الإسلام! جهل مطبق بالفكر الإسلامي وبالتاريخ الإسلامي! تدهور رهيب في اللغة العربية! نظم التعليم في مدارسنا غربية محضة! حتى الجماعات المسماة بالإسلامية قد ألقت بتراث أربعة عشر قرنًا في صندوق القمامة! نعم، ولكنهم ينبرون للتهليل لإسلام جارودي وكأنه حدث هام في تاريخ الإسلام،

وذلك لمجرد أن هذا الأفاق الانتهازي نطق أمامهم بالشهادتين وأثنى على الإسلام في كتب له كلها أخطاء وكفر ومغالطات. وبعضهم يهلل للخميني والثورة الإيرانية والاثني عشرية. وما منهم من يدري أن الاثني عشرية هم غلاة الشيعة لا معتدلوها كما يزعمون، وأن الخميني كافر زنديق.

- كافر زنديق؟!

- بالتأكيد. ألم يقل بتحريف القرآن وتزنية عائشة؟

قلت:

- إزاء فرحة اتهامك للأفغاني ومحمد عبده، سأكون شاكرًا لو فصلت لنا الأمر.

- وسأكون أنا شاكرًا لو غيرت الموضوع.

- وهو كذلك. هل لي أن أسألك سؤالًا يحيرني منذ مدة؟

- قل.

- ما السبب يا تُرى في قلة إنتاجك مع غزارة علمك؟

امتقع وجهه امتقاعًا شديدًا لسؤالي، وخيل إليَّ لأول وهلة أنه في سبيل أن يسبني سبًّا غليظًا، غير أنه سرعان ما تمالك نفسه وقال في هدوء:

- لماذا توقفتُ عن الكتابة بعد صدور كتابي عن المتنبي؟ أقول لك بكل بساطة يا سيد حسين إنني خشيت على نفسي من أن يصيبني الغرور. لقد كتبت «المتنبي» في أيام الحداثة، ووصلني بعد صدوره أكثر من ثمانين رسالة تثني عليه وترفعه إلى السماء. وظللت مدة لا تكاد الدنيا تسعني من النشوة والزهو، إلى أن أفقت لنفسي، أفقت لنفسي وقررت التوقف عن الكتابة. بالضبط كما فعل الشاعر علي محمود طه ولنفس السبب... الكتابة لا تهمني وإنما تهمني نفسي وتقويم ذاتي. وكان أن انصرفت إلى تحقيق الكتب القديمة وبذلت كل جهدي وطاقتي في أن يكون التحقيق غاية في الدقة والإتقان.

- غير أنك توقفت عن إكمال تحقيقك لتفسير الطبري.

قال في ضيق وهو يتململ في مقعده:

- نعم. لأن الناشرين معظمهم لصوص. لا تؤاخذني يا محمد بك! ولأن الناس لم تعد تقرأ، فإن قرأوا فليست الكتب الجادة هي التي يقرأونها، وإنما يقرأون لأنيس منصور، ومحمود السعدني، ومحمد عمارة.

- وحسين أمين.

- وحسين أمين!

- هل لي أن أسألك عن علاقتك بوالدي كيف كانت؟

ابتسم ابتسامة خبيثة ثم قال:

- فَوِّت!

- لا يا أستاذ شاكر، لن أفوِّت!

- لم أكن أحبه.

لحظة صمت.

- ولمَ؟

- ما كل هذه الأسئلة المحرجة؟ تريد أن تعرف لماذا لم أكن أحبه؟ حسنًا. لم أكن أحبه لأنه كان رجلًا خبيثًا داهية.

- لم يكن ثمة رجل أطيب قلبًا ولا أبسط من أبي!

وانفجر شاكر ضاحكًا. ولدهشتي البالغة إذا بمحمد المعلم هو أيضًا يشاركه الضحك لقولي إن أبي كان طيب القلب.

قال المعلم:

- لا تؤاخذني يا حسين بك، ولكن المرحوم أحمد أمين لم يكن طيب القلب على الإطلاق، ولا كان رجلًا بسيطًا.

- كيف؟ كيف؟

قال شاكر:

- لن نخوض في هذا الأمر. عبد الوهاب عزام، على عيوبه، كان رجلًا طيبًا بسيطًا، أما أحمد أمين فلا. ولكنه على أي الأحوال لم يكن في خبث طه حسين ودهائه ومكره. غير أن ما أعيبه حقيقة على أحمد أمين هو أنه وهو الرجل العالم المثقف الذي كان بوسعه أن يقدم فكرًا جديدًا مبتكرًا في ميدان الدراسات الإسلامية، والذي يَجُبُّ علمه علم جميع المستشرقين، استسلم وأذعن لتأثير طه حسين وآرائه، ووقف موقفًا ذليلًا من أحكام المستشرقين الخبثاء الحاقدين على الإسلام، وتبنى في كتبه فجر الإسلام وضحاه وظهره هذه الأحكام، دون أن يجرؤ على تفنيدها والتصدي لها... ما هذا الذل، وهذه الاستكانة، وهذا الضعف، سواء منك أو من أبيك، تجاه المستشرقين الغربيين؟ أهم أدرى بتراثنا وأقدر على إصدار الأحكام بصدده من علمائنا نحن الذين نهلوا من هذا التراث مع لبن أمهاتهم ونشأوا عليه منذ نعومة أظفارهم؟ كيف يكون من حق «خواجة» بدأ في تعلم العربية في سن العشرين أو الثلاثين، ويظل «يتهته» بها إلى أن يموت، أن يدلي برأي في المعلقات السبع، وأن يصدر حكمًا على المتنبي أو أبي العلاء؟ كيف تسوغ لمسيحي صليبي نفسه أن يتحدث عن الأشاعرة أو المعتزلة حديث الواثق المطمئن لمجرد أنه قرأ كتابين أو ثلاثة في الموضوع؟ أيجوز لي، وأنا العربي، مهما بلغ إتقاني للغة الإنجليزية والأدب الإنجليزي أن أؤلف كتابًا عن تشوسر شبيهًا بذلك الذي كتبه بلاشير الفرنسي عن المتنبي؟ هل أسمح لنفسي، وأنا المسلم، أن تبلغ بها الصفاقة والغرور حد الكتابة عن دقائق الاختلاف بين المذاهب المسيحية؟ كيف يمكن لعالم إسلامي فذ كأحمد أمين أن يقع في فخ هؤلاء الصليبيين؟ الأمر في حالة طه حسين أيسر فهمًا؛ فهو لم يقع في الفخ، وإنما قرر باختياره الحر أن يشارك الصليبيين في نصب الفِخاخ لبني قومه ودينه. أما أحمد أمين، على الرغم من ذكائه وعلمه وصدق إسلامه، فقد وقع «زي الشاطر» في حبائل الشيطان.

ثم استطرد يقول:

- كلمني هذا الصباح المدعو مارسدن جونز الأستاذ بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، يريد أن يجتمع بي. رفضت، وقلت له إنني لا أريد أن أجتمع به. أتسمع عن مارسدن جونز هذا؟

- محقق كتاب «المغازي» للواقدي.

- آه! حتى أنت قد صدقت هذه الأكذوبة كسائر الناس. مارسدن جونز لم يحقق مغازي الواقدي ولا بذل فيه إلا أضعف الجهد. وهذا هو السبب في أني رفضت مقابلته. فقد حدث يومًا أن جاءني رجل مصري «غلبان» اسمه عبد الفتاح الحلو، وأخبرني أنه هو الذي حقق كتاب «المغازي» من أوله إلى آخره بناء على تكليف من مارسدن جونز ومقابل بضعة جنيهات كان في حاجة ماسة إليها، ولم يظهر اسمه على الغلاف لا باعتباره محققًا ولا حتى باعتباره مشتركًا في التحقيق، واكتفى جونز بالإشارة إليه في المقدمة باعتباره أحد الذين قدموا له العون أثناء تحقيقه للكتاب! هذا مجرد مَثَل لأخلاقيات هؤلاء المستشرقين الذين تَغنى والدك بفضلهم!

- وما الذي مال بك إلى تصديق زعم عبد الفتاح الحلو دون تصديق زعم مارسدن جونز أنه محقق الكتاب؟

قال شاكر في ضيق وهو يتململ في كرسيه مؤذِنًا بانتهاء الجلسة:

- الذي مال بي إلى تصديق زعم الحلو يا سيد حسين هو معرفتي بأخلاقيات المستشرقين. بالمر، جيب، ماسينيون، مرجوليوث، شاخت، كلهم خنازير استعماريون. وإني لأرد على كل عربي يتحدث عن فضل هؤلاء سواء في تعليمنا المنهج العلمي في تحقيق التراث أو في كتابة التاريخ، أو غير ذلك، بأن المسلمين هم الذين خرجوا على الدنيا في عصرهم الذهبي بالمنهج العلمي في التأليف، وهم الذين ابتدعوا وضع الفهارس للكتب لا الغربيون كما يدعون... لقد وضعت بنفسي فهارس كتاب المقريزي «إمتاع الأسماع» الذي حققته، فوصلتني رسالة من مستشرق فرنسي شهير يبدي فيها انبهاره بروعة هذه الفهارس، ويقول إنه ليس بوسع أي غربي أن يأتي بمثلها. فالمسألة إذن ليست مسألة فضل، وإنما هي تتعلق بخيبة المسلمين المحدثين حيال تراثهم. كل الأمور معنا تسير من سيئ إلى أسوأ؛ في الثقافة، والسياسة، والاقتصاد، والأخلاق، أو ما شئت. والله سبحانه وتعالى إنما يعاقبنا على ما نرتكب وما نهمل، وهو على كل شيء قدير.

وتحرك في مقعده حركة من يهم بالوقوف، فنهضنا على الفور للانصراف.

- بدري يا جماعة!

وكرر محمد المعلم عند باب الشقة وعده بأن يتصل بأحمد بهجت حتى يكتب عن الجائزة. قال شاكر:

- لا تتعب نفسك... لن ينشروا شيئًا. إنها مؤامرة يا صديقي، وعزم قاطع من جانب السلطة على ألا يُذكر اسم العبد الفقير في الصحف والمجلات لا بخير ولا بشر حتى ينسى الناس وجودي. لا بأس، لا بأس. شرفتم... خطوة عزيزة.

وعاد المعلم يهنئه بالجائزة. غير أني حين حاولت أن أحذو حذوه لم يطاوعني لساني.

عن حرية الفكر

حين نتحدث عن حرية الفكر، فإنما نعني حرية التعبير عن الفكر. فالفكر حر في ظل الأنظمة الديمقراطية والاستبدادية على سواء؛ بمعنى أنه ليس بوسع أحد أن يمنع أحدًا من أن يفكر كما يهوى، غير أنه مضطر - في ظل الاستبداد - إلى إخفاء أفكاره متى كانت هذه الأفكار غير مرضي عنها.

غير أنه حتى حرية التفكير هذه ليست من دون حدود: فهي محدودة أولًا بحدود تجارب الفرد وثقافته، وطبيعة تكوينه وشخصيته، وحدود قوة مخيلته وقريحته، وما أخذه عن أسلافه وبيئته. وهي محدودة أيضًا متى اضطر لسبب ما، كالضعف أو الكسل العقلي، أو قوة التقاليد، أو النشأة الأولى والتعليم الذي تلقاه، إلى تبني آراء الآخرين، حتى لو خال أنها آراؤه، وأنه اقتنع بها أو توصل إليها بِحُر إرادته. بل إن معظم المعارف والمعتقدات لدى معظم الناس هي من هذا النوع الثاني: معارف ومعتقدات قد أخذوها دون تمحيص عن آبائهم ومدرسيهم، ومعارفهم وأصدقائهم وأزواجهم، وعن الكتب والصحف التي يقرأونها. ولو أنك سألت امرءًا عن سبب اعتقاده شيئًا ما، لربما أجابك بقوله: «قد ذكره فلان وهو حجة»، أو «هو وارد في كتاب كذا»، أو «إنه أمر معروف لدى الكافة»، أو «ذاك ما تعلمته في المدرسة»... وكلها إجابات تعني أن صاحبها قَبِل الرأي أو المعلومة من آخرين، عن ثقة منه في حكمتهم أو في صدق معلوماتهم، دون أن يفكر في الأمر بنفسه ولنفسه، ودون أن يقلب فكره فيما سمع أو قرأ.

غير أنه من الواجب أيضًا أن نعترف بأن معارف المرء كانت ستضحي محدودة للغاية، لولا ضرورة تقبله للكثير منها - كالمعارف الجغرافية والفلكية والتاريخية واللغوية وغيرها - من المصادر الموثوق فيها، دون التصدي لاختبار صحتها بنفسه. إذ من ذا الذي بوسعه أن يتحقق بنفسه من صحة واقعة عبور هانيبال لجبال الألب، أو من أن قطر الشمس يبلغ ٨٦٥٤٠٠ ميل، أو يكلف نفسه عناء السفر إلى تسمانيا للتأكد من وقوعها جنوب شرق القارة الأسترالية؟

الرأي والمعرفة

بيد أن هذا القبول منا لما يقوله الآخرون، يستوجب شرطًا أساسيًّا: هو ألا نقبل من المصادر أمرًا هو غير قابل للإثبات وللتحقق منه. فالطالب على ثقة من أنه لو طلب إلى أستاذه أن يبرهن له عمليًّا على أن الحديد يتمدد بالحرارة، أو أن الماء مكون من عنصرين هما الأكسجين والإيدروجين، لأجرى الأستاذ أمام بصره من التجارب ما هو كفيل بإقناعه. ولو أني شككت في أن فرنسا تقع في الشمال الغربي من مصر، لكان بوسعي أن أقلع إليها في طائرة أو سفينة توضح لي بوصلتُها اتجاهي وأنا في طريقي إليها. هذا علاوة على أن مثل هذه المعلومات هي عادة مما لا تخفى وراءها مصالح وأغراض تدفع القائلين بها إلى الكذب.

وهنا نرى الأهمية القصوى للتمييز بين المعرفة والرأي. فالمعرفة قد تكون في وقت من الأوقات غائبة (كجهل البشر في الماضي بقابلية الذَّرة للانشطار)، أو قاصرة (كجهلنا اليوم بسبل علاج السرطان أو الإيدز)، أو حتى خاطئة (كظن الأوائل أن الشمس هي التي تدور حول الأرض). غير أنها دائمًا في سبيل التطور والتقدم والتصحيح حتى تغدو ثابتة مثبتة لا يختلف حولها اثنان. أما الرأي فغالبًا ما يتأرجح بين الصحة والفساد، والتصديق والتكذيب، وكثيرًا ما يكون غير قابل لأن يجتمع عليه الناس، وعرضة لأن تتحكم فيه الأهواء والمصالح، وأن يكون موضع الجدل والنزاع، والخصومة والقمع، والإرهاب والقتال.

صحيح أن الجدل والنزاع والإرهاب قد ثار أحيانًا، في الماضي، حول بعض المعارف العلمية (كما في حالة نظرية جاليليو)، غير أنه ليس أمرًا نادر الحدوث في التاريخ فحسب، بل الأرجح أن يكون قد انقضى اليوم إلى غير رجعة، بحيث بات الخلاف والخصومة الآن مقصورين على الآراء دون المعارف.

والعلوم والمعارف القطعية ليست في حاجة إلى شن حملات صليبية لإبادة غير المصدقين للنتائج التي توصلت إليها، بل هي على استعداد كامل لتعديل هذه النتائج متى نجم عن تطور سبل البحث والترجمة ما يقضي بتصحيحها، ولا تعرف التزامًا غير الالتزام تجاه كل ما في الكون بحب استطلاع محايد. والعلماء واجدون في نشاطهم لذة لا يفسدها إباء البعض أن يشترك في نشاطهم، ووليمتهم لا يعكر من صفوها رفض جيرانهم الانضمام إليهم للاستمتاع بها. وهذا هو السبب في أنه في حين نجد من النادر أن يصبر امرؤ على الاستماع إلى رأي سياسي أو اقتصادي أو ديني من شخص يخالفه، أو أن يعرض قضيته عرضًا موضوعيًّا نقديًّا هادئًا مجردًا عن الهوى، نرى العالم ينظر إلى الحقائق كافة - عدا طرائق الإثبات والتحقيق المنطقية - على أنها قابلة للتمحيص والتصحيح، ويرى الشك مطلوبًا ومرحبًا به ومشجعًا عليه، بل ويزيد من لذة البحث.

ارتباط حرية الفكر بحرية التعبير عنه

فنحن إذن حين نتحدث عن حرية الفكر إنما نعني عادة حرية التعبير عن الرأي، لا حرية البحث عن المعارف العلمية والتصريح بها. ذلك أن حرية المرء في التفكير في أي أمر شاء تغدو بعد حين غير كافية، بل أحيانًا مؤلمة للمفكر نفسه، متى لم يُسمح له بالتعبير عن أفكاره للغير، ناهيك عن عدم جدواها بالنسبة لغيره إن لم تتعدَّ الأفكار رأسه. أو كما يقول نيتشه: «قد غدا زرادشت في سن الأربعين كالنحلة التي جمعت من العسل أكثر مما يسعها حمله، فباتت بحاجة إلى أيدٍ تمتد لتأخذ منه».

أضف إلى ذلك أنه من الصعب للغاية على المرء أن يخفي أفكاره متى كانت مسيطرة عليه. فالشخص الذي يشك في صحة الآراء والتقاليد التي تحكم سلوك مواطنيه، من الصعب عليه - متى

كان شديد الاقتناع بصحة آرائه - أن يخفي مخالفته لهم، وألا يفضح موقفه بسكوته حينًا، وبالكلمة العارضة حينًا، وبسلوكه ومواقفه بصفة عامة، بل حتى بالابتسامة الهازئة الخفيفة، أو بالتثاؤب أو عبوس الوجه وازوراره. وقد ثبت علميًّا أن الاضطرار إلى إخفاء الرأي يضر بصحة مخفيه ضررًا ليس بالهين. وقد فضل البعض - كسقراط وبرونو والسهروردي - مواجهة الموت على إخفاء الرأي. وهو ما يوضح مدى ارتباط حرية الفكر بحرية التعبير عنه.

ولكن، ما طبيعة هذه الآراء التي قد نطالب بحرية التعبير عنها؟

ذلك أن ثمة من الآراء ما تقضي المصلحة أو الضرورة أو الأدب أو السياسة أو غيرها بأن نخفيه، دون أن نرى في الأمر غضاضة أو بأسًا؛ كالرأي يخفيه الزوج عن زوجته طالبًا لرضاها، أو الصديق عن صديقه خشية الغضب والجفاء، أو المضيف عن ضيفه من قبيل حسن الضيافة، أو الولد عن أبيه من قبيل الأدب، أو الطبيب عن المريض مراعاة لروحه المعنوية، أو الدبلوماسي عن المسؤولين الأجانب من قبيل الكياسة، أو الشخص عن عدوه من قبيل الحذر... كل هذا وغيره لا يدخل في اعتبار المطالب بحرية التعبير عن الرأي، وإنما يدخل في اعتباره عادة تلك المسائل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والفلسفية التي يرى أن حرية التعبير بصددها، وحرية مناقشتها، هما في صالح مجتمعه، بل أحيانًا في صالح البشرية جمعاء.

دواعي مناهضة حرية الفكر

قد غدت حرية التعبير عن الرأي اليوم مقبولة ومسَلمًا بها في معظم البلدان المتحضرة. غير أنها حرية لم تكتسب إلا في العصر الحديث، وبعد إراقة بحور من الدماء. وكان لا بد من مرور قرون طويلة حتى تقتنع الشعوب المتمدينة بأنها في صالح الإنسان لا العكس. بل كان لا بد من انقضاء أمد طويل قبل أن تخطر فكرة حرية الرأي نفسها في أذهان الناس. فثمة من المجتمعات ما عرف حرية التعبير عن الرأي قبل أن يطرأ بباله أنه يتمتع بها (كالإغريق والرومان في بداية دولتيهما، والعرب في الشطر الأعظم من جاهليتهم)، وقبل أن يعي أن هذه الحرية حق من حقوق الإنسان ليس من حق سلطة أن تمسه. وحين نسمع يزدانبخت يرد على الخليفة المأمون الذي طلب منه أن يعتنق الإسلام بقوله: «نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة، ولكنك لست ممن يجبر الناس على ترك مذاهبهم»، لا نستطيع أن نقطع من رده بأنه يؤمن بحق كل امرئ في التعبير عن رأيه، أو بحقه في اختيار ما يحلو له من المذاهب.

فمرور الزمن الطويل كان لازمًا إذن حتى تنبت في الأذهان فكرة هذا الحق. وهي فكرة تستلزم توفر أمور ثلاثة، الأول: إرساء دعائم مجتمعات ذات أنظمة سياسية واقتصادية؛ والثاني: شيوع آراء وأفكار ومعتقدات بين أفراد هذه المجتمعات تحظى من غالبيتهم العظمى بالقبول؛ والثالث: نشوء مصالح لدى طبقات معينة في المجتمع تكون مرتبطة بآراء ومعتقدات معينة.

وبالتالي يصبح في مقدورنا أن نحكم بأن المجتمعات التي كانت - أو لا تزال - تعارض حرية الفكر، وتناهض الآراء الجديدة، إنما تعارض هذه وتناهض تلك للأسباب الثلاثة التالية:

أولها: أن عقل الإنسان العادي هو بطبيعته كسول، وأفكاره يقبلها عادة من البيئة المحيطة به دون مناقشة. فهو يعارض غريزيًّا كل ما من شأنه أن يخلخل النظام الثابت في عالمه المألوف. والفكرة الجديدة تحتم ضرورة قيامه بإعادة ترتيب أفكاره، وهو أمر شاق. ومن ثَمَّ فإن الفكرة الجديدة تبدو له شريرة خبيثة لمجرد أنها مرهقة، ويفضل عليها اعتناق الآراء والمعتقدات المستندة إلى سلطان كنيسة أو كتاب مقدس أو رأي عام، حتى إن كان من المستحيل البرهنة على صحتها، لمجرد إيمانه المطلق بسلطة أو بفرد.

وثانيها: ذلك الخوف من أن تؤدي الأفكار الجديدة إلى تهديد المجتمع وأسسه، بالنظر إلى ما تعنيه من ضرورة إدخال التغيير والتعديل على النظم السائدة فيه. وقد ظل الناس حتى عصرنا هذا يخالون صالح الدولة في الاستقرار الثابت الجامد، وفي المحافظة على التقاليد والأنظمة دون أدنى مساس بها. ولذا صاروا يرون الشخص خطرًا متى شرع في التساؤل عن حكمة المبادئ الشائعة، أو التشكيك في التقاليد.

وثالثها: أن الأفكار الجديدة تهدد مصالح شرائح قوية من المجتمع، كتهديد مبادئ الثورة الفرنسية للطبقة الأرستقراطية، والماركسية للطبقة البورجوازية، والعلمانية لرجال الدين، وهي طبقات ترتبط مصالحها بالنظام القائم، وبالأفكار التي يستند إليها هذا النظام. ولذا صار من المؤكد أن تلقى هذه الأفكار معارضة قوية من تلك الشرائح. والواقع أن معظم المعتقدات الخاصة بالطبيعة والإنسان مما لا يقوم على أساس علمي، كان يخدم بصورة مباشرة أو غير مباشرة مصالح طبقة اجتماعية أو سلطة دينية، وبالتالي فقد كانت القوة تحميه دائمًا من هجمات وانتقادات أفراد يصرون في عناد على الاحتكام إلى العقل. والملاحظ بوجه عام - وكما سبق أن ألمحنا - أنه ما من شخص يغضب إذا أنكر جاره حقيقة قابلة للتمحيص والإثبات، غير أنه يثور ويغضب متى أنكر هذا الجار معتقدات لا يمكن بأي حال إثباتها علميًّا. فإن أصر الجار على أن صلاح الدين الأيوبي لم يكن له وجود، أو أنكر أن الملح يذوب في الماء، فإنه يثير سخريتنا أو شفقتنا. أما إن شك في وجود الملائكة أو في خلود الروح، فإنه يثير غضب الناس وكراهيتهم ونقمتهم، وقد يحكم عليه في بعض المجتمعات بالموت بسبب شكه هذا.

العقلانيون وأعداؤهم

وقد شهدت العصور الوسطى بالأخص ميدانًا شاسعًا من المعتقدات التي فرضت السلطات على الناس واجب قبولها، وحذرتهم من الخوض في الكلام عنها أو تحكيم العقل فيها. غير أن العقل إنما يخون طبيعته أو وظيفته إن هو قبِل الحدود التحكمية أو القيود المفروضة على حريته. وتأكيد العقل

لحقه المطلق في النظر في جميع الأمور هو ما يُعرف بـ«العقلانية». وما إدانة البعض لهذه العقلانية إلا من آثار الصراع المرير بين العقل والقوى المعادية له، لا سيما في مجال الثيولوجيا التي احتدم فيها الصراع بصفة خاصة.

والحقيقة أن أولئك الذين يهمهم حقًّا تأكيد سلطان العقل، كانوا دومًا - وقد يظلون لأمد طويل - أقلية صغيرة من البشر، ومن المثقفين الذين بوسعهم استخدام السلاح الوحيد المتاح للعقلانيين، وأعني به الجدل. أما السلطات فقد لجأت في حربها ضد هؤلاء إلى العنف المادي، والقهر المعنوي، والضغط القانوني، وإثارة الاستنكار الاجتماعي. وقد لجأت أحيانًا إلى استخدام سلاح أعدائها وهو الجدل وتحكيم العقل، غير أنها كانت دائمًا في تلك الأحيان تخرج من الصراع جريحة منهزمة، كما هي الحال حين حاربت الكنيسة أفكار جاليليو في أوائل القرن السابع عشر، ثم اعترفت بخطئها في أواخر القرن العشرين. والواقع أن أضعف نقطة في المركز الاستراتيجي للسلطة هي أن حماتها - وهم بشر - لم يستطيعوا أن يَحولوا بين أنفسهم وبين استخدام الجدل والحجج العقلية، مما أدى إلى حدوث الانقسامات في صفوفهم هم، وإلى إتاحة فرصة النصر للعقلانيين.

قد يعترف البعض بخطأ السلطة في محاكمة جاليليو، ولكنه يرى لها الحق مع ذلك في أن تتحكم في مجال العقائد التي تخرج عن نطاق الخبرات البشرية، والتي لا يمكن إثباتها أو التأكد من صحتها، كما لا يمكن إثبات خطئها. وفي الرد على ذلك نقول: إنه بوسع أي مخلوق أن يخترع أي عدد من الافتراضات التي لا يمكن إثبات خطئها، والتي يمكن لأي شخص أبله، أو مندفع، أو سهل الانخداع، أن يقبلها ويعتنقها. غير أنه ما من أحد يملك أن يدعي أن كل هذه الافتراضات جديرة بالتصديق ما لم يثبت كذبها. فإن كان بعضها فقط أهلًا لأن يصدق، فأي سلطان سوى سلطان العقل له أن يميز بين ما هو أهل للتصديق وما هو أهل للتكذيب؟ فإن ادعوا للسلطة هذا الحق، أجبنا بأن الكثير من المعتقدات التي آزرتها السلطة في الماضي ثبت على مر الأيام بطلانها وهُجرت... والخلاصة أن عبء الإثبات لا يقع على عاتق المكذب بل على عاتق المصدق. فلو أنه قيل لك إن بالفضاء الخارجي كوكبًا يسكنه جنس من الحمير، يتحدث بلسان عربي مبين، ويقضي يومه في مناقشة آراء ابن سينا وابن رشد، لما كان بوسعك أن تثبت كذب ما يقال لك. غير أنك لست مطالبًا بالتصديق لمجرد عجزك عن إثبات بطلان الزعم. ومع ذلك فإن البعض قد يقبل الفكرة ويصدقها متى كررتها السلطات بما فيه الكفاية، وأذاعتها الإذاعة والتلفزيون صباحًا ومساء، ونادى بها قوم من أسطح المنازل، وغرسها الآباء والمعلمون في ذهنه منذ طفولته، وأكدها له بقوة أناس يوقرهم ويحترمهم. ونحن نعلم عن يقين قوة تأثير التكرار في ثقة (كما في الإعلانات)، وقدرة هذا التكرار على تثبيت الآراء والعقائد في النفوس.

ولا شك في أن قمع الآراء الجديدة كثيرًا ما تسبب في الماضي في عرقلة التقدم أو الحيلولة دونه في المجتمعات البشرية. وقد كان هذا القمع يستند دائمًا إلى حجة أن الآراء الفاسدة ليست أخف ضررًا من الأعمال الإجرامية، وأنه من مسؤولية القائمين بالحكم مكافحة هذه كما أن من مسؤوليتهم مقاومة تلك. والرد الواضح على ذلك هو بالتساؤل عن الحكم بصدد تقييم الآراء، ومن صاحب الحق في الفصل بين الصحيح والباطل، والتمييز بين الإجرامي والبطولي، وبيان ما هو خليق بالمكافحة وما هو خليق بالتشجيع والرعاية. وكثيرًا ما حدث في التاريخ أن أدان حكام رأيًا ثم اعتنقه حكام تالون، كمكافحة حكومة القيصر نيقولا الثاني للشيوعية في روسيا، ومكافحة حكومة لينين بعدها للآراء المناهضة للشيوعية، كل بدعوى أن آراء خصمه آراء فاسدة. غير أن المثال الأقرب على هذا هو تغيير الفرد نفسه لآرائه بمرور الوقت، فالرأي الذي أؤمن اليوم بكل قوة وثقة بأنه صحيح وفوق مستوى الشبهات، قد أغيره بعد عام أو عامين وأرى خطله وفساده، ثم قد أنتقل من هذا الرأي الثاني في مستقبل أيامي إلى ثالث فرابع. ففي أية مرحلة إذن من تلك المراحل من العمر يمكنني أن أقول في ثقة إني على حق؟ وقد سبق لسيجموند فرويد أن عرَّف الآراء بأنها «اعتقاد المرء بصحة شيء ما لمجرد رغبته في أن يكون ذلك الشيء صحيحًا»، وعرَّف الشاعر روبرت جريفز الأساطير بأنها ديانات الآخرين. فمن ذا الذي بمقدوره أن يصف عقيدته بأنها العقيدة الحقة، وغيرها بأنها أساطير، وهو يعلم أنه لو كان قد ولد في بلد غير بلده، وبين قوم غير قومه، لوصف العقيدة التي يؤمن الآن بها بأنها من الأساطير؟

كذلك فإن الاحتجاج بأن عقيدة الأغلبية العظمى في مجتمع معين هي الحكم في مضمار صحة الرأي، هو الآخر احتجاج مردود عليه. فقد تخطئ الأغلبية في اعتقادها وقد يصيب إنسان فرد. ولو أن البشرية بأسرها أجمعت على رأي وخالفها فيه شخص واحد، لما حُق للبشرية أن تخمد صوته، تمامًا كما أنه ليس من حق هذا الفرد أن يخمد صوت البشرية. فإخماد الصوت في حد ذاته، وعلى حد تعبير جون ستيوارت ميل، «يضر بالجنس البشري، بحاضره ومستقبله، كما يضر بقامعي الرأي أكثر من إضراره بصاحب الرأي. ذلك أنه لو كان رأي ذلك الفرد سليمًا، لحُرم الناس بقمعه من فرصة تصحيح خطئهم، ولو كان رأيه باطلًا، لحُرموا من فضل يفوق فضل تصحيح الخطأ، ألا وهو الرؤية الأوضح للحق الناجمة عن صراعه مع الباطل. ذلك أنه حتى لو كانت عقيدة الأغلبية هي الحق المطلق، فإن حرمانها من فرصة إثبات نفسها على حساب الباطل يجردها من أسسها العقلانية، ويحجب الأسباب التي أحالتها من رأي إلى معرفة قطعية».

* * *

وختامًا فإن تأكيد حق كل إنسان في حرية التعبير عن رأيه، لا يستهدف استمرار اختلاف الآراء بين الناس إلى ما لا نهاية، ولا إبقاء الآراء دومًا محلًّا للشك والجدل. بالعكس، لقد كان من أفضال حرية التعبير عن الرأي على البشرية أن زادت (ولا تزال تزيد) من عدد الآراء والمعارف التي لم

تعد موضعًا للشك والخلاف، أو هي على الأقل ضيقت من حدود الشك واحتمال الخلاف. إذ من ذا بمقدوره اليوم، غير قلة يدينها الضمير البشري، أن يدافع عن نظام الرق أو تجارة العبيد، أو عن نظرية تفوق جنس على جنس، أو عن حرمان المرأة من الحقوق، أو أن ينكر أنه لا إكراه في الدين، أو حقوق الأقليات، إلى آخره؟ فالواقع أن تقدم البشرية يمكن أن يقاس بعدد وأهمية الحقائق التي لم تعد تثار الشكوك حولها. وهو أمر ما كان ليحدث لولا أن أتيحت للناس فرصة الطعن في المعتقدات السائدة، والحق في التعبير عن آرائهم المخالفة لفكر الغالبية في مجتمعهم، ولولا انتصار دعوى أنه خير امتحان للحقيقة هو قدرة الفكر على أن تلقى القبول في ظل التنافس في السوق، وأنه ما من شخصية أو جماعة قد بلغت من الحكمة مبلغًا يبيت من حقها معه أن تستقل بالحكم على هذا الرأي أو ذاك بالصحة أو البطلان.